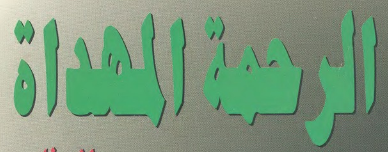


مجلة العرب الأدبية

العدد (٥٤٢) المجلد (٥٩) العام [٦٣] الربيعان ١٤١٨ هـ / يوليو واغسطس ١٩٩٧ م





ملف خاص



براءة الأطفال

كم وددنا ألا نتجاوزها





المنهل

مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أولى أمهات الصحافة السعودية

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

المركز الرئيسي:

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥ رمز بريدي ٢١٤٦١ برقيا: المنهل فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣ ت: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥ - ٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧ - الرياض: ص.ب ٢٩٠ ت: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٩ دراهم - مصر ١٥٠ قرشا - تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسه - الامارات ٨ دراهم - البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

الاشتراكات:

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤

- قيمة الاشتراك السنوي للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
- قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال



مما قل

ربيع الاول

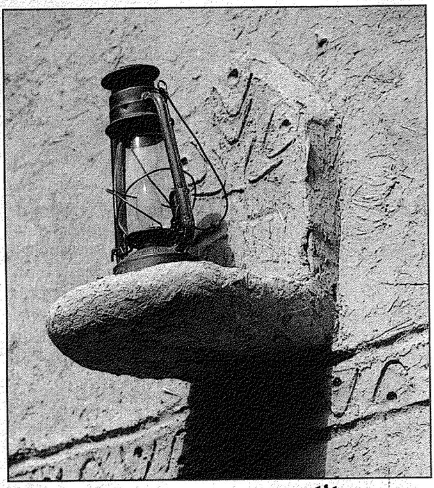
في هذا الشهر الميمون، أذن الله بأن يطلع في هذا الاقليم من جزيرة العرب في بلد الله الحرام؛ بدر منير، ليضيء بنوره الساطع الذي هو قبس من نور الله جل وعلا، ارجاء العالم؛ فكانت ولادة سيدنا «محمد» رسول الله {صلى الله عليه وسلم} في أحد ايام هذا الشهر الاغر، ألا وهو يوم الاثنين، وما أن استكمل {صلى الله عليه وسلم} أربعين عاما من عمره المبارك حتى بعثه الله الى الناس بشيراً ونذيراً، برسالة عامة، يبلغها للناس عامة؛ لاصلاح معاشهم ومعادهم، هي رسالة التوحيد الخالص والهدى الوضاء؛ والنور البهيج، والدعوة الى مكارم الاخلاق، والى التآلف والتآزر على الخير والحق والفضيلة، والتحالف على محو الشر والباطل والرذيلة. واستمر الرسول {صلى الله عليه وسلم} في جهاده المقدس، في تبليغ رسالة ربه العالية باللسان أولا ثم بالسنان، ففتح الله بهذا النور الوضاء قلوبا غلفاً وآذاناً صما وأبصاراً عمياً، ثم انتشر ضياء هذه الرسالة بسرعة أدهشت العالم؛ هي سرعة انتشار النور، فغشي العالم نور لامع جذاب، منبعث من سمو الايمان والاحسان، فاطمأن الناس واستبشر العالم بعد التجهم وسار في طريق السمو والكمال، أجيالا تلو أجيال فلا غرو إذن أن يتذكر المسلمون والعالم أجمع باستهلال هذا الشهر الاغر ذكريات المجد ومعاني الثبات والتضحية والاقدام.

«عبدالقدوس الأنصاري»

ربيع الأول ١٣٥٧هـ/ مايو ١٩٣٨م



لقطة الشهر



دولاب الحياة يَمُرّ سريعا ، مواكبا التطور الحضاري ، إلا أن جذور الماضى لاتزال تسري فى دمائنا ، دليل على التمسك بالتراث الحضاري .

اشارة

● تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.



طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر - جدة
تليفون: ٦٦٧٠٦٠٦ - فاكس: ٦٦٠٤٦٧٦

صاحب المجلة
رئيس التحرير
نبيه بن عبدالقدوس الأنصاري

مستشار التحرير
أ.د/ عبدالرحمن الأنصاري

نائب رئيس التحرير
المدير العام
زهير بن نبيه الأنصاري

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.



غلاف العدد

م ن ه ل ي ا ت

(أمْ على قلوب أقفالها)



العدد : (٥٤٢)
المجلد : (٥٩)
العام : (٦٣)





هالة من النور والضياء انتظمت سماء مكة المكرمة.

إنه الوحي ، ورسالة السماء..

وكفار قريش على أرض (مكة المكرمة) يُدبِّرون ، ويديرون المكائد للقلة المسلمة..

يسومونهم سوء العذاب..

يسوِّقون الأكاذيب والأضاليل والبهتان، عن الدين الجديد ورسول الدين الجديد.

ورسول الدين الجديد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بالأمس قبل الرسالة والوحي كان عندهم الصادق الأمين..

وكان عندهم موضع البشر والفأل الحسن..

وعندما جاءهم بالحق من ربهم قالوا عنه ما لا يصدقه عقل سويّ متزن..

هكذا الكفر، أكاذيب لا تنقضي عجائبها، وافتراءات لا تنتهي، وضلالات سابحة في ظلمات فوقها ظلمات.

كفار قريش، لو أعطوا عقولهم مساحة حرّة التفكير الحر، ولو أعطوا قلوبهم مساحة حرة للتروي والتفكر لعقلوا الأمر..

ولكن، «على قلوب أقفالها».

هذا عاقلهم وأوسع مداركهم، الوليد بن المغيرة، في رحلة لاقناع محمد [صلى الله عليه وسلم] بالرجوع الى دين آبائه أو هكذا كان ظنهم.

جلس الوليد إلى النبي [صلى الله عليه وسلم] وسمع منه، وأسمعه جزءاً من القرآن الكريم، أمام هذا الاعجاز الرباني اضطر الرجل لقول شهادة الحق (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق،.. إنه يعلو ولا يُعْلى عليه).

هكذا، في لحظة صدق مع النفس قال الوليد.. ولما رجع إلى قومه وأحاط به أركان الضلال، في هذه اللحظة (إنَّه فكَّر وقدَّر. فقُتل كيف قدَّر. ثم قُتلَ كيف قدَّر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحرٌ يؤثر إنْ هذا إلا قول البشر..)

هكذا الكفر، ظلمٌ وظلمات، وإنكار للحق وإن استيقنته أنفسهم.

«أفلا يتدبرون القرآن أمْ على قلوب اقفالها».

ليتهم وقفوا عند كفرهم ..

تتبعوا رسول الهدى، والرحمة المهداة ليأسروه أو يقتلوه.

تتبعوا المسلمين بالقتل والتعذيب..

«أفلا يتدبرون القرآن أمْ على قلوب اقفالها».

رئيس التحرير

وكلاء التوزيع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٧٦ – وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ – الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ – الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ – شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ – دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ – وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ – دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ – مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

الاعلانات: يراجع بشأنها الادارة ت: ٦٤٣٢١٢٤

فهرس العدد - ٥٤٢ - المجلد: ٥٩ - العام: ٦٣

في هذا العدد



الفهرس

١٢ - دار الجوف للعلوم - يوسف أبو عواد.
٢٠ - تيسير الفقه الاسلامي - الدكتور يوسف القرضاوي.
٢٨ - أفكار مثيرة للجدل (٧ - ٨) - الدكتور محمد عمارة.
٣٢ - خاتم النبيين - الدكتور يوسف الكتاني.
٣٩ - الإيمان وكماله في محبة النبي - عبد الله محمد أبكر.
٤٢ - التوقير من معالم المجتمع الإسلامي - الدكتور السيد رزق الطويل.
٤٤ - رحمة العالمين - شعر - د. محمد محمد محسن
٤٦ - الجدل النبوي - أدب وتربية - د. عبد الرحمن طالب.
٥٤ - رثاء المصطفى [صلى الله عليه وسلم] في الشعر - محمد جمعة العودات.
٥٨ - المزاح في حياة الرسول [صلى الله عليه وسلم] - إياد فرعون.
٦٢ - في القصص النبوي (٢٩) - الدكتور عبد الباسط حمودة.
٧٠ - شعراء من التراث - الدكتور عبده بدوي
٧٤ - معضلة المصطلح - محمد يحياتن.
٧٨ - الرديء يأكل الجيد - محمود قاسم.
٨٤ - الجوف في آثار عصور ما قبل الاسلام - الدكتور عبد الرحمن الطيب الانصاري.
٩٠ - الآثار الإسلامية في منطقة الجوف - الدكتور خليل بن ابراهيم المعيقل.
١٠١ - مجلة السائح العدد (٩٩).
١١٨ - من الكلمة إلى الفكرة (٩) - محمد العربي الخطابي.
١٢٠ - بين معيارية العروض وإيقاعية الشعر - احمد سالم باعطب.
١٢٦ - رحلة في الذاكرة - الدكتور محمد رجب البيومي.
١٣٠ - سر الزجاجة - الدكتور عبد الرزاق فراج الصاعدي.
١٣٢ - موت الدماغ - الدكتور محمد علي البار.
١٤٠ - أغنية حب - شعر - لطفي عز الدين.
١٤١ - مجلة من العدد (١٠٢)
١٥٤ - شذرات الذهب - الدكتور أبو حسام.
١٥٨ - مسك الختام - ابراهيم نويري.

دار الجوف للعلوم ص ١٢
تيسير الفقه الاسلامي ص ٢٠
الرحمة المهداة (ملف) ص ٣٩ - ٥٨.
معضلة المصطلح ص ٧٤.
الرديء يأكل الجيد ص ٧٨.
موت الدماغ بين الاكلينكي والشرعي ص١٣٢

أقلام:

أ. د. يوسف القرضاوي
د. محمد علي البار.
أ. د. يوسف الكتاني.
أ.د. سيد رزق الطويل.
أ.د. عبد الرحمن الانصاري.
د. خليل المعيقل.
أ.د. عبده بدوي
محمود قاسم.

أول الغيث

تعليق وتعقيب:

(فضلا عن ..)

البحث اللغوي من الأمور التي تكتنفها مشكلات كثيرة في هذا العصر، ولا مجال هنا لبحث ذلك فهو يحتاج لمبحث مُفرد، ولكن أشيرُ إلى بعضها، فمنها اتساع مجال البحث بصورة عظيمة بحيث لا تكاد تجد من يمكنه الاطلاع على جميع مصنفات هذا العلم لتكتمل له جوانب البحث من كُتُب نَحْو ومعجمات وتفاسير ودواوين شعر وكتب أدب وشروحها، وحتى مع القدرة والصبر على هذا البحث، فمن الصعب توفير كل ما يحتاجه المرء من المراجع، وحتى إن توفرت، فليست ميَسَّرة البحث فقد تحتاج إلى عمرك كله لاستقصائها، هذا إن كان عمرك كافيا!!.

والمعجمات وحدها مشكلة المشاكل، ولن نتكلم عن تحرير ما فيها من تصحيف وتحريف، ولا نتكلم عن ذكرها لبعض جوانب المادة دون بعض، ولا نتكلم عن ذكرها لأشياء في غير مظانها.

وإنما نتكلم عن بُعْد هذه المعجمات عن المثقف العربي، ومن ثمَّ فقد أحجمت دور النشر عن طبعها وتحقيقها، اللهم إلا بعون من جهة تريد نشر التراث دون الكسب المادي.

ولا أتحدث عن المعجمات المشهورة كالقاموس واللسان، وإنما أتكلم عن أمثال «تهذيب الأزهري» و«عباب الصفاني» و«جاسوس الشدياق» ونحو ذلك مما يحتاجه الباحث اللغوي.

وهذه المقدمة - على طولها - ضرورية لألتمس العذر لنفسي قبل غيري في قصور المادة العلمية وعدم استيعابها مهما بذلت من جهد واستفرغت من وسع.

وبعد:

فقد أمتعنا الشيخ (أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري) ببحثه عن قولهم (فلان لا يملك درهما فضلا عن دينار) المنشور في [المنهل العدد رقم ٥٣٩ لشهر ذي الحجة ١٤١٧هـ الموافق لشهر ابريل ١٩٩٧م، في الصفحات (٨٦ - ٨٩)] وبعد قراءاتي له كان لي بعض الملاحظات أثبتها في هذا المقال.

فَبَدْأة بَدْأة نجد الشيخ لم يستوعب النظر في المعجمات المشهورة، فقد أفاد الفيومي في مصباحه فوائد عظيمة، قال[١]:

«قال قطب الدين الشيرازي في [شرح المفتاح]: اعلم أن «فضلا» يستعمل في موضع يستبعد فيه الأدنى ويراد به استحالة ما فوقه، ولهذا يقع بين كلامين متغايري المعنى، وأكثر استعماله أن يجيء بعد نفي.

وقال شيخنا أبو حيان الأندلسي نزيل مصر المحروسة أبقاه الله تعالى: ولم أظفر بنص على أن مثل هذا التركيب من كلام العرب، وبسط القول في هذه المسألة وهو قريب مما تقدم».

وقد يلتمس العذر للشيخ بأن المقام يضيق عن استيعاب النقول على أن ما فاته من ذلك ليس مما يُنْقص بحثه.

ولكننا نلمح في أثناء كلامه ما يدل على أنه يذهب إلى لحن هذا الاستعمال في العربية، لإصراره على رد كل الوجوه الإعرابية في كلام ابن هشام ، إما لأنها بعيدة وإما لأنها لا تطابق مراد المتكلم، وهذا صواب، ولكنه ينسحب على مراد المتكلم، وهو «الأولوية» أيضا، فكل تقدير نقدره على أن معنى (فضلا) هو الأولوية سيكون بعيدا مثل بُعْد التقديرات المذكورة.

وكذلك فهناك تقدير آخر فات ابن هشام، وهو الذى أفهمه من قول القائل (فضلا عن)، وهو: لا يملك درهما؛ فضلا عن ذكر الدينار، أي: «لا يملك درهما» ثم يقول: أكتفى بقولى «درهما» عن ذكر الدينار، وليس هذا التقدير بمتكلف، ولا هو بمناف لمهيع كلام العرب، بل كلامها مليء بمثل هذا التوسع في القول.

ولم يبين الشيخ - ربما لضيق

المقام - تاريخ استعمال هذا التركيب مع أن البحث عنه في كلام الأدباء قد يلقي الضوء على بعض وجوه صحة المعنى والمبنى، فربما وجد له شاهد يحتج به أو يستأنس به على أقل تقدير لا سيما إذا لم يعرف عن علماء اللغة أن أحدهم أنكر مثل هذا التركيب.

وقد اجتهدت في البحث عن هذا التركيب في كتب الأدب فوجدت ما يشهد له، فقد قال ابن المقفع[٢]: وألا تكون دبّاغاً ولا حجّاماً لعامٍّ فضلا عن خاصٍّ خدْمَة الملك».

وابن المقفع متوفى سنة ١٤٥هـ أي في عصر الاحتجاج اللغوي!! بل إن ابن خالويه قال في كتاب ليس[٣]: «حدثنا ابن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: قرأت آداب ابن المقفع فلم أر فيها لحنا إلا قوله: العلم أكثر من أن يحاط بالكل منه فاحفظوا البعض».

وهذا سند صحيح عن الأصمعي، ويؤخذ من ذلك شيئان:

الأول: أن كلام ابن المقفع صحيح لغة أو على الأقل يستأنس به في اللغة، لأن الاستثناء يخرج الكلام عن كونه مجاز تغليب.

الثاني: أن الأصمعي متشدد في اللغة، لأن هذه المسألة الوحيدة التي أنكرها على ابن المقفع أجاز استعمالها كثير من العلماء، قال الأزهري[٤]: النحويون أجازوا الألف واللام في بعض وكل وإن أباه الأصمعي.

قلت: وقد جمعتُ شواهد في ذلك ومنها قول سحيم[٥]:

رأيت الغني والفقير كليهما
الى الموت يأتي الموت للكل معمدا

وقول المرقش الأصغر[٦]:

شهدت به عن غارة مسبطرة
يطاعن بعض القوم والبعض طوحوا

وقول مجنون ليلى[٧]:

لا يذكر البعض من ديني فينكره
ولا يحدثنى أن سوف يقضيني

وليس المجالُ مجال بحث ذلك، ولكن المراد أن هذا الذي استنكره الأصمعي على ابن المقفع موجود في كلام العرب، وهذا مما يزيد الثقة بكلامه ولا شك، وقد تتبعت كتاب «كليلة ودمنة» وكتاب «الأدب الكبير» وكتاب «الأدب الصغير» لابن المقفع فلم أجد في واحد منها لحنا متفقا عليه، بل كل ما استنكر فيه، يترجح جوازه بعد البحث والفحص.

وهناك شاهد شعري من العصر العباسي، وهو قول صريع الغواني مسلم بن الوليد[٨]:

أطرق لما أتيت ممتدحا
فلم يقل «لا» فضلا على «نعم»

وليس مرادي من ذكر هذه الشواهد إثبات صحة هذا التركيب بالقطع ولكني إنما أعرض ما بلغه جهدي من البحث.

وختاما أقول إنه كان ينبغى للشيخ أن يذكر بديلا عن التركيب الذي أنكره، وقد فكرت طويلا في هذا البديل حتى وجدته، وهو كلمة «بَلْهَ» بمعنى «دَعْ».

قال كعب بن مالك:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا
قدما ونلحقها إذا لم تلحق

تذر الجماجم ضاحيا هاماتها
بَلْهَ الأكف كأنها لم تخلق

يقول:

هي تقطع الهام فدع الأكف، أي هي أجدر أن تقطع الأكف[٩].

وقال أبو زيد:

حمال أثقال أهل الود آونة
أعطيهم الجهد مني بَلْهَ ما أسعُ

أي أعطيهم مالا أجده إلا بجهد، دع ما أقدر عليه وأسعه فهو أجدر أن أعطيهم[١٠].

وفي النهاية أشكر الشيخ على جهده، وأسأله مزيدا من البحوث المفيدة في دقائق اللغة.

الهوامش:

(١) المصباح (ف ض ل) ص ٤٧٦.
(٢) كليلة ودمنة (باب الفحص عن أمر دمنة) ص ٢١٧.
(٣) المزهر للسيوطي (١٥٨/٢).
(٤) لسان العرب (ب ع ض).
(٥) رسالة الغفران ص (٤٥٦).
(٦) مجلة مجمع اللغة العربية المصري (صفر ١٤٠٤هـ - ص ١٦٦).
(٧) أزاهير الفصحى في دقائق اللغة ص ١٢٤.
(٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٣٣.
(٩) لسان العرب (ب ل هـ).
(١٠) السابق.

أبو عبد الرحمن السالمي
- مصر -



بينالي الشارقة الدولي للفنون

تظاهرة تشكيلية عربية تمنح التفاؤل بمستقبل اكثر اشراقاً للفن التشكيلي في الوطن العربي



الكتور سلطان القاسمي مع احد اعمال البينالي

خاص بالمنهل من (عبد الرحمن السليمان)

افتتح سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى، حاكم الشارقة بدولة الامارات العربية المتحدة مؤخراً بينالي الشارقة الدولي الثالث للفنون في مركز الأكسبو بإمارة الشارقة وسط حضور عربي ودولي كبير احتفى بهذه المناسبة، آملا منها تحقيق المزيد من الإنجازات التى تفتقدها الساحة التشكيلية في الوطن العربي وذلك عبر التوصيات التي رفعها الفنانون المشاركون في الندوة الدولية الموازية بعد أربعة أيام من الجلسات نوقشت فيها «الشعرية البصرية».

تجاوزت أعمال البينالي (ألفاً وخمسمئة) عمل فني قدمها ٣٦٩ فناناً وفنانة من أقطار العالم كافة. وقد شكلت لجنة تحكيم برئاسة الفنان العربي مروان قصاب باشي وادوارد لوسي سميث وأسعد عرابي وجونسون تسونج زونج ودومينك تينو وعلى اللواتي وحسن شريف وطلال معلا. ومنحت اللجنة الفنان الفلسطيني جيفر الخالدي جائزة البينالي الكبرى والفنان عبد اللطيف الصمودي/ سوريا الجائزة الأولى «تصوير» والفنان ثائر هلال/ سوريا الجائزة الثانية تصوير والفنان عبد الرحمن السليمان/ السعودية الجائزة الثالثة «تصوير» ومنحت جائزة النحت للاماراتي حسين شريف والثانية لفتحية معتوق وجائزة التنصيبات لعماد بوزيد. ومنحت جائزة الحفر لسوزان ماتنيرو والثانية ارجوه بنت على ونوهت اللجنة بأعمال عدد من المشاركين.

تضمن البينالي عروضاً شخصية لأعمال تسعة من الفنانين من بينهم محمد المليحي/ المغرب، سلوى شقير/ لبنان، يوسف احمد/ قطر، عبد القادر الريس «الامارات» ، وقد كرم البينالي هؤلاء الأربعة في خطوة تقديرية لدورهم في حركة الفن التشكيلي المحلي والخليجي والعربي.

وقدمت عروض فردية لراشد دياب/ السودان، عبد العزيز عاشور/ السعودية، محمد عبلة/ مصر، سعاد العطار/ العراق، أندريه كوستر/ ألمانيا، أنو شيروان بيكسيان/ طاجكستان، بيلج الكور من تركيا وجورج كارسكو من بوليفيا ومحمد احمد ابراهيم من دولة الإمارات العربية المتحدة.

تضمن البينالي عروضاً وتجارب بصرية، واستضاف عدداً من الفنانين طيلة أيام الإفتتاح تمّ خلالها تنفيذ عدد من التجارب البصرية الشيقة.

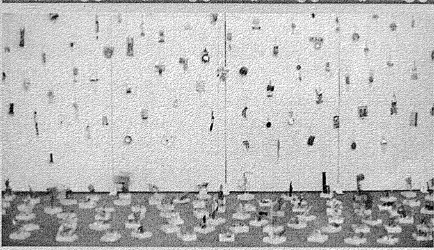
وتُوّج بينالي هذه الدورة بالندوة الدولية الموازية للبينالي التي أقيمت لأربعة أيام، كانت على جلسات صباحية ومسائية وكانت إضافة هامة يعززها وجود رائع لباحثين ونقاد وفنانين من الوطن العربي، ودول العالم قدموا أوراقهم ومداخلاتهم حول عنوان الندوة «الشعرية البصرية» وخلصت الندوة الدولية الموازية إلى طرح عدد من التوصيات الهامة من بينها:

(إيلاء المصطلح النقدي التشكيلي العربي أهمية خاصة في الندوات

الدولية الموازية في دورات البينالي القادمة، الحرص على ترجمة البحوث المقدمة أو ملخصات عنها إلى العربية والفرنسية والإنجليزية، السعي إلى التنسيق بين البيناليات العربية على الصعيد الفني والنظري والتنظيمي والإعلامي، التشجيع على تحقيق التكامل بين الفنون، العمل على وضع كتاب شامل عن الفن العربي المعاصر كتجربة رائدة قبل نهاية هذا القرن باحتضان من امارة الشارقة، إصدار مجلة عن التشكيل في الوطن العربي على أن يتولى اصدارها بينالي الشارقة.

ونشير إلى أنه واجهت الندوة الدولية إشكالية في الترجمة من العربية إلى لغات أخرى، والعكس خاصة مع وجود مشاركين من غير العرب. كما تواجه البيناليات العربية - كما أشارت إحدى توصيات الندوة - إشكالية التوقيت فيما بينها حيث يقام بينالي القاهرة الدولي في أواخر ديسمبر، وبينالي الشارقة مع بداية إبريل وبينالي المحبة باللاذقية السورية خلال يوليو. وهي فترة متقاربة جدا . في عام واحد. أما على مستوى التأليف فتوصية الندوة تأتي ولا تزال الجهود التى بُذلت في التأليف على المستوى العربي محدودة جداً وقاصرة عن الشمول. ومخلوطة ولا تخلو من الأخطاء أو الحشو. وعلى مستوى المجلات المتخصصة فلا توجد منها سوى «الحياة التشكيلية» التي تصدر عن وزارة الثقافة السورية بشكل غير منتظم ومحدود على مستوى المشاركة والتوزيع، خاصة مع توقف مجلة تعتبر هامة حملت عنوان (فنون عربية) صدرت من لندن ولم تتجاوز أعدادها العشرة.

دائرة الثقافة والاعلام بحكومة الشارقة هي الجهة المنظمة والراعية



جائزة النحت من اعمال حسين شرين



جانب من ندوة البينالي

للبينالي الذي يرأسه وينسق له مدير عام الدائرة عبد الرحمن حسن عبيد وينوب عنه هشام المظلوم مدير ادارة الفنون بالدائرة. وقد شكلت لجان تنظيمية واعلامية ولجان فرز وإعلامية ومالية وتنسيق وعلاقات عامة ونشر وغيرها قامت هذه اللجان بدور كبير لإنجاح هذه التظاهرة الدولية الكبيرة وتم إصدار عدد من المطبوعات من بينها:

الدليل الضخم للبينالي وقد تضمن اكثر من ٣٥٠ عملا فنياً وتضمن تعريفات بالمشاركين ولجنة التحكيم، وغيرها . وصدرت كتيبات عن الشعرية البصرية إحداها مقتطفات لأوراق الندوة الدولية. منها كتيب بعنوان «في الشعرية البصرية» وآخر بعنوان «شكل الذاكرة» ومحتويات الإصدارين دراسات حول موضوع الندوة لنقاد وباحثين وفنانين عرب وأجانب. من الإصدارات كتيبات «أدلة» حول التجارب البصرية والمعارض الشخصية وكروت لأعمال بعض المشاركين وإصدارات أخرى.

ختاماً تأتي مبادرة بينالي الشارقة الدولى للفنون وكما تقول دائرة الثقافة والاعلام في تقديمها عن البينالي أنه «فى إطار نشر الوعي الثقافي والارتقاء بمستوى الإدراك الفني خاصة في مجال التشكيل على نحو يعزز التواصل بين الفنان والجمهور، والتاكيد على تطور الحركة التشكيلية.

المسابقة الأدبية السابعة للنادي الأدبي في المنطقة الشرقية

يعلن نادي المنطقة الشرقية الأدبي عن مسابقته الأدبية السابعة

مجالات المسابقة:

١ - الشعر: قصيدة في أي مجال من مجالات الشعر.

٢ - القصة: قصة قصيرة تتوافر فيها مقومات الإبداع القصصي.

٣ - قراءة تحليلية نقدية لقصيدة أو قصة قصيرة، مع إرفاق نص القصيدة أو القصة التي تناولتها القراءة (يشترط أن تكون القصيدة أو القصة مكتوبة باللغة العربية الفصحى).

شروط المسابقة:

١ - المسابقة مفتوحة للشباب والشابات من السعوديين وغيرهم من المقيمين في المملكة العربية السعودية، شريطة ألا يقل عمر المتسابق أو المتسابقة عن ثمانية عشر عاما، ولا يزيد على ثلاثين عاما.

٢ - يشترط أن تكون الأعمال المقدمة مكتوبة باللغة العربية الفصحي، ولم يسبق نشرها، ولم يسبق فوزها في مسابقة أخرى.

٣ - لا يجوز للمتسابق أو المتسابقة أن يتقدم في أكثر من مجال.

٤ - لا يجوز للمتسابق أو المتسابقة أن يتقدم بأكثر من عمل في المجال الواحد.

٥ - الأعمال التي ترد إلى النادي يجب أن تكون مطبوعة على الآلة الكاتبة، وأن يرسل الأصل مع صورتين.

٦ - جميع الأعمال التي ترد إلى النادي لا تعاد إلى أصحابها.

٧ - الأعمال الفائزة تصبح من حقوق النادي ولا يجوز نشرها لغيره.

٨ - تسلم الأعمال المقدمة للمسابقة إلى إدارة النادي مباشرة، أو ترسل إليه على صندوق البريد ٨٤٣٨ - الدمام الرمز البريدي ٣١٤٨٢ بعد أن يكتب الاسم والعنوان كاملا على الظرف. كما يجب أن يكتب عليه عبارة (مسابقة نادي المنطقة الشرقية الأدبي السابعة).

٩ - ترفق بالأعمال المقدمة للمسابقة صورة من البطاقة الشخصية أو الإقامة وشهادة الميلاد ولن ينظر إلى الأعمال التي لا ترفق بها صور هذه الوثائق.

١٠ - آخر موعد لقبول الأعمال المقدمة نهاية شهر جمادى الآخرة ١٤١٨هـ ولن ينظر إلى الأعمال التي تصل بعد هذا التاريخ.

جوائز المسابقة:

يخصص لكل مجال من مجالات المسابقة ثلاث جوائز على النحو التالي:

الجائزة الأولى: ثلاثة آلاف ريال.

الجائزة الثانية: ألفان وخمسمائة ريال.

الجائزة الثالثة: ألفا ريال.

مصادر التراجم السعودية:

صدر حديثا عن مكتبة الملك فهد الوطنية وفي إطار السلسلة الثالثة التي تختص بنشر البيليوجرافيات والكشافات والفهارس تحت رقم (٣٠) كتاب «مصادر التراجم السعودية.. دراسة توثيقية وقائمة ببليوجرافية مشروحة» لعلي السليمان الصوينع.

ويشتمل الكتاب على ستة فصول أولها فصل تمهيدي تناول منهج الحصر الببليوجرافي بينما تناول الفصل الثاني انواع واشكال مصادر المعلومات المحصورة إلى جانب وصف سماتها العامة وطريقة تنظيمها وأشكال مصادر المعلومات.

الفصل الخامس يتناول موضوع التراجم السعودية في الدوريات مع الإشارة إلى أبرز الكشافات الفردية والشاملة ثم يأتي الفصل السادس الذي يقع في صلب هذا العمل بل هو غايته حيث تم حصر أكثر من ثلاثمئة مصدر من مصادر التراجم المتنوعة التي تم الاطلاع عليها وحصرها مرتبة حسب اسم المؤلف ثم وصف محتوياتها بمستخلصات موجزة.

وينتهي الكتاب بالكشاف الشامل الذي يساعد على تتبع محتويات العمل كلها واسترجاعها بالعنوان أو المؤلف أو الموضوعات العامة والدقيقة التي لها صلة بمصادر التراجم السعودية.

أما الفصل الثالث فهو دراسة توثيقية موجهة لمعالجة مصادر التراجم من ناحية التنظيم والاسترجاع في أنظمة المكتبات ويستعرض الفصل الرابع أبرز مصادر المعلومات الببليوجرافية العامة والمتخصصة مع سرد بعض كتب التاريخ التي تتناول ملوك المملكة وتاريخها.

ويأتي إصدار الكتاب انطلاقا مما تمثله التراجم والسير كونها تعد أهم مصادر المعلومات الشخصية التي يحتاجها الباحثون والإداريون والقارىء العادي على حد سواء، ولهذا نجد ان التراجم تعد من أكثر مصادر المعلومات استخداماً في المكتبات ومراكز المعلومات على اختلاف أنواعها.

سرقات : سرقات لا سرقة واحدة

في عدد شهر ذي الحجة ١٤١٧هـ/ الموافق لشهر ابريل ١٩٩٧م وفي الصفحتين (الثانية عشرة والثالثة عشرة) من نفس العدد نشرت المنهل رسالة عن سرقات (كامل محمد محمد عويضة).

وهنا ننشر رسالتين خاصتين بسرقات (كامل محمد محمد عويضة) الرسالة الأولى من الاستاذ الدكتور محمد رجب البيومي حيث ادعى (عويضة) ان الدكتور محمد رجب البيومي راجع بعض كتبه، والأخرى من الاستاذ فرج مجاهد عبد الوهاب الذي وقف على مجموعة كتب مسروقة ادعى سارقها (عويضة) بمراجعة الدكتور محمد رجب البيومي لها. «المنهل»

فإلى الرسالتين:

أخي الأستاذ نبيه الانصاري..

سلاما وحبا .. وبعد..

فتلميذي وصديقي الأستاذ فرج مجاهد من أدباء مصر، وهو يتابع الحركة التأليفية على نحو شمولي، وقد وقف على مأساة تتعلق بي حين وجد إنسانا يجعلني دون أن أعلم شيئا مراجعا لكتب في علم النفس، وقد سبق أن نشرت المنهل مقالات لكاتب مغربي هو الدكتور (صادق العماري) تفضح سرقاته، فلابد أن تكون هذه الكتب مسروقة أيضا، فرجائي التكرم بنشر ما يرسله إليكم الأستاذ فرج مجاهد إقرارا للحق ودفعا لتهمة قد يلصقها بي من لا يعرف حقيقة الأمر.

ولكم جزيل الشكر.. وتفضلوا فائق الاحترام.

أخوكم محمد رجب البيومي

سبق أن أرسلت إلى المنهل الأغر كلمة موجزة عن كتاب في علم النفس نُسبت مراجعته زورا إلى الدكتور محمد رجب البيومي، ولم أكن أدرى أن سلسلة تتضمن عشرة كتب، سرقت بهذا الطراز، ونُسبت مراجعتها للدكتور محمد رجب البيومي، وقد دهش استاذنا الدكتور البيومي، وأرسل إلى بعض المجلات ما يدل على تبرئته، وأوصاني أن أُلحقَ تعليقي السابق بمجلة المنهل برسالة أخرى تتضمن بعض أسماء هذه الكتب المسروقة.

وأقول المسروقة لأن مجلة المنهل قد نشرت مقالين خاصين بأنواع من هذه السرقات التي قام بها المؤلف المزعوم الشيخ كامل محمد محمد عويضة (راجع المنهل عدد رمضان/ شوال ١٤١٥هـ عدد ٥٢١ وما قبله).

أما الكتب التي تبرأ الدكتور محمد رجب البيومي من مراجعتها، فلم أستطع الحصول إلا على بعضها ومنها:

(أ) سلسلة علم النفس:

- علم النفس الصناعي.
- سيكولوجية العقل البشري.
- علم نفس الشخصية.
- سيكولوجية الطفولة.

سلسلة علم النفس
سيكولوجية الطفولة
إعداد
كامل محمد محمد عويضة
مراجعة
أ. د محمد رجب البيومي
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

- مبادىء الطب النفسي.
- علم النفس بين الشخصية والفكر.

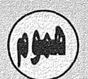
(ب) سلسلة الأعلام من الفلسفة:

وهي أكثر من كتاب، مع ملاحظة أن كل الكتب نشرتها دار الكتب العلمية في بيروت بلبنان.

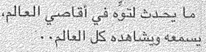
وهذه المسألة لا أدرى كيف يواجه الجمهور الأدبي أدوارها الشائنة، إذ يسطو ناسخ على كتب الناس وينشرها باسمه.. ويفتري على الدكتور محمد رجب البيومى فيجعله مراجعا، والحمد لله أن هذه الكتب ليست في تخصص الدكتور البيومى وهو النقد والبلاغة، كما ليست تنتمى إلى ما يكتب من فصول في التاريخ الإسلامى والدعوة الدينية والصحوة الفكرية المعاصرة.

وهذا إحقاق للحق.. فأرجو نشر هذا التعقيب سريعا ليأتى بثمرته المفيدة.

فرج مجاهد عبدالوهاب - مصر -



فضائيات العالم العربي



العالم أصبح قرية صغيرة، صغيرة

ما يحدث لتوّه في أقاصي العالم، يسمعه ويشاهده كل العالم..

رغبة الناس في السماع والمشاهدة لمتابعة أخبار الآخرين أصبحت متاحة، ومشروعة..

ويبقى شيء غاية في الأهمية والدقة.

ماذا نُسْمِعُ العالم عنّا..؟! بل قبل هذا ماذا نُسْمِعُ أنفسنا في الداخل..؟! على اتساع آماد عالمنا الإسلامي والعربي؟!

هل نعيد بثّ ما لدينا من أفلام وتمثيليات وأغان، وملْهيات أصبحت مكرورة وممجوجه ومُملّة.. بل غاية في السفه لا تخدم غرضاً ولا تقيم معوجاً ولا تبني فضيلة ولا تزيل منكراً..!!

هل نلهي أنفسنا عن قضايانا الكبرى (التحضر - التقدم - الحرية - التصنيع - الأخلاق - المثل الرفيعة ... الخ ... الخ).

بشيء من اللهو والطرب تناله أنفسنا..؟!!

بكل ميادين الرياضة .. من كرة القدم الى الهوكي؟!

ثم ماذا نُسْمِعُ العالم عنّا؟!

هل نبث إليه هذا القدر الوافر من عدم احترام النفس وتقدير التراث..؟!

أم نعيد إليه بث بضاعته، بكل جملها ومفرداتها؟!

بطبيعة الحال، لا تذهب بنا عتمة الصورة إلى درجة غمط الناس حقهم.

كلا.. هناك برامج غاية في الإفادة..

برامج في الاجتماع وقضاياه، في الدين، في السياسة، في العلوم والمخترعات، في الأدب والثقافة، في الفكر والمعرفة،

ولكن..؟!!

ضع خارطة البرامج المقدمة يومياً على مدى أربع وعشرين ساعة.. ضعها أمامك وانظر فيها جيداً، جيداً جداً..

والآن دوِّن بقلمك..

هذه البرامج التي يمكن أن تكون جادة ويفيد منها المشاهد، ترى كم بلغت مساحتها في هذه الخارطة..؟!!

الإرسال الفضائي أصبح إرسالا رسالياً إلى حد كبير جداً.. الفضائيات رسالة مفتوحة لكل المشاهدين في كل العالم، بكل أجناسهم ولغاتهم وأمزجتهم.. حتى الأغنية رسالة.. نعم، حتى الاغنية رسالة.. أليست هذه (الأغنية) ثقافة قوم، وتراث قوم، وفكر قوم؟؟.

إذن، أوروبا لا تلهو .. بل هي منطقية كل المنطق فيما تقدم لقومها وشعبها، لان هذه حياتهم وهذا سلوكهم وتلك منهجية حياتهم..

أما نحن .. نلهو ..!!

نعم، نلهو !!

انها بضاعتهم بكل بصماتها نعيد تسويقها لأنفسنا.

معذرة سادتي..

لنعد قراءة الخارطة من جديد.. ولنكن اكثر جداً.. ولنكن صرحاء مع أنفسنا.

إذن، فلنعد الصياغة ثانية.

السماني كمال الدين - جدة -

وجهة نظر:

الديمقراطيات، نسمع، ونرى، ونقرأ عنها العجب.. مضمون المصطلح يشير إلى قيام أمة راقية، وحضارة راقية..

أمة تحترم الرأي الآخر، لا تنقصه من حقه شيئاً، ولا تضطهده بسبب من أسباب حياته، في معتقده، أو عرقه، أو قناعاته.. العقل فيها موفور القدر، يفكر - يتمذهب - يكتشف - يخترع - يصنع ... الخ.

الحرية فيها مكفولة، طلقة الجانب، لا حجر ولا مصادرة.. كل هذه معان جميلة، لقيام حضارة نابهة ذكية .. وإن كان ينقصها ضوابط (الروح).

هذا في مجال التنظير، وهي مرحلة لابد من تجاوزها الى التطبيق والعمل.. في جانب التطبيق على يد الحكومات الأوربية وامريكا نجد هذه (المعاني الراقية) قد أخذت شكلين متناقضين متنافرين تمام التناقض والتنافر.. في داخل أوروبا وأمريكا نجد هذه الديمقراطيات مطبقة بحرفية تصل الى حدِّ الجنون في الحريات. وبطبيعة الحال، ومن المفترض بداهة ان تكون العقلية الديمقراطية، هي العقلية الديمقراطية في كل مكان وزمان من غير تبدل أو تغير. بنظرة عامة لكبريات القضايا في العالم، نجد تعامل (رعاة الديمقراطية وحقوق الانسان) في العالم مع هذه القضايا قد تحول وتبدل إلى تعامل (رعاة البقر).. يتعاملون مع الآخر بقدر وافر من التعالي والكبرياء والأنفة.. كأنما هذا الآخر ليس بشراً .. وبالتالي ليس له الحق في التمتع بمخصصات حقوق البشر. امريكا: مثلا: تستخدم حق النقض (الفيتو) لمجرد محاولة إدانة اسرائيل في مذبحة (قانا) في جنوب لبنان!!! تفرض حظراً جوياً واقتصاديا على شعوب بكاملها لمجرد خلافات سياسية. تأمر دُوَلا لها سيادتها بأن لا تبيع أسلحة لدولة ما..!! ثم تضع مجموعة من دول العالم تحت بند (خرق حقوق الانسان)!!

وأوروبا ليست بأحسن حالا من أمريكا.

هكذا .. حقوق الانسان، مصانة موفورة لشعوبهم، مهانة منتزعة من الآخر الذي لا يستحقها، برأيهم.

محمد السمان - السودان -

تواصل:

الأستاذ / رئيس التحرير ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وجزاكم الله خيراً على الاعداد التي ارسلتموها لي ، ولدي بعض الاقتراحات أرى بكل تواضع انها مفيدة، مع العلم مراسلكم طالب مغترب يدرس في قسم الدراسات العليا الادب الغربي..

باب كتب واصدارات ارى ان يكون في كل عدد ، مع التوسع فيه وان يشمل بعض الاصدارات التي تصدر في الدول العربية، مع كتابة عنوان دار النشر بالكامل لافادة القارىء، وتسهيل اتصاله بدار النشر للحصول على هذا الكتاب..

مع اضافة او زيادة اللقاءات الصحفية الثقافية والفكرية والادبية مع رواد الحركة الثقافية والادبية في العالم العربي، نظراً لأهميتها وأهمية ما تتناوله من مواضيع مختلفة متابعة المهرجانات الادبية متابعة دقيقة وكتابة ريبرتاج عنها، وما تناولته.. وكذلك الملتقيات، متابعة الرسائل الجامعية - الماجستير والدكتوراه المناقشة في داخل المملكة وخارجها وخاصة القيمة منها، وكتابه تلخيص عنها ومحتواها والجامعة التي نوقشت فيها هذه الاطروحة.

الاشتراك مع ناد أدبي أو جمعية ثقافية لاقامة ندوات فكرية وثقافية وان تكون هناك مسابقة سنوية لمجلة المنهل، وأن تكون الجائزة رمزية - أو مالية وان يتم الاعلان عن محتوى المسابقة.

محمد عبد الهادي

المنهل:

نشكر لكم هذا التواصل الطيب مع مجلتكم المنهل .. ونقدر لكم هذه المقترحات الطيبة .. وبتصفحكم لاعداد المنهل تجدون كثيرا منها قد نُفِّذَ فعلا.. مثل الاصدارات والرسائل الجامعية والندوات والمسابقات حيث اجريت مسابقات في القصة القصيرة والمسرحية ذات الفصل الواحد والشعر.

ونأمل التوسع في بعض هذه الأبواب حسب الخطة المقترحة للمجلة.

نكرر لكم الشكر على تواصلكم..

رسالة:

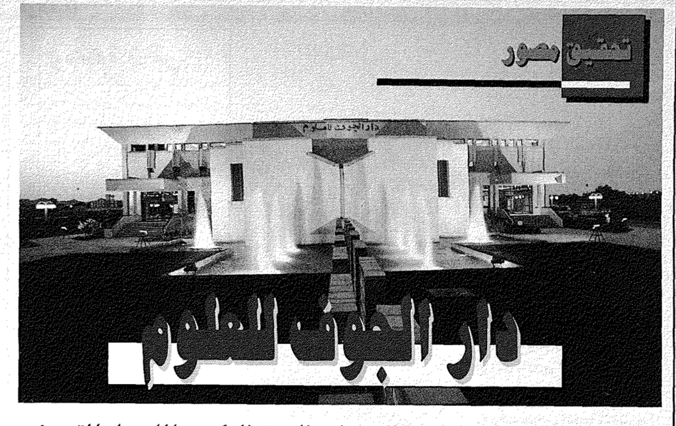
الاستاذ رئيس التحرير ..

أخط إليكم عبر هذه السطور رسالتي وكلي أمل أن تبقى مجلة المنهل بهذا المستوى بل وأفضل لأن مسؤولية القلم والفكر باتت اليوم مسؤولية كبرى أمام التحديات الثقافية التي تواجه أمتنا. إن وجود مطبوعة عربية إسلامية على هذا المستوى قادرة أن تجذب القارىء العربي وتساهم في محو أميتنا الثقافية لهي أمنية غالية في زماننا هذا.

محمد أسامة سليمان - سوريا -

المنهل:

نرجو أن نكون عند حسن الظنّ دائما ..



دار الجوف للعلوم

*** في المملكة العربية السعودية إلى جانب الجهد الحكومي الملحوظ والمقدر في تنمية المناطق بشرياً واقتصادياً واجتماعيا وعلمياً وفكريا، إلى جانب هذا الجهد يقوم جهد شعبي مساند، يتناول عطاءات المناطق بالتعريف والتحليل والكشف.. أو يقوم الجهد على ابراز الجوانب الثقافية والتراثية في المناطق، من صناعات بدوية، وتراث يتناول تقاليدها وعاداتها وأعرافها وفنونها.. وقد يقوم هذا الجهد الشعبي الخيري على إنماء الحركة التعليمية والعلمية والثقافية والسياحية في المنطقة.. وانماء الحركة الاجتماعية بعامة، من حيث رعايتها وتوجيهها نحو الأفضل والامثل.**



اعداد:
يوسف أبو عواد
ـ الجوف ـ

هذا الجهد الخيِّر نجده قد انتظم كل ربوع المملكة العربية السعودية.. ويرجع هذا لطبيعة الروابط الاجتماعية المتميزة، وروح الابداع والتجديد، وهذا يرفده من ورائه وفرة اقتصادية ساعدت كثيراً على استمرارية هذه الجهود الخيرة من الافراد والجماعات.

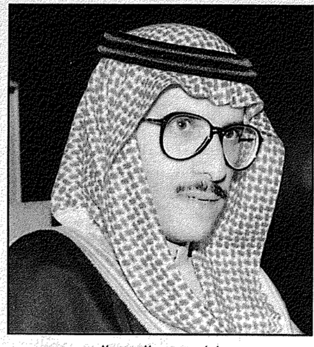
وفي المملكة العربية السعودية مالا نستطيع احصاؤه من الجمعيات والجوائز والمؤسسات الخيرية التى انتظمت كل ربوع المملكة، جاء انشاؤها من قبل افراد أو جماعات رأوا تسخير جهدهم ومالهم وفكرهم لنفع المجموع في الداخل والخارج.

ومن هذا الجهد المبارك الخيِّر نجد: جمعيات البر الخيرية، جمعيات تحفيظ القرآن الكريم، جوائز التفوق، جمعيات العلوم والثقافة والأدب.. جمعيات

ومؤسسات التنمية الفكرية والعلمية والاجتماعية.

و(مؤسسة الأمير عبد الرحمن السديري الخيرية بالجوف) تأتي ضمن هذه المنظومة الهادفة إلى دفع الحركة الثقافية والفكرية، التاريخية والاثرية، الى جانب ابراز واظهار عطاءات المنطقة في تراثها وتقاليدها وفنونها.

وفي هذه الصفحات يسعدنا أن نكون برفقة قارىء المنهل في ضيافة (مؤسسة الأمير عبد الرحمن السديري الخيرية بالجوف) في هذا اللقاء الذى اجراه مندوب (المنهل) مع الدكتور سلمان بن عبد الرحمن السديري رئيس المجلس الثقافي في المؤسسة، لنتعرف على أهداف وغايات هذه المؤسسة، ومن خلال هذه المقابلة، نقضى ساعات ممتعة في ربوع الجوف، و(ربعها).. عاداتهم وتقاليدهم.. أنسهم ومرحهم كرمهم واريحيتهم.. صناعاتهم.. فنونهم.. آثارهم.. ونوثق هذه الأخيرة بمحاضرتين القيتا ضمن الفعاليات الثقافية للمؤسسة يجدهما القارىء في صفحات تالية من هذا العدد..



ـ د. سلمان بن عبد الرحمن السديري.



ـ جمهرة من ضيوف الأسبوع الثقافي في الجوف.

* البداية، كانت في عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٢م حيث أنشأ الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري مكتبة عامة سعياً منه للمشاركة في دعم الثقافة في منطقة الجوف.

ولما كان إنماء ودفع الحركة الثقافية في المنطقة يمثل الهاجس الاكبر للأمير عبد الرحمن فقد ركز جهده في تطوير هذه المكتبة لتمثل نقطة



قصة حركية تراثية في حفل اسبوع الجوف

الارتكاز لـ (دار الجوف للعلوم) الذي أصبح المسمى الرسمي للمكتبة.. وجاء هذا بعد جهد كبير من التطوير، لقد اصبحت المكتبة تحوي ٧٥٫٠٠٠ كتاب.. أدخلت في خدماتها أحدث أساليب التقنية الحديثة للمكتبات، مع ارتباطها بمراكز المعلومات الأخرى فى المملكة عن طريق مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، وكذلك عن طريق شبكة الانترنيت.

ـ جامع الرحمانية التابع لمؤسسة السديري يحتضن إحدى فعاليات الاسبوع الثقافي.

التطور من طبيعة البشر..

والشخص الذي يركز اهتمامه في شيء محدد الأهداف والغايات يبقى همه الأول وشغله الشاغل تطوير هذا العمل وتجويد الأداء فيه.

من مكتبة ، الى (دار الجوف للعلوم) ثم يستقر كل ذلك ليكوّن (مؤسسة الأمير عبد الرحمن السديري الخيرية) .. وجاء إنشاء المؤسسة بأمر ملكي كريم بتاريخ ١٤٠٣/٩/٩هـ.. وبمساعدة كريمة من حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله.

المؤسسة أهدافها وغاياتها:

جاءت المؤسسة امتداداً لجهد سابق تمثل في المكتبة ودار الجوف للعلوم.

ولتكون مسيرتها أوفر عطاء، وأدق أداء، لحركة الثقافة والتراث وخدمة المجتمع، فقد قام نظام تأسيسها واضح المعالم ليشمل كل هذه التوجهات الخيرية.. إذ من أهداف هذه المؤسسة:

١) تطوير خدمات (دار الجوف للعلوم) لتصبح مركزاً للبحث العلمي والأدبي تتوفر فيه وسائل الدراسة والبحث.

٢) تولي ادارة المكتبة الواقعة في سكاكا الجوف التي أنشأها المؤسس سنة ١٣٨٣هـ والمعروفة باسم (دار الجوف للعلوم) والعمل على تطوير خدماتها لجعلها مركزا للبحث العلمي والأدبي تتوفر فيه وسائل الدراسة والأبحاث العصرية.

٣) العمل على حفظ التراث الأدبي والأثري في منطقة الجوف وانشاء متحف لهذا الخصوص والقيام بدعم الدراسات ونشر المعلومات المتعلقة بمنطقة الجوف.

٤) المساهمة في دعم النهضة العلمية في منطقة الجوف والعمل في كل ما من شأنه رفع مستوى الفرد فيها ثقافيا وصحيا واجتماعيا واقتصاديا.

٥) انشاء مجلة شهرية في منطقة الجوف وفقا للنظام.

٦) انشاء دار للحضانة وروضة للأطفال ومسجد جامع ومستشفى في مقر المؤسسة ـ في سكاكا.

٧) العمل على احياء (أسبوع الجوف) في وقت مناسب من كل سنة والقيام خلاله باقامة سباق الهجن ومسابقة المزارعين ومعرض سجاد الجوف.

تلك هي الخطة العامة للمؤسسة الخيرية، وهذه

أهدافها.. أما في ميدان التنفيذ لهذه المشروعات والخطط والبرامج، فإنا نجد ونلمس عملا موفوراً، وجهداً مبذولا، في كل المجالات.. (المحافظة على التراث - البحث والتنقيب عن الآثار - الندوات والمحاضرات والأمسيات - التنمية البشرية - تطوير المجتمع) وغيرها الكثير من معطيات هذه المؤسسة.

في مجال الآثار، باعتبارها ميراث الاجداد السالفين، الحاكية عن أساليب تعاملهم مع الحياة، والمسجلة لتاريخ المنطقة فقد شكلت المؤسسة لجنة تحت اسم (لجنة العناية بالآثار) تضم في عضويتها الاكاديميين من أصحاب التخصص والمهتمين بالآثار والتراث، وتقوم هذه اللجنة باعداد دراسات لترميم الآثار.. وفي هذا المجال أقامت المؤسسة مجموعة من الندوات والمحاضرات لتوضيح المعالم الأثرية للمنطقة.. ويدعم هذا العمل متحف المؤسسة بما يضم من قطع أثرية للمنطقة.. أما الحركة الثقافية فان لها نصيب الأسد - كما يقولون - في هذا العطاء المتميز.

(أسبوع الجوف الثقافي) تظاهرة ثقافية وحضارية تقيمها المؤسسة كل عام بالتعاون مع إمارة منطقة الجوف ويحضرها المهتمون من رجال الفكر والعلم والثقافة من أنحاء المملكة.

يشتمل الاسبوع على مجموعة من الفعاليات الثقافية والتاريخية اضافة الى معرض السجاد والمصنوعات اليدوية في المنطقة، وعروض الفنون التراثية لمنطقة الجوف.

في هذا الاسبوع توزع جائزة الامير عبد الرحمن السديرى للتفوق العلمي، وجائزة التفوق



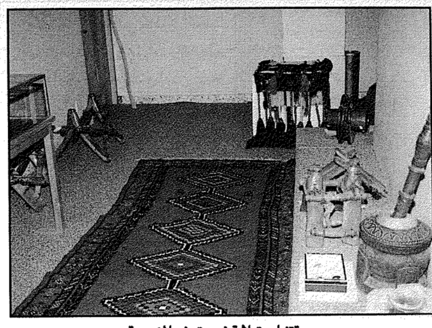
- حفل توزيع الجوائز.

في صناعة السجاد .. ويشمل الاسبوع الثقافي مسابقة للمزارعين.. ويقام في هذا الاسبوع معرض الكتاب، ومعارض فنية ومعرض للصور الفوتوغرافية.

وفى مجال النشر قامت المؤسسة في السنوات الأولى لانشائها بنشر ديوان القصائد لمعالي الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري مطبوعا ومسجلا على أشرطة كاسيت، وكذلك كتاب الجوف وادي النفاخ وهو عن تاريخ منطقة الجوف في الماضي والحاضر كما صدرت في العام الماضي ترجمة انجليزية مزيدة ومنقحة لكتاب الجوف وادي النفاخ بعنوان **The Desert Frontier of Arabia Algawf Through the Ages** وخصص المؤلف ريع هذه الكتب للصرف على مكتبة (دار الجوف للعلوم). كما تقوم المؤسسة بترجمة كتب الرحالة الذين قدموا للمنطقة وبلغ عدد ما ترجم منها حتى الآن أربعة كتب وهي متاحة للباحثين في المجموعة الخاصة بدار الجوف للعلوم. ويصدر عن المؤسسة ملف ثقافي نصف سنوي، صدر منه حتى الآن أحد عشر عددا. وتعد المؤسسة حاليا لنشر أول كتاب ضمن

مشروع لنشر الكتب التي موضوعها منطقة الجوف.

وتهتم المؤسسة اهتماما كبيرا بجميع ما يتعلق بمنطقة الجوف من كتابات وصور ووثائق وغيرها، وحيث إن ما كتب عن المنطقة يتمثل بشكل رئيسي في كتابات الرحالة الأوروبيين، وهي كتابات لم تختص منطقة الجوف بالذات بل ضمن أجزاء أخرى من الجزيرة والبلاد العربية المجاورة، فقد خصصت المؤسسة مجموعة خاصة بشبه الجزيرة العربية وتتضمن هذه المجموعة معظم كتب الرحالة الذين زاروا المنطقة، وخرائط قديمة وصورا قديمة تحكي قصة توحيد المملكة على يد جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله، ووثائق وطوابع نادرة وصور الأمراء الذين تعاقبوا على امارة منطقة الجوف، وصورا لمخطوطات نادرة وبعض المخطوطات وكتبا أخرى.



- مقتنيات تراثية في متحف المؤسسة.

منذ قيام المؤسسة في عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٢م وحتى العام الماضي ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م بلغ عدد الندوات والمحاضرات التى نفذتها (مئة وأربعة عشرة) وهذه الأعمال تم نشر الكثير منها في اصدارات خاصة، وبعضها نشر في مجلة المؤسسة المسماة (الجوبة).. صدر أول عدد منها في ١٩٩٠م.. و(الجوبة) ملف نصف سنوي متخصص في قضايا الأدب والثقافة.

المرأة نصف المجتمع، وهي الأم والأخت والزوجة، لا شك لها دورها الفاعل والمؤثر في تشكيل الأجيال وتوجيه حياتهم.. من هذا المنطلق يكون الاهتمام بها وبدورها اكثر ايجاباً.. وأخذاً بهذا المفهوم فإن المؤسسة قد اهتمت بجانب المرأة وأعطتها حقها الواجب من الرعاية والتثقيف ، بل والمشاركة في معطيات المؤسسة الثقافية والفكرية.

لهذا فان للمرأة حضورها الايجابي الكامل في فعاليات هذه المؤسسة ، وتنقل إليها أعمال وفعاليات الاسبوع الثقافي عن طريق الدائرة التلفزيونية المغلقة، اضافة إلى أن المرأة لها قسم خاص بها في المؤسسة، ولها مجلس ثقافي مماثل.

والقسم النسائي يشرف اشرافاً مباشراً على روضة ومدارس الرحمانية للبنات وهي احدى أهداف المؤسسة التى تمَّ انشاؤها مبكراً.

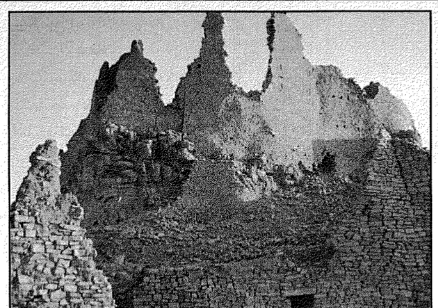
وفي هذا الاطار أيضا فقد تم تنفيذ جامع الرحمانية الى جوار دار الجوف للعلوم، وانشئت روضة الرحمانية للاطفال، ومدارس ابتدائية للبنين والبنات.

كل مؤسسة خيرية، تعمل في مجال العمل الاصلاحي العام لابد أن تكون لها رؤيتها المستقبلية التى تحمل آمالها وطموحاتها الهادفة إلى غد اكثر عطاء، في ميادين عملها وعطائها.

ومؤسسة الامير عبد الرحمن السديري تحمل

من الرؤى المستقبلية ما يجعل المنطقة أرحب مجالا في الازدهار والنمو والتفوق.. واظهار معالم منطقة الجوف بكل الوسائل المتاحة.

وتحقيقا لهذا الغرض السامي فإن المؤسسة قد وزعت أعمالها حسب مجالاتها المتنوعة إلى لجان متخصصة، والى جانب هذا فانها تفتح باب العضوية للراغبين في الانتماء لعضوية جماعة (أصدقاء دار الجوف للعلوم).. وكذلك عضوية النشاط الثقافي مفتوحة للراغبين.



ـ قلعة مارد بدومة الجندل.

وهؤلاء جميعاً تمدهم المؤسسة بالمعلومات الوافية من كتيبات وأشرطة كاسيت وأشرطة فيديو لأهم الندوات واللقاءات والمحاضرات.. وهذا عمل جليل يفيد منه الراغبون في عضوية هذه المؤسسة الخيرية.

بقي أن نعرف شيئاً عن تمويل أعمال وفعاليات هذه المؤسسة، بحيث يعتمد تمويلها أساساً على المؤسس الأمير عبد الرحمن السديري، وأبناؤه وبناته.

ولاستمرارية هذا العطاء الكبير فإن الاستثمار هو الضامن، لهذا فقد أقامت المؤسسة فندق النزل، وساهمت في رأسمال مصنع مياه الجوف الصحية.. إضافة إلى مجموعة من الاستثمارات الاخرى الحالية والمستقبلية.

مؤسسة الأمير عبد الرحمن السديري الخيرية في الجوف هي واحدة من مجموعة المؤسسات والجمعيات الخيرية الكثيرة المنتشرة في ربوع هذا الكيان الكبير، وفي ربوع هذا الوطن العزيز. كلها تؤدي دورها الفاعل في تنمية المجتمع، ورعاية الفكر والثقافة والعلم.. وهي لا شك تجربة مثلى تُحتذى، تجربة انتجتها أريحية أبناء هذا البلد المعطاء.

الجوف.. وادي النفاخ :

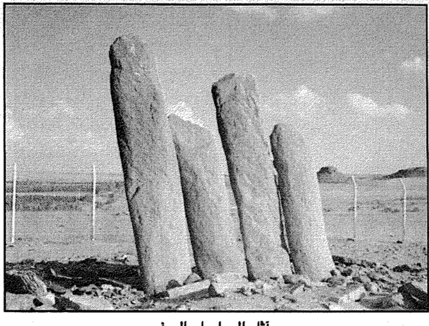
الجوف لغة هي المطمئن من الأرض أي ما اتسع واطمأنّ فصار كالجوف، وسميت بهذا الاسم لوقوعها في منخفض من الأرض، ومن أسمائه أيضاً الجوبة كما سميت الجوف بـ «باب نجد» وفي كتاب المستشرق الفنلندي جورج أوجست فالين المعروف باسم (عبد الولي) في كتابه (صور من شمال جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر) يقول عن منطقة الجوف «الناس في الجوف كما في جميع أنحاء المملكة، يلقنون منذ الصغر أصول الدين وشعائره والكتابة والقراءة منتشرتان بينهم أكثر مما هي عليه في المدن العربية التي كانت خاضعة آنذاك للحكم العثماني، وأهل الجوف يشهد لهم بأنهم مضاييف كرماء ومهذبون مع الغريب، أما عن خيرات هذه المنطقة فيرى الكاتب «عبد الولي» أن تمر الجوف من أطيب أصناف التمر، ونكهته تفضل على تمر البصرة وبغداد، وبه وبتمر تيماء يضرب المثل،

فجميع أصنافه جيده وتعد من أطيب الأصناف.

وسكان الجوف يعتقدون كما جاء على لسان الرحالة أن مدينتهم في وسط الدنيا، والواقع أن المسافات التي تفصلها عن الصحراء المحيطة بها أي أقرب الأراضي المزروعه تكاد تتماثل.

والجوف - وادي النفاخ - أحد الأسماء التي أطلقها غير الجوفيين ، والموقع الجغرافي لهذه المنطقة قد أكسبها مكانة هامة منذ القدم كطريق للتجارة بين الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر. ومازال موقع المنطقة يحتل مكانة مرموقة كمنطقة حدودية بوجود منفذ الحديثة بها على الحدود الأردنية كأكبر منفذ بري في الشرق الأوسط. وتقدر مساحة منطقة الجوف ٢٥٨٠٠٠ كم٢ يقطنها زهاء ٢٨٠٠٠٠ نسمة واكبر مدنها سكاكا - القريات - دومة الجندل والأخيرة حملت اسم الجوف قديما. ومركز الشويحطيه بالجوف يعتبر وفقاً للكشوفات الأثرية الحديثة أقدم منطقة تجمع سكني بالجزيرة العربية وربما العالم قاطبة.

والزائر لمنطقة الجوف يلفت انتباهه آثارها التاريخية التي تقيم الدليل والحجه على الماضي العريق لهذه المنطقة وأهم هذه المعالم: مسجد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وحصن مارد بدومة الجندل الذي قالت فيه الزباء عبارتها المشهورة عندما استعصى الحصن عليها، «تمرّد مارد وعزّ الأبلق» والأخير حصن بتيماء. وسوق دومة الجندل الذي ما تزال بعض آثاره قائمه حتى الآن يعد أول سوق للعرب وكانت تفد إليه القبائل طيلة شهر ربيع الأول من كل عام من كافة أنحاء الجزيرة العربية والعراق وبهذه المدينة متحف متميز يحتوي على العديد من المخطوطات والمقتنيات الأثرية التي تنقل الزائر إلى تلك الحقب التاريخية ليستحضر بها ويعيش معها ماضيها العريق.



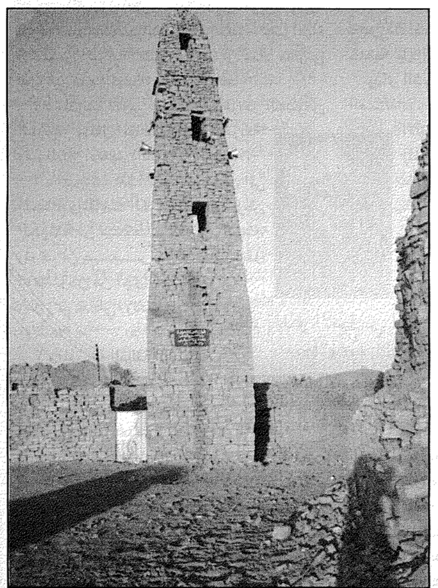
- آثار الرجاجيل بالجوف.

وفي مدينة سكاكا هناك (قلعة زعبل) و(تل الساعي) و(بئر سيسره) وعلى مقربة من المدينة وإلى الجنوب منها آثار (الرجاجيل) وهي عبارة عن أعمدة صخرية ضخمة يزيد طول الواحد منها على ثلاثة أمتار ويقارب عددها الخمسين عموداً. وهناك بمحافظة القريات (قلعة كاف/ تل الصعيدي) وغيرها من الشواهد الأثرية هنا وهناك.

ومنطقة الجوف إلى جانب أهميتها كمنطقة رعويه هامه بها العديد من المحميات للحياة الفطرية، ومركز لأبحاث تنمية المراعي والثروة الحيوانية تعتبر أحد اكبر المراكز على مستوى العالم العربي فهي تكتسب أهمية زراعية خاصة ، ابرز من فرصها لتكون سلة الغذاء بالمملكة



الزراعة في البيوت



ـ مسجد عمر بن الخطاب بدومة الجندل.

ملاءمة جوها وخصوبة تربتها وغزارة وعذوبة مياهها لا سيما في موقع «بسيطا» حيث المشاريع والشركات الزراعية العملاقة، ومنطقة الجوف شأنها شأن سائر مناطق المملكة تشهد نهضة حضارية على مختلف الميادين حيث آلاف المنشآت التجارية وعشرات المصانع، وتشهد المنطقة فيما تشهده من نهضة شاملة حركة تجارية وصناعية نشطة وبها العديد من الفرص التي تنبيء بمكانة اقتصادية مرموقة. وصناعة السياحة بها ستكون رائجة للمستثمر والزائر لاتساع مساحة التاريخ وشواهده بالجوف وحيث الماء والخضرة والوجه الحسن للجوفيين الذين لا يقل احتفاءهم بزائرهم عن اعتدادهم بمنطقتهم.

ويعد مركز تأهيل المعاقين في الجوف الذي انشأه الامير عبد الرحمن السديري عام ١٤١٦هـ ثاني اكبر مركز بعد مركز جمعية الاطفال المعاقين في الرياض. وهذا العمل يأتي ضمن منظومة العطاءات الثرة التي تشكل حاضر الجوف الزاهر في خط مواز ومناظر لماضيها العريق وتاريخها المجيد.

دراسات

نحو فقه ميسر معاصر (٢-٢)

الموازنة بين مقاصد الشريعة وجزئيات النصوص

بقلم المفكر الاسلامي الكبير
أ.د/
يوسف القرضاوي

ومن التيسير اللازم: الموازنة بين أمرين مهمين: مراعاة مقاصد الشريعة الكلية. ومراعاة النصوص الجزئية. فمن المعروف أن هناك مدارس ثلاثا في هذه القضية، طرفين ووسطا.

١ - المدرسة الأولى التي تأخذ بظواهر النصوص الجزئية. وتغفل المقاصد الكلية للشريعة، وهم الذين أسمهم (الظاهرية الجدد).

٢ - المدرسة الثانية التي تنظر الى المصالح والمقاصد الكلية مغفلة النصوص الجزئية من محكمات القرآن والسنة، وتزعم أن عمر بن الخطاب عطل النصوص من أجل المصالح، وهو زعم خاطيء رددنا عليه في موضعه.

٣ - المدرسة الثالثة الوسطية، التي تنظر الى النصوص الجزئية في ضوء المقاصد الكلية، فلا تهمل هذه ولا تلك، بل تجمع بينها في توازن واتساق.

وقد قرر المحققون من علماء الإسلام أن أحكام الشريعة إنما شرعت لمصالح العباد في المعاش والمعاد، سواء أكانت هذه المصالح ضرورية أم حاجية أم تحسينية.

ودليل ذلك كما قال الإمام الشاطبي - هو استقراء الشريعة والنظر في أدلتها الكلية والجزئية فليس ذلك مقصورا على نص واحد، أو واقعة خاصة، بل الشريعة كلها دائرة على ذلك.

وذكر الشاطبي قاعدة مهمة هي: أن الأصل في العبادات - بالنسبة الى المكلف - التعبد دون الالتفات الى المعاني، وأصل العادات (المعاملات) (الالتفات إلى المعاني) وأقام على ذلك أدلة ناصعة لا يتسع المجال لذكرها هنا.

والخلاصة: أن مقاصد الشريعة انما هي جلب الخيرات والمصالح للناس، ودرء الشرور والمفاسد عنهم، وهذا ما ركز عليه الشاطبي، في (موافقاته) وجعل العلم به والتفقه فيه سببا للاجتهاد، لا مجرد شرط له.

وهذا ما يتضح لنا في فقه الصحابة - رضي الله عنهم - وخصوصا الخلفاء الراشدين والعبادلة، ومعاذا، وغيرهم، فانهم لم يغفلوا المقاصد في فقههم وفتاواهم.

وهذا هو سر توقف عمر - رضي الله عنه - ومن معه في قسمة ارض السواد، وعدم توزيعها على الفاتحين، ووقفها على أجيال المسلمين، وفي هذا

قال: عمر لمن خالفه من الصحابة: «أخشى أن يبقى آخر الناس لا شيء لهم»[١٩] وقال: «إني أريد أمرا يسع أول الناس وآخرهم» كما رواه أبو يوسف في الخراج وأبو عبيد في (الأموال) وغيرهما[٢٠]، وكذلك موقف عثمان في التقاط ضالة الابل. مع ورود الحديث في النهي عن التقاطها[٢١]. وموقف علي في تضمين الصناع قيمة ما يهلك في أيديهم من أشياء وقوله: «لا يصلح الناس الا ذاك» مع أن الأصل أن يدهم يد أمانة.

ويسير في هذا الاتجاه موقف معاذ في قبوله المنسوجات اليمنية، بديلا للذرة والشعير وغيرهما من الحبوب في الصدقة، وقوله في ذلك: «ايتوني بعرض ثياب ـ خميص أو لبيس ـ في الصدقة مكان الذرة والشعير، فانه أهون عليكم وخير لأصحاب النبي بالمدينة»[٢٢] وسيأتي الحديث عن ذلك.

ضرورة معرفة المقاصد لدارس الشريعة:

وأود أن أؤكد أن معرفة المقاصد والعلل للأحكام الشرعية ضرورة لابد منها لمن يريد أن يدرس الشريعة، ويتعرف على حقيقة مواقفها واسرارها. ولا بد له من إطالة الدراسة والتأمل في ذلك قبل أن يثبت أو ينفي أن للشريعة مقصدا أو حكمة في هذا الحكم أو ذلك. والا وقع في الخطأ المؤكد، ونفى حيث يجب الاثبات، أو أثبت حيث يجب النفي.

وقد تكون الحكمة أو المقصد الشرعي المتوخَّى من وراء الحكم واضحاً جليا، وهذا لا إشكال فيه ، وقد يدق ويخفى، إلا على أهل البصيرة الراسخين في العلم، الذين ينظرون إلى الأحكام نظرة شاملة مستوعبة يجمعون بها بين المتفرقات، ويدركون بها حكمة الشرع فيما أمر ونهى، وفيما أبطل وأجاز.

إن الجهل بمقصد الحكم الشرعي قد يدفع بعض الناس إلى إنكاره، لاعتقاده بأن الشارع لا يشرع شيئا إلا لمصلحة الخلق، أفرادا وجماعات ، فإذا لم يتعلق بالحكم مصلحة معتبرة، أو كان منافيا للمصلحة، اعتبر ذلك دليلا على أنه ليس بحكم شرعي وإنما هو مما أدخله الناس في الشريعة بالاجتهاد والتأويل.

وقد يستدل هنا بقول ابن القيم الذي نقلناه من قبل: «الشريعة عدل كلها، رحمة كلها، حكمة كلها، مصلحة كلها»... الخ.

أضرب لذلك بعض الأمثلة حتى يتضح الموضوع.

* قضية ميراث البنات والعصبات:

فقد أثار الصحفي الشهير الاستاذ أحمد بهاء الدين قضية شغلت الناس، وهي ميراث البنت أو البنات من أبيهن المتوفى، حيث إن الحكم الشرعي المعروف هنا هو: أن للبنت الواحدة نصف التركة وللبنتين فأكثر الثلثين، واذا كانت هناك زوجة كان لها الثمن، أو أم فلها السدس والباقي للعصبة. وأخذ هذا الحكم وحده منفصلا عن سائر الأحكام الأخرى المرتبطة به، وفي ظل الأوضاع الحالية القائمة عمليا على أساس الاسرة الضيقة المنفصلة عن العصبة والأرحام، والذي لا يفكر أحدهم في قريبة ـ أخيه أو عمه ـ إلا يوم يموت، ويدع تركة، ويكون له فيها نصيب! أقول: أخذ هذا الحكم الجزئي بهذه الصورة يظلم الشريعة، ويفوت على الناظر معرفة الحكمة المقصودة من وراء هذا الحكم من أحكام الميراث.

إن الشريعة تعمل على إيجاد الأسرة الموسعة الممتدة المتواصلة، التي تضبط صلاتها شبكة من الأحكام، تجعل بعضهم أولى ببعض في كتاب الله.

بعض هذه الأحكام يتعلق بنظام النفقات، حيث يلزم الموسر بالنفقة على قريبه المعسر، وبعضها يتعلق بالولاية، وبعضها يتعلق بالمسؤولية الجنائية في تحمل الديَّة ونحوها، وبعضها يتعلق بالإرث. وهي أحكام يكمل بعضها بعضا.

وكما أن القريب يمكن أن يرث من أخيه المتوفى ـ أبي البنات ـ فيغنم، فهو يمكن أن يلزم بالنفقة على بنات أخيه، فيغرم. والعدل أن يكون المغنم بالمغرم[٢٣].

* الأكل باليمين:

ومثل آخر هو الأكل باليمين، أو الشرب باليمين، وتشديد السنة النبوية في ذلك، حتى جاء في الحديث الصحيح: «لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»[٢٤]، وفي الحديث المتفق عليه: «سم الله وكل بيمينك»[٢٥].

وفي حديث آخر: أنه {صلى الله عليه وسلم} دعا من أمره بالأكل باليمين، فقال: لا استطيع فقال: «لا استطعت» وما منعه إلا الكبر[٢٦]. فمن الناس من زعم أن هذه عادات تختلف فيها الشعوب والأقوام، ولا صلة للدين بها. ولا يعنى الدين أن تأكل باليمين أو بالشمال.

وهذا ليس بصحيح في هذه القضية خاصة.

قد يصح هذا في شأن الأكل على الأرض أو على منضدة، باليد مباشرة أو بالملعقة والشوكة، ونحو ذلك، مما هو أقرب إلى العادات المحضة، ولذا لم يرد فيه أمر ولا نهي. أما مسألة الأكل والشرب باليمين، فتختلف عن ذلك، وللدين فيها قصد أكيد، لذلك جاء فيه الأمر والزجر والتشديد.

ومن مقاصد الدين في ذلك:

١ - إقامة آداب مشتركة تميز الأمة المسلمة من غيرها، وتجسد وحدتها العملية في تقاليد وأعمال يومية متكررة. وهذا ما تحرص عليه الأمم العريقة، وتغرسه في عقول أبنائها بالتربية والتثقيف.

٢ - تخصيص اليمين بالطيب والمحمود من الأعمال كالأكل والشرب والمصافحة، والمضمضة، ونحوها، في حين تكون الشمال للأعمال الأخرى مثل الاستنجاء.

٣ - تثبيت فكرة التيامن في كل الامور، التي دعا اليها النبي {صلى الله عليه وسلم} ، ومارسها بالفعل، فقد كان يحب التيامن في كل شيء: في تنعله وترجله وطهوره، وللأستاذ محمد اسد في كتابه «الاسلام على مفترق الطرق» بحث قيم في بيان أهمية الآداب المشتركة التي جاءت بها السنة المحمدية، ينبغي الاطلاع عليه. ففيه نفع كبير[٢٧].

مما يجب تأكيده هنا:

أن تقرير مقاصد الشريعة وتأكيدها، ينافي ما ذهب اليه بعض الفقهاء من تجويز (الحيل) في بعض الأحكام التي تستوفي صورتها الشكلية في الظاهر، ولكنها لا تحقق مقصد الشارع من شرعيتها.

وقد استدل الإمام البخاري على إبطال الحيل بالحديث المشهور: «إنما الاعمال بالنيات، وإنما لكل امريء ما نوى»، كما استدل بما جاء في أحاديث الصدقة: «لا يفرق بين مجتمع، ولا يجمع بين متفرق، خشية الصدقة».

ففي زكاة الأنعام كالغنم مثلا، اذا كان هناك اثنان يملك كل منهما أربعين شاة، فقد ملك نصابا فعليه فيه شاة، فإذا خلطا غنمهما، لم يجب عليهما إلا شاة واحدة، حسب مقدار الواجب في الغنم. فلا يجوز هذا الخلط أو الجمع إذا كان المقصود منه تقليل الواجب في الصدقة. كما لا يجوز للعامل على الصدقة أن يفرق بين المجتمع والمخلوط من الغنم، ليوجب فيه زيادة.

وقد ألف شيخ الاسلام ابن تيمية كتابا سماه «إقامة الدليل على بطلان التحليل» وهو الذي جاء فيه الحديث: «لعن الله المُحَلِّل والمُحَلَّل له» وأطال النفس فيه في بيان إبطال الشرع للحيل، ومنافاتها للمقاصد، كما أطال تلميذه العلامة المحقق ابن القيم في بيان ذلك بالأدلة الشافية في أكثر من كتاب من كتبه، وخصوصا في «اعلام الموقعين عن رب العالمين» وفي «إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان».

وقد نسب إلى الإمام أبي يوسف أكبر اصحاب أبي حنيفة أنه يجيز الحيلة في التهرب من الزكاة، كأن يأتي في آخر الحول، ويهب المال لامرأته أو ابنه مثلا، ثم يستوهبه منها مرة أخرى، وبهذا لا يستكمل النصاب شرط الحول، فلا يجب فيه الزكاة!

وقد رددنا على هذا في كتابنا «فقه الزكاة» وبينا أن أبا يوسف نص على عكس ذلك في كتابه الشهير «الخراج» الذي ألفه للخليفة الرشيد، وقال فيه: «لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر منع الصدقة، ولا إخراجها من ملكه إلى ملك جماعة غيره، ليفرقها بذلك فتبطل الصدقة عنها.. ولا يحتال في إبطال الصدقة بوجه ولا سبب»[٢٨].

وذهب الحنابلة والمالكية إلى تحريم هذه الحيل دينا، وإبطال أثرها قضاء وقانونا، وهذا هو الصحيح[٢٩].

ملاحظة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال:

ومن جوانب التيسير اللازمة والمهمة: مراعاة تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والاحوال والعوائد، وعدم الجمود على المسطور في الكتب من أقوال، كانت تمثل زمنها، وهذا ما نبه عليه المحققون، وقامت على صحته الادلة الشرعية.

ولعل أشهر من كتب في ذلك، وذاعت عبارته في الآفاق، هو الامام ابن قيم الجوزية، في كتابه الشهير (اعلام الموقعين) الذي عقد لذلك فصلا ممتعا، بدأه بقوله: «هذا فصل عظيم النفع جدا، وقع - بسبب الجهل به - غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف مالا سبيل اليه، ما يعلم أن الشريعة الباهرة - التي في أعلى رتب المصالح - لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها.

فكل مسألة خرجت عن العدالة الى الجور، وعن الرحمة الى ضدها، وعن المصلحة الى المفسدة، وعن الحكمة الى العبث، فليست من الشريعة، وان أدخلت فيها بالتأويل»[٣٠].

ومما ذكره هنا عن شيخه شيخ الاسلام ابن تيمية: انه مر على جماعة من التتار في دمشق، وهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم بعض أصحابه فقال الشيخ رحمه الله: دعهم، فانما حرم الله الخمر، لأنها تصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن سفك الدماء، ونهب الأموال.

ونلاحظ في كلام الامام ابن تيمية هنا أمرين، كلاهما غاية في الأهمية:

الأول: تغير فتواه بتغير حال المفتى في أمرهم.

الثاني: مراعاة مقاصد الشريعة في التحريم والتحليل، وعدم الوقوف عند ظواهر النصوص وحدها، فهو سكت عن المنكر، مخافة منكر أكبر منه.

وما أحوج الذين يدّعون الانتساب إليه وإلى مدرسته في عصرنا إلى أن يحفظوا كلمته هنا ويعوها، حتى لا يجمدوا على الظواهر، ويغفلوا المقاصد والأسرار.

وقد حكوا عن الامام ابي محمد بن أبي زيد القيرواني، صاحب (الرسالة) المشهورة في الفقه المالكي، وأحد أعلام العلم والعمل في عصره، أنه اتخذ كلبا لحراسة داره، وقد كانت في طرف المدينة، فلما انكر عليه بعض الناس ذلك قائلا له: كيف تتخذ كلبا للحراسة، ومالك قد كرهه؟! فقال: لو كان مالك في زماننا لاتخذ أسدا ضاريا!

وحياتنا المعاصرة - بما فيها من تعقيدات ومشكلات لا تتناهى، كثير منها لم يخطر ببال السابقين من علمائنا - تحتاج من فقيه اليوم أن يقابلها باجتهاد جديد، بعضه انتقائي، وذلك فيما اختلف فيه علماؤنا من قبل واختيار بعض الأقوال الملائمة منه، في ضوء الأدلة والاعتبارات الشرعية. وبعضه انشائي ابداعي، وذلك في المسائل الجديدة التي لم يعرفها الفقه القديم، وما أكثرها.

فلابد أن يكون الفقه مادة حية مرنة، تتسع لكل حاجات العصر، وتغيرات الحياة المتجددة.. واذا كانت الشريعة - بنصوصها المحكمة، وقواعدها الكلية، وأحكامها القطعية - ثابتة لا تتغير، فإن الفقه - الذي يعكس فهمنا البشري لها، واستنباطنا الأحكام من أدلتها التفصيلية - يتغير بتغيرنا نحن البشر: زمانا ومكانا وحالا. ويجب أن يظهر هذا التغير اذا عرضناه في صورة تأليف أو فتوى أو

قضاء. ففرق ما بين الشريعة والفقه: ان الشريعة وحي الله، والفقه عمل العقل الاسلامي في ضوء الوحي.

واذا كان كثير من الخلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه: أبي يوسف ومحمد قيل فيه: إنه اختلاف عصر وزمان لا اختلاف حجة وبرهان، وإن الامام لو رأى ما رأياه لقال بما قالاه - مع قرب الزمن بينهما - فكيف وبيننا وبين عصور الاجتهاد قرون وقرون؟!.

وكذلك كان للشافعي مذهبان: قديم قبل وصوله الى مصر، وجديد بعد استقراره في مصر، وقد رأى فيها ما لم يكن رأي، وسمع ما لم يكن سمع، بالإضافة إلى نضج السن والتجربة، فغير اجتهاده في كثير من الأمور. وأصبح مألوفا أن يقال: قال في القديم، وقال في الجديد.

هذا وقد ظلت الحياة في عصورهم ساكنة لا يكاد يتغير لاحقها عن سابقها، الا قليلا فكيف وعصرنا الحديث قد تغيرت فيه شئون الحياة عما كانت عليه، تغيرا كبيرا بل هائلا وسريعا، امتد طولا وعرضا، وعمقا، وشمل شؤون الفرد والأسرة والمجتمع والعالم في أموره الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية والدستورية وعلاقاته الدولية.

ولو افترضنا أحدا من أهل القرون الماضية - بل من أهل القرن الماضي فقط - بعث من قبره، ورأى ما نحن عليه اليوم، لأنكر كل شيء في حياة الناس ولاتهم نفسه بالجنون، أو اتهم الناس كلهم بالجنون.

وهذا التغير الجذري يقتضي فقها جديدا، واجتهادا جديدا، يتحرك بحركة الحياة، ولكن لا ينزلق معها.. بل يضبطها بشرع الله وحكمه، «ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون».

ومن أسباب تغير الفتوى في زمننا توافر معلومات لنا لم تتوافر لعلمائنا السابقين، فهم بنوا حكمهم على ما كان لديهم من علم. ونحن نعتقد انهم لو توافر لهم ما توافر لنا من معلومات لغيروا رأيهم، وافتوا بما نفتي به الآن، كما اننا لو كنا مكانهم، وعشنا في زمانهم، لحكمنا بما حكموا، فليس من السهل أن يتجاوز الانسان مكانه وزمانه.

أضرب لذلك مثلا، أقصى مدة زمن الحمل:، فقد ذكر بعض الفقهاء أن اقصى زمن الحمل سنتان، وذكر بعضهم اربع سنوات، وبعضهم خمس سنوات.. الى سبع سنوات. وما أدلتهم في ذلك؟ استدل بعضهم بقول عائشة رضي الله عنها: لا يبقى الحمل في بطن أمه أكثر من سنتين، ولو بفركة مغزل. ولا أدري مدى صحة سند هذا القول وثبوته عن عائشة؟ وبفرض أنه صحيح الثبوت، فماذا يعني؟

قالوا: انه موقوف له حكم المرفوع؟ فلابد انها سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن ذلك مما لا مجال للرأي فيه. وهذا كله غير مُسَلَّم، فهذا مما يتسع فيه المجال للرأي، ولهذا اختلفت فيه الآراء اختلافا كبيرا، وعائشة بنت هذا على ما سمعته وعرفته من أقوال النساء حولها. والجزم بأنها لابد أن تكون سمعت ذلك من الرسول المعصوم دعوى بلا برهان.

ولهذا لما قيل ذلك للامام مالك، وأن أقصى الحمل سنتان، قال: سبحان الله! من يقول هذا؟ هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان، امرأة صدق، وزوجها رجل صدق، حملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين[٣١].

فاستدل امام دار الهجرة بما تقوله النساء: وهو معذور في تصديق هذه المرأة وأمثالها، ما دامت معروفة بالصدق، ولم يكذبها أحد ممن حولها.

والمرأة معذورة أيضا، انها في الواقع ليست كاذبة، ولكنها متوهمة، تتوهم انها حامل وهي غير حامل، وهذه حالة معروفة مشهورة للطب الآن، وتتكرر كثيرا، ويسميها الأطباء المختصون (الحمل الكاذب) وهو شيء تظهر على المرأة فيه كل أعراض الحمل المعروفه، من انتفاخ البطن، والشعور بالغثيان والقيء، وتقلص عضلات البطن ونحوها، بما يشبه حركة الجنين في البطن، يظهر

ذلك كله مع وجود الرغبة الشديدة في الحمل، والشوق اليه والتعلق به، فيحدث ذلك كله حالة جسمية ونفسية كحالة الحامل الحقيقية تماما. ولكن بالكشف عليها الآن بأدوات الكشف الجديدة من اللمس والتحليل والتصوير بالأشعة ونحوها، يجزم الطبيب المختص أنها غير حامل قطعا.

والعجيب هنا أن المرأة قد تظل على هذه الحالة سنة أو سنتين مثلا، ثم يشاء الله أن تحمل في نهاية المدة حملا صادقا، فتظنه امتدادا للحمل الكاذب، وتحسب المدة كلها على هذا الحمل، وتلد بعد سنتين أو ثلاث أو أربع، فيصدقها الناس، وأن دعواها من أول الأمر لم تكن كذبا وزورا.

ماذا كان يمكن أن يفعل الفقيه وهو يسمع هذه القصص تحكى له من هنا وهناك من أناس ثقات عن نسوة صالحات؟

رعاية المقاصد وتغير الفتوى:

وهنا ملاحظة مهمة وهي: ارتباط رعاية العلل والمقاصد - التي شرعت لها الأحكام - بما قرره علماء الأمة منذ عصر الصحابة، من وجوب تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال. بل بدأ هذا منذ عهد النبي {صلى الله عليه وسلم}. ولهذا كان النبي {صلى الله عليه وسلم} يقبل من بعض أصحابه ما لا يقبل من البعض الآخر، ويسامح أهل البادية فيما لا يسامح أهل الحضر، كالأعرابي الذي بال في المسجد.

ولهذا فرض زكاة الفطر من الأطعمة، لأنها كانت أيسر على المعطي وأنفع للآخذ، ولو كلفهم بدفع النقود لكلفهم عسرا.

وكان يأمرهم بإخراجها بعد صلاة الصبح وقبل صلاة العيد، لسهولة ذلك عليهم ومعرفتهم بالمحتاجين وقربهم منهم، لقلة العدد، وبساطة المجتمع.

وفي عهد الأئمة أجاز بعضهم إخراجها من منتصف رمضان أو من أول رمضان، كما أجازوا إخراج غالب قوت البلد، وإن لم يكن من الأطعمة المنصوص عليها.

بل أجاز عمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة وأصحابه وآخرون إخراج قيمة الطعام من النقود، بل رجح بعضهم ذلك إذا كان أنفع للفقراء. وحجتهم أن النبي {صلى الله عليه وسلم} أمر بإغنائهم عن السؤال في يوم العيد، والإغناء يتحقق بإعطاء القيمة كما يتحقق بإعطاء الطعام، وربما كان الإغناء بالقيمة أولى وأوفى[٣٢].

وفي بعض الأحوال في عصرنا كالمدن الكبرى مثل القاهرة واستانبول وغيرها يكون إخراج الحبوب كالقمح والشعير، منافيا لمقصد الشارع تماما، لأنه لا ينتفع به ولا يتحقق به إغناء في ذلك اليوم، ويضطر إلى بيعه بأبخس الأثمان، إن وجد من يشتريه منه! مع ما فيه من حرج على المعطي ايضا.

ولقد كان العلامة ابن القيم موفقا في عبارته، حين جعل الذي يتغير بتغير موجباته هو الفتوى وليس حكم الشرع، فالحكم لا يتغير، وانما الفتوى - وهي تنزيل الحكم على الواقعة - هي التي تتغير.

إن عمر - رضي الله عنه - حين أبى أن يعطي الزكاة قوما كانوا من «المؤلفة قلوبهم» في عصر الرسول وقال: «إن الله أعز الاسلام وأغنى عنهم» لم يغير بذلك حكما شرعيا ولم يعطل نصا قرآنيا، كما قد يفهم بعض الناس، ولكنه غير الفتوى بتغير الزمن والحال عن عهد الرسول، فلم يعد عيينة بن حصن، ولا الأقرع بن حابس وأضرابهما من الطامعين، ممن يحتاج الإسلام ودولته إلى تأليف قلوبهم، بعد أن انتصر على أكبر دولتين في الأرض: فارس والروم! ولم يكتب الرسول {صلى الله عليه وسلم} صكا لهؤلاء يبقيهم مؤلفة إلى الأبد، والمؤلف هو الذي يرى الإمام تأليفه، فإذا لم ير تأليف شخص أو أناس بأعيانهم، أو لم ير التأليف مطلقا في عهده، لعدم الحاجة إليه، أو لأن هناك مصارف أهم منه، فهذا من حقه، ولا يكون **ذلك إسقاطا لسهم المؤلفة إلى الأبد**، كما فهم بعض الحنفية وغيرهم، ولا تعطيلا للنص، كما ظن بعض المعاصرين، فإن عمر والأمة كلها لا تملك تعطيل نص صريح من كتاب الله، ولكنه رأى

مصلحة المسلمين في عصره، أن يسد الطريق على الطامعين في أموال الزكاة باسم التأليف، ولم يرد عنه ما يمنع من التأليف وإعطاء المؤلفة عند الحاجة واقتضاء المصلحة[٣٣].

إن عمل عمر هذا مثال جيد لاعتبار المصلحة المرسلة، وسد الذريعة إلى المفسدة، وهو مثال جيد كذلك لتغير الفتوى بتغير الأزمان والأحوال.

ومما غير عمر فيه الفتوى بتغير الحال: زكاة الخيل، فقد جاءه أناس من الشام يريدون إعطاء الزكاة منها، فتردد في ذلك، لأنه أمر لم يفعله الرسول ولا أبو بكر، ثم جاء أنه أوجب الزكاة في الخيل في قصة يعلى بن أمية وأخيه، حين وجد الفرس يبلغ ثمنها مائة ناقة! مستدلا بقياس الأولى، وهو نوع من مراعاة المقاصد والمصالح والعدل الذي قامت عليه الشريعة.

ومن الأمثلة التي تذكر هنا من تغير الفتوى بتغير المكان والحال: أن معاذ بن جبل حين بعثه الرسول {صلى الله عليه وسلم} الى اليمن وأمره أن يأخذ الزكاة من أغنيائهم ويردها على فقرائهم، كان مما أوصاه به «خذ الحب من الحب، والشاة من الغنم، والبعير من الابل» ولكن لم يفهم هذه الوصية إلا أنها تيسير على الناس، وأن هذا ما يطالبون به، فلما وجد الايسر عليهم أن يدفعوا القيمة رحب بذلك، لما فيه من الرفق بهم، والنفع لمن وراءهم بالمدينة، عاصمة الإسلام، إذا فضل شيء عنهم وأرسله إلى هناك، ففي خطبة معاذ باليمن قال: «ائتوني بخميس أو لبيس (ملابس من صنعهم) آخذه منكم مكان الذرة والشعير فإنه أهون عليكم وأنفع للمهاجرين بالمدينة[٣٤].

فاعتبار المصلحة ورعاية مقصد الشارع من الزكاة هو الذي جعل معاذا - وهو أعلم الصحابة بالحلال والحرام كما في الحديث[٣٥] يؤثر أخذ القيمة «ثياب يمنية» بدلا من الحبوب، مع ما يظن من مخالفته ظاهر الحديث الآخر، وما كان لمعاذ أن يخالف حديث رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وهو الذي جعل اجتهاده في المرتبة الثالثة بعد الكتاب والسنة. ولكنه أدرك مقصود الحديث فلم يتجاوز به موضعه. ولهذا اشترط الأصوليون في المجتهد: أن يكون عالما بمدارك الأحكام ومقاصد الشريعة، وأن يكون ايضا عالما بمصالح الناس في عصره. وهذا حق فإن من حصل كثيرا من العلم ووسائل الاجتهاد، ولكنه يعيش في برج عاجي، أو صومعة منعزلة، غافلا عن مصالح المجتمع ومفاسده، وما يدور في العقول من أفكار، وفي الأنفس من نوازع، وفي الحياة من وقائع وتيارات.. مثل هذا - على علمه - لا يعد من أهل الاجتهاد والفتيا والحكم في شريعة الاسلام.

وهذا يوجب على رجال الفقه في عصرنا أن يفحصوا الكتب القديمة، لينتقوا منها ما يصلح لزمنهم وبيئتهم، ويدعوا ما كان معبرا عن زمن انقضى، وبيئة تغيرت، وعرف انتهى، لانها ارتبطت بعلة لم تعد قائمة، والمعلول يدور مع علته وجودا وعدما.

يقول الإمام القرافي في كتابه (الاحكام):

«ليس كل الأحكام - يعني الاجتهادية - يجوز العمل بها، ولا كل الفتاوي الصادرة عن المجتهدين يجوز التقليد فيها، بل في كل مذهب مسائل، إذا حقق النظر فيها، امتنع تقليد ذلك الإمام فيها»[٣٦].

«إن استمرار الاحكام التي مدركها العوائد - مع تغير تلك العوائد - خلاف الاجماع، وجهالة في الدين[٣٧].

وقال في كتابه «الفروق»: «فمهما تجدد من العرف اعتبره، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك!.. والجمود على المنقولات ابدا ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين، والسلف الماضين[٣٨].

«كل شيء أفتى فيه المجتهد فخرجت فتياه على خلاف الإجماع أو القواعد أو النص أو القياس الجلي السالم عن المعارض الراجح لا يجوز لمقلده أن ينقله للناس، ولا يفتي به في دين الله تعالى، فان هذا الحكم لو حكم به حاكم لنقضناه، وما لانقره شرعا بعد تقرره بحكم الحاكم أولى أن لانقره شرعا إذا لم يتاكد، فلا نقره شرعا، والفتيا

بغير شرع حرام، فالفتيا بهذا الحكم حرام، وإن كان الإمام المجتهد غير عاص به، بل مثابا عليه، لأنه بذل جهده على حسب ما أمر به، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر، وإن اصاب فله أجران»[٣٩].

فعلى هذا يجب على أهل العصر تفقد مذاهبهم، فكل ما وجدوه من هذا النوع يحرم عليهم به. ولا يعرى مذهب من المذاهب عنه، لكنه قد يقل وقد يكثر، غير أنه لا يقدر أن يعلم هذا في مذهبه إلا من عرف القواعد، والقياس الجلي، والنص الصريح، وعدم المعارض لذلك، ولذلك يعتمد على تحصيل اصول الفقه، والتبحر في الفقه، فإن القواعد ليست مستوعبة في أصول الفقه، بل للشريعة قواعد كثيرة جدا عند أئمة الفتوى والفقهاء، لا توجد في كتب أصول الفقه أصلا، وذلك هو الباعث لي على وضع هذا الكتاب لا ضبط تلك القواعد بحسب طاقتي»[٤٠].

وإذا كان هذا القول في شأن الأقوال والفتاوي الصادرة عن الأئمة المجتهدين، فما بالك بأقوال المقلدين، وفتاوي المتأخرين؟!!

ولقد اكد القرافي ايضا وبعده ابن القيم، وبعدهما ابن عابدين - بناء على اعتبارات شرعية ذكرناها من قبل - أن لتغير العرف والزمن والحال أثرها في تغير الفتوى وتكييف الاحكام.

وكل هذا يؤيد وجهة نظرنا، في وجوب فحص الأقوال المروية، وخصوصا فيما عدا العبادات، أي في الشئون المدنية والتجارية والإدارية والجنائية والدولية ونحوها - حتى يتكون لنا فقه معاصر جديد مبني على دراسة عميقة قائمة على الموازنة والترجيح.

أما الاعتراض علينا بأن باب الاجتهاد قد اغلق بعد القرن الرابع أو الثالث أو الثاني فهو اعتراض مردود، لأن الذي فتح باب الاجتهاد للأمة هو رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فلا يملك أحد بعد ذلك سده كائنا من كان.

يقول سلطان العلماء الإمام عز الدين بن عبد السلام:

«وقد اختلفوا متى انسد باب الاجتهاد؟ على أقوال، ما أنزل الله بها من سلطان قيل: بعد مائتين من الهجرة، وقيل: بعد الشافعي، وقيل بعد الأوزاعي وسفيان! وعندهم أن الارض قد خلت من قائم بحجة الله ينظر في الكتاب والسنة، ويأخذ الأحكام، وألا يفتي أحد بما فيهما إلا بعد عرضه على قول مقلّده، فإن وافقه حكم وأفتى، وإلا رده! وهذه أقوال فاسدة، فإنه إن وقعت حادثة غير منصوص عليها، أو فيها خلاف بين السلف، فلابد فيها من الاجتهاد من كتاب أو سنة. وما يقول سوى هذا إلا صاحب هذيان»[٤١].

الهوامش:

(١٩) البخاري مع الفتح (١٣٨: ٦ و ٨: ٣٤٤) وذكره يحيى ابن آدم في الخراج بتحقيق أحمد شاكر ص ٤٤.

(٢٠) الخراج لأبي يوسف ص ٢٣ ، ٢٤ ط السلفية والأموال ص ٥٨ ، ٥٩ ط السنة المحمدية.

(٢١) انظر: كتابنا: شريعة الاسلام ص ١١٦ - ١١٨ طبعة (دار الصحوة) الثانية.

(٢٢) رواه البخاري معلقا مجزوما به في كتاب الزكاة من صحيحه عن طاوس، ووصله يحيى بن آدم في الخراج برقم (٥٢٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٤:١١٣) وانظر: فقه الزكاة (٢/٨٥٣) وما بعدها (الطبعة الحادية والعشرين) مكتبة وهبة.

(٢٣) انظر: كتابنا «مدخل لدراسة الشريعة الاسلامية» ص ٨٢ وما بعدها.

(٢٤) رواه مسلم بمعناه عن جابر (٢٠١٩) وعن ابن عمر (٢٠٢٠).

(٢٥) متفق عليه عن عمر بن أبي سلمة. (اللؤلؤ والمرجان: ١٣١٣).

(٢٦) رواه مسلم عن سلمة بن الأكوع (٢٠٢١).

(٢٧) فصل «روح السنة» وانظر كتابنا «كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط» نشر دار الوفاء - القاهرة.

(٢٨) الخراج لأبي يوسف، ص ٨، ط. السلفية.

(٢٩) انظر فقه الزكاة، جـ٢ ، ص ١٠٧٨ وما بعدها.

(٣٠) اعلام الموقعين: جـ٣ ص ١٤ - ١٥.

(٣١) رواه البيهقي في سننه (٧:٤٤٣).

(٣٢) من أراد التوسع في الموضوع فليراجعه في باب (زكاة الفطر) من كتابنا (فقه الزكاة).

(٣٣) راجع هذا المبحث بتفصيل في «باب مصارف الزكاة» فصل «المؤلفة قلوبهم».

(٣٤) راجع هذا المبحث بتفصيل في فقه الزكاة «باب طريقة اداء الزكاة» فصل اخراج القيمة.

(٣٥) رواه الترمذي (٣٧٩٣) عن أنس: «أرحم أمتي بأمتي ابو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر.. وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل» وقال الترمذي: حسن صحيح، كما رواه ابن ماجه (١٥٤).

(٣٦) ص ١٢٩ ط حلب بتحقيق عبد الفتاح أبي غدة في جواب السؤال التاسع.

(٣٧) المصدر السابق ص ٢٣١.

(٣٨) الفروق جـ١ ص ١٧٦ ، ١٧٧.

(٣٩) رواه الشيخان من حديث عمرو بن العاص (اللؤلؤ والمرجان: ١١١٨).

(٤٠) الفروق جـ ٢ ص ١٠٩ - ١١٠.

(٤١) انظر: قواعد الاحكام في مصالح الأنام.

الغـزالى وافتـ

في كثير من كتابات الدكتور نصر أبو زيد «اجتراء» غير مألوف على كثير من رموز الأمة الإسلامية.. والحديث عن «رموز للأمة» لا يعني إضفاء القدسية على بشر أيا كان دوره وموقعه في تاريخ الإسلام.. ففي الإسلام لا قدسية لغير الله وآياته.. ولا عصمة لغير الرسل، عليهم السلام، وحتى عصمة الرسل فهي فيما يبلغونه عن الله، فالعصمة من ضرورات «الرسالة» وليست امتيازا للجانب البشري المجتهد في الرسل والأنبياء.

لكن لكل دين وفلسفة ووطن وجهاد وأمة «الرموز» التي تمثل «المثل» و«المنارات» الحافزة لأجيال الأمة على الاستباق على طريق الخير والتقدم الذي برزت على دربه هذه «الرموز» فالذين يعرفون قدر الدين وعظيم نعمته، يعرفون أقدار الجيل النبوي الفريد الذي رفع القواعد لهذا الدين، فغيّر وجه الدنيا وحول مجرى التاريخ.. والذين يعرفون قدر الوطن والوطنية، يجلون رموزها الذين وهبوا حياتهم لتحرير الأوطان وتقدمها.. والذين يعرفون قيمة العدالة الاجتماعية، يقدرون أبطالها حق قدرهم.. وهكذا في كل الميادين.

أفكار مثيرة للجدل (٧-٨)



بقلم المفكر الاسلامي:
أ.د. محمد عمارة

أما نصيب حجة الإسلام الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١١٥٨ - ١١١١م) من اجتراء وافتراء الدكتور نصر .. فإننا سنكتفى فيه أيضا بالنظر في أربعة مواضع، ضمنها أربعة مطاعن في الغزالى ومشروعه الفكرى، الذى لا يزال فاعلا حتى الآن في إحياء علوم الدين، لتحيا بها علوم الدنيا عند المسلمين.

١ - يدعي الدكتور نصر على حجة الاسلام الغزالى أنه قد حصر الدين الاسلامى واختزله في الهروب من الدنيا، والخلاص الفردى والنجاة الأخروية.. فعنده، أن «تصور الغزالى لغاية الدين ووظيفته تنحصر فى الخلاص الفردى والنجاة في الآخرة»[١].

ولست أدري، هل قرأ الدكتور نصر المشروع الفكرى العملاق والمتعدد الميادين، والمتوازن فى المقاصد والغايات، الذى أبدعه الغزالي؟.. أم أنه قد اقتنص عبارات للزهد وأهدر السياق الذى جاءت فيه؟.. إن الغزالى مشروع فكرى يمثل ظاهرة مجسدة للعصر الذى عاش فيه، ومن «الخفة الفكرية» اختزال مقاصده على هذا النحو الغريب.. ولو أن الدكتور نصر قرأ للغزالى قراءة الباحث عن الحقيقة، البرىء

...راءات نصر أبو زيد

من سـوء النيـة، لَعَلَم أن الرجل لم يقف فـقط عند الدعوة إلى تأسيس «الدنيا» على «الدين»، بل لقد أبصر أن صلاح الدين وإقامته مرهونان بصلاح الدنيا، وبتوافر الأمن الانسانى فيها على مختلف الحاجات·· فـهو الذي يقول: «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا·· ونظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات، من: الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن·· ولعمرى! من أصبح آمنا فى سربه معافا فى بدنه، وله قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها·· فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟·· فإذن، بان أن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين»[٢]!·

هل قرأ الدكتور نصر، ووعى هذه الكلمات التى تؤسس نظرية لعلاقة الدين بالدنيا، وتأسيس صلاح الدين على صلاح الدنيا، وجعل نظام الدنيا شرطا لنظام الدين؟!·

٢ ـ ولأن الدكتور نصر سيء الظن بالوسطية الاسلامية، فلقد جمع فى كتابته عن الغزالى بين القول بتأسيس الغزالى «للوسطية فى مجال الفكر والفلسفة»[٣]، وبين ركام من الإجتراء على الغزالى ·· فهو الذى وجه الضربة القاضية للعقل، وقاد الأمة والخلافة والعصر إلى التفكك والانهيار!·· «ثم جاء أبو حامد الغزالى ووجه للعقل الضربة القاضية، وليس من الغريب أن يكون العصر الذى شهد خطا الغزالي وأنصت إليه هو عصر الانهيار السياسى والتفكك الاجتماعى، وسيطرة «العسكر» على شئون الدولة، وهو العصر الذى انتهى بسقوط بغداد والقضاء على الشكل الرمزى الأخير للدولة الاسلامية[٤]!·

هكذا، وفى كلمات معدودات، أهال الدكتور نصر على حجة الاسلام الغزالى كل ركام التخلف والانحطاط الحضارى والتفكك السياسى والاجتماعى والهزيمة العسكرية أمام الأعداء·· الأمر الذى جعل هذه الكلمات «مجمعا لكم هائل من الأخطاء»!·

أ ـ فهل حقا وجَّه الغزالى الضربة القاضية للعقل·· أم أنه الذى طعَّم الأشعرية بجرعة من العقلانية جعلتها ـ تحل فى تمثيلها للعقلانية الاسلامية الوسطية ـ محل تيار الاعتزال؟، فيقيم دعائم العقلانية الجامعة ـ بالوسطية ـ بين «العقل» و«الشرع»، الرافضة «للحشوية[٥] ـ الظاهرية» و«لغلو» الفلسفة والاعتزال·

ولو أن الدكتور نصر قرأ تراث الغزالي في العقلانية الإسلامية المؤمنة، وحسنت نيته، لتردد قبل أن يخط قلمه هذا الاجتراء والافتراء·· بل لو وعى مقاصد الغزالى من هذا النص الذى سنضرب به المثل على مقام ومعنى العقلانية عند الغزالى، لما قال هذا الذى قال·· يقول أبو حامد: «إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود والتقليد، واتباع الظواهر، ما أتوا إلا من ضعف العقول وقلة البصائر· وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة فى تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أتوا إلا من خبث الضمائر· فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم

والاحتياط. بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد، ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وأنَّى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، ولا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر، [صلى الله عليه وسلم]، وبرهان العقل هو الذي عُرف به صدقه فيما أخبر؟ وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟.

هيهات ! قد خاب على القطع والبتات، وتعثر بأذيال الضلالات، من لم يجمع بتأليف العقل والشرع هذا الشتات. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء. ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء. فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء، فالمعرض عن العقل، مكتفيا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور[٦]»!

إنها كلمات موزونة بميزان الحكمة العالية، تؤسس نظرية العقلانية الاسلامية، الجامعة بين نور العقل ونور الشرع، والتى تنكب طريقها الأغبياء!.

ب ـ ثم .. من علَّم الدكتور نصر أن عصر الغزالي هو عصر «سيطرة العسكر على شئون الدولة الاسلامية»؟.. إن سيطرة العسكر بدأت في عهد المتوكل العباسى (٢٠٦ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٢١ ـ ٨٦١م).. أى قبل عصر الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م) بنحو ثلاثة قرون؟!.

جـ ـ ومن قال للدكتور نصر إن «سقوط بغداد» هو أثر من آثار الغزالي؟!.. وبغداد قد سقطت (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) بعد قرن ونصف من عصر الغزالي!.. وكان سقوطها ـ كما يعلم الذين يعون التاريخ ـ إلى جانب أمراض التراجع الحضارى الذاتية ـ بسبب تحالف الغزوة الصليبية [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] مع جحافل التتر ضد عالم الاسلام.

لكن يبدو أن أحقاد الدكتور نصر على صاحب (إحياء علوم الدين) قد جعلته يتخلى حتى عن «الجدل المادي الماركسى» الذى لا ينسب الظواهر الكبرى إلى عامل واحد دون سواه.. فقادته الأحقاد إلى تحميل الغزالي كل كوارث التاريخ الاسلامي!.

٣ ـ ويتخلى الدكتور نصر ـ في «هجائه» للغزالى ـ عن الحد الأدنى من دقة الباحث في تحليله للنصوص ـ رغم تيه الماركسيين به، «كأحسن من يحلل النصوص»؟!.. فيسير مع «الخطأ الشائع» الذى زعم مروجوه عداء أبي حامد للسببية وارتباط الأسباب بالمسببات، فيقول: لقد «انتهى الغزالى إلى إهدار قوانين السببية، ومن هنا جاء الاعتقاد الخطير الذى ساد الخطاب الدينى في الثقافة العربية: أن النار لا تحرق، وأن السكين لا تقطع، وأن الله هو الفاعل من وراء كل الأسباب[٧].. فكانت ضربة الغزالي للعقل، من زاوية تفكيك العلاقة بين الأسباب والنتائج، أو بين العلل ومعلولاتها[٨].

ونحن نسأل الدكتور نصر:

في الثقافة التى سادت «الخطاب الديني» ـ على حد تعبيره الأثير ـ ماذا يقول الإنسان الذى احترق منزله؟

ـ النار أحرقت المنزل؟ .. أم: ـ الله أحرق المنزل؟!..

ـ وماذا يشترى «القصّاب ـ الجزار» ليقطع اللحم؟ ـ أيشتري سكينا؟ ـ أم يرفع إلى السماء طالبا من الله قطع اللحم؟!.

إن مأساة الدكتور نصر ـ أحسن الماركسيين تحليلا للنصوص ـ أنه لم يستطع التمييز بين عبارة: «أن الله هو الفاعل من وراء كل الأسباب».. وبين عبارة: «أن الله هو الفاعل دون كل الأسباب».. ففعل الله سبحانه وتعالى، من

وراء كل الأسباب، عقيدة إسلامية لا خلاف عليها بين أحد من المؤمنين بالإسلام، وهي لا تعني إلغاء عمل الأسباب، ولا إلغاء علاقة الأسباب بالمسبَّبات، وإنما تعني - مع عمل الأسباب في المسبِّبات، والارتباط بينهما - في العادة - قدرة الخالق، سبحانه، على الفعل وراء هذه الأسباب - التي هي مخلوقة له - بوقف عمل هذه الأسباب التي خلقها، وباستبدالها بأسباب أخرى، إذا هو أراد خرق العادة وتغيير المعتاد.

ولو قرأ الدكتور نصر، ووعى ما كتبه الغزالي في السببية، لابتعد بنفسه عن مزالق هذا «الخطأ الشائع» - الذى أشاعه المستشرقون، أصحاب النزعة الوضعية والمادية.. والذى تلقفه تلامذتهم فى بلادنا - وإلا فأين هو «إهدار قوانين السببية» فى قول الغزالي: «إننا نسلم أن النار خُلقت خلقة إذا لاقاها قطنتان متماثلتان أحرقتهما، ولم تفرق بينهما إذا تماثلتا من كل وجه. ولكنا مع هذا، نجوِّز أن يلقى شخص فى النار فلا يحترق، إما بتغير صفة النار أو بتغير صفة الشخص، فيحدث من الله تعالى أو من الملائكة صفة في النار تقصر سخونتها على جسمها بحيث لا تتعداها، وتبقى معها سخونتها، وتكون على صورة النار حقيقتها.. أو يحدث فى بدن الشخص صفة، ولا يخرجه عن كونه لحما وعظما، فيدفع أثر النار»[٩].

فالنار سبب موجب للإحراق.. لكن الله سبحانه وتعالى، قادر - وهو الخالق لها ولإحراقها - على تغيير صفتها، أو تغيير صفة الذى نلقيه فيها.. وذلك بخلق سبب جديد يفعل فعلا جديدا.. فالسببية - عند الغزالي - قائمة أبدا وفاعلة دائما، إن فى الأحوال المعتادة، أو فى الأحوال غير المعتادة، التي لها هى الأخرى أسبابها وقوانيها.

تلك هي حقيقة موقف الغزالي - وكل علماء الاسلام وفلاسفته - من السببية.. إذا نحن امتلكنا، بحق، القدرة على تحليل النصوص!.

٤ - وأخيرا.. فمن كان يتصور أن يصل الاجتراء بالدكتور نصر حامد أبو زيد - الذى يستلهم المادية الجدلية الماركسية فى التفكير والتفسير والتحليل للقرآن، والنبوة والوحي، والعقيدة والشريعة - على النحو الذى قدمنا - من كان يتصور أن يبلغ الاجتراء «بفتى المادية الماركسية» إلى حد «تكفير» حجة الاسلام أبى حامد الغزالي؟!.

أي والله!.. وإلا فليقدم لقرائه تحليلا للنص الذى كتبه عن الغزالي، وقال فيه: «إن تصورات الغزالي كلها - رغم ما لقيته بعد ذلك من شيوع وانتشار - تعارض المقاصد الأولية للوحي والشريعة معا[١٠].

فإذا كانت «تصورات الغزالي كلها» [لاحظ «كلها»] «تعارض المقاصد الأولية للوحي والشريعة معا» فهل يبقى له حظ من الايمان بالوحي والشريعة - أي الإسلام؟!.

إن الدكتور نصر - وأنا معه - قد اشتكى ويشتكى من بعض الذين حكموا عليه بالكفر والردة عن الاسلام.. فهل وعى أنه عندما يبيح لنفسه تكفير حجة الاسلام الغزالي، إنما يعطي أمضى أسلحة التكفير لخصومه.. مع الفارق الشاهق بين «المحلل الماركسي للنصوص» وبين «حجة الإسلام»!.

وياليته قد قرأ ووعى كلمات الغزالي عن «أن التكفير: خطر، لا يسرع إليه إلا الجهال»!.

الهوامش:

(١) مفهوم النص ص ٢٧٩.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٣٥، طبعة القاهرة - مكتبة محمود على صبيح - بدون تاريخ.

(٣) الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية ص٥.

(٤) نقد الخطاب الديني ص ٦١.

(٥) الحشوية: فرقة منسوبة إلى «الحشو» الذى لا قيمة له - لعجزهم عن فقه ما وراء ظواهر النصوص.

(٦) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٢، ٣.

(٧) نقد الخطاب الديني ص ٤٠.

(٨) المرجع السابق ص ٦١.

(٩) تهافت الفلاسفة ص ٦٧، ٦٨، طبعة القاهرة ١٩٠٣م.

(١٠) مفهوم النص ص ٣٣٦.



تهل في شهر ربيع الانور ـ ذكرى حبيبة إلى الأمة الإسلامية عزيزة على المسلمين جميعا يهتبلون للقياها، ويستبشرون لمقدمها، ويسعدون بها، تلك هي ـ ذكرى المولد النبوي الشريف الذي تعطرت الأكوان بميلاده، وازدهرت بوجوده، وانتصرت ببعثته، وابتهجت الدنيا كلها بميلاده السعيد فكان ميلاد النبوة والرسالة، وميلاد القيم والمثل العليا، وميلاد النور والايمان، وميلاد رائد حقوق الانسان، إنه نبي الرحمة ورسول الأمة، سيدنا محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

خاتم النبيين

وقد رأيت في هذه المناسبة الخالدة أن أقدم لشباب المسلمين نبذة مختصرة موجزة عن حياته الشريفة، ليلموا بفصولها، ويعرفوا جوانبها، فذلك بعض الواجب عليهم قِبَلَ نبيهم ورسولهم الأكرم عليه السلام.

نسبه الشريف:

هو سيدنا محمد الطيب المبارك بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قُصَي بن زيد، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن قيس، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة.



بقلم: أ.د.
يوسف الكتاني
جامعة القرويين
ـ فاس ـ

مولده ونشأته:

وقد وُلِدَ [صلى الله عليه وسلم] في عام الفيل من الأصلاب والعواتك والفواطم الشريفة، وذلك يوم الاثنين لعشر خلون من شهر ربيع الأول كما تحدث عن نفسه: «إنما خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم لم يصبني من سفاح أهل الجاهلية شيء لم أخرج إلا من طهره»[١].

وقد ظهرت لمولده علامات وبشارات، منها أنه ولد مختونا مسرورا، ووقع حين ولد وهو جالس على الأرض بيده، ورأت أمه عند ذاك كأن شهابا خرج منها أضاءت له الأرض، وأنشد عبد المطلب يوم مولده قائلا:

الحمد لله الذي أعطاني
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من غمر ذي شنان
من حاسد مضطرب العنان[٢]

فتولاه جده عبد المطلب وسماه محمدا، لأن والده توفي قبل مولده، وأرضعته أولا ثويبة أياما، ثم تولت إرضاعه حليمة السعدية وأخذته معها إلى بلادها في بني سعد بن بكر، ولما بلغ أربع سنين أتاه الملكان فشقا بطنه واستخرجا علقة سوداء وطرحاها، وغسلا بطنه بماء الثلج في طست من ذهب، وقال أحد الملكين للآخر: «لو وزن بأمته كلها لوزنهم» ولم تمر سنة حتى رأت حليمة معجزة أخرى، إذ شاهدت غمامة تظلله، إذا وقف وقفت،

وإذا سار سارت، فأفزعها ذلك، فقدمت به إلى أمه التي لم يبق معها سوى ست سنوات حتى توفيت، فأخذه جده عبد المطلب ورعاه، وضمه ورَقَّ عليه، وكان يقربه منه ويدنيه، ويجلسه على فراشه، ووَكَل حضانته لأم أيمن، غير أنه لم تمض سنتان على وفاة أمه حتى توفي جده وهو ابن ثماني سنين فكفله عمه أبو طالب، وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده، ولا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج معه إذا خرج، وكان يقول له: إنك لمبارك إذ كان الصبيان يصبحون رمضا شعثا، ويصبح رسول الله دهينا كحيلا[٣].

ولما بلغ رسول الله {صلى الله عليه وسلم} اثنتي عشرة سنة خرج به أبو طالب إلى الشام في عير التجارة، فرآه بحيرا الراهب وتنبأ له بالنبوة وأوصى به عمه ليحفظه فعاد به إلى مكة.

وشبَّ رسول الله {صلى الله عليه وسلم} مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها، لما يريد به من كرامته، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما وأمانة، وأصدقهم حديثا، وأبعدهم من الفحش ، وما رئي ملاحيا ولا مماريا أحدا حتى سماه قومه الأمين[٤] ثم خرج بعد ذلك إلى الشام في تجارة خديجة وقد بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة، وظهر الملكان مرة أخرى يظلانه من الشمس حتى بهر ذلك ميسرة غلامه، وراهبا رآه ينزل تحت شجرة فقال: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي وهو آخر الأنبياء[٥].

زواجه من خديجة وأولاده:

كانت خديجة بنت خويلد امرأة شريفة حازمة، ذات كرامة وخير، من أعظم أهل قريش شرفا، وأكثرهم مالا، فلما رجع الرسول من تجارتها بالشام غانما رابحا، وقد رأت الغمامة تظلله وهو قادم عليها، فأرسلت إلى رسول الله من يدعوه لخطبتها، فقبل الرسول عليه السلام، وذهب في عمومته فتزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي يومئذ بنت أربعين سنة.

وكان أول من ولد لرسول الله {صلى الله عليه وسلم} بمكة قبل النبوة القاسم ، ثم ولد له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم ولد له في الاسلام عبد الله فَسُمِّي الطيب والطاهر، وأمهم جميعا خديجة بنت خويلد[٦].

ولما رجع {صلى الله عليه وسلم} من الحديبية أهداه المقوقس القبطي صاحب الاسكندرية مارية القبطية ولدت له غلاما سماه إبراهيم، عقَّ عنه شاة يوم سابعه، وحلق رأسه، ثم دفعه إلى أم سيف لترضعه، وكان يزوره ويحنو عليه حتى قال أنس بن مالك: ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[٧] وكان إبراهيم مسترضعا له في عوالي المدينة، فكان يأتيه ونجيء معه فيدخل البيت فيأخذه ويقبله، غير أنه ما لبث أن توفي ولم يتعد ستة عشر شهرا[٨].

نبوة رسول الله وعلاماتها:

عن العرباض بن سارية قال سمعت النبي {صلى الله عليه وسلم} يقول: «إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم من ذلك دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمى التى رأت» وقال: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث»[٩].

وقد ظهرت لنبوته علامات كثيرة قبل المبعث وبعده: منها أنه ولد مختونا مسرورا، ومنها أنه عندما كان يسير تظلله غمامة، ومنها تطهير الملكين ونزع المضغة السوداء من قلبه وهو صغير، ومنها أنه كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا قالت السلام عليك يارسول الله، ومنها أنه ما شكا ـ صغيرا ولا كبيرا ـ جوعا ولا عطشا كما تحدثت أم أيمن[١٠].

وفي حديث أنس أن الصحابة احتاجوا إلى الماء ليشربوا ويتوضأوا فلم يجدوه، فأتى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بقدح رحراح، فوضع يده فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه كأنه

العيون، فشربوا، وكانوا ما بين السبعين إلى الثمانين[١١].

ومنها حادث سراقة بن مالك الذي لحق النبي في طريقه إلى الهجرة ليؤذيه: فدعا النبي {صلى الله عليه وسلم} أن ترسخ قوائم فرسه فرسخت فقال: يا محمد أدع الله أن يطلق فرسي فأرد عنك فقال النبي {صلى الله عليه وسلم} «اللهم إن كان صادقا فأطلق له فرسه» فخرجت قوائم فرسه[١٢].

مبعث رسول الله وما بعث به:

بُعثَ رسولُ الله {صلى الله عليه وسلم} في الأربعين سنة من مولده إلى الأحمر والأسود، أي الى الإنس والجن كما قال: أرسل الى الناس كافة، وبه خُتمَ النبيون، وبُعثَ بالحنيفية السمحة، وبُعثَ رحمةً مهداة لرفعِ قوم ووضع آخرين، وليتمم مكارم الأخلاق، فعن أبي هريرة قال، قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»[١٣].

وقد نُبِّيء رسول الله في يوم الإثنين من شهر رمضان، إذ بدأ تنزُّل الوحي عليه بواسطة جبريل وهو يتحنث في غار حراء، وكان أول ما أُنْزِلَ عليه «إقرأ باسم ربِّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وَرَبُّك الأكرم الذي علَّم بالقلم، علَّم الانسان ما لم يعلم»[١٤] ثم تتابع تنزُّل الوحي عليه في مدة ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاثة عشر سنة بمكة، وعشرة بالمدينة[١٥] وكان آخر ما نزل: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا»[١٦].

دعاء رسول الله الناس إلى الاسلام:

أمر الرسول أن يصدع بما جاء من عند الله، وأن ينادي الناس بأمره، وأن يدعو إلى الله، فكان يدعو أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفيا، ثم انتقل إلى الدعوة جهرا، فاستجاب له من هداه الله، وأعرض عنه من شاء الله، فعاب آلهتهم، فعادوه، وضايقوه في دعوته.

ولم يعبأ النبي بمضايقتهم، وتابع نشر دعوته حتى كثر المؤمنون به وبالاسلام، وخشيت قريش ظهور الاسلام، وجلوس المسلمين حول الكعبة، فأرسلوا إليه عمه أبا طالب ليكلمه أن يترك آلهتهم، وتسفيه ما هم عليه، ويتركوه لدعوته فقال الرسول: «أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطيَّ كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم» فقال أبو جهل إن هذه لكلمة مربحة نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها قال: «قولوا لا إله إلا الله» فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا[١٧].

الهجرة إلى الحبشة:

ولما اشتدت مضايقة قريش للمسلمين، وكثر عليهم أذاها، أذن لهم الرسول أن يتفرقوا في الأرض، وأشار إلى الحبشة، فهاجر إليها من المسلمين سرا أحد عشر رجلا وأربع نسوة، ووجدو لدى ملكها العون والأمان، وكان ذلك في السنة الخامسة من المبعث[١٨] ثم كانت بعدها هجرة ثانية إلى الحبشة عندما ازدادت مضايقة قريش للمسلمين وفتنتهم لهم في دينهم، فأذن لهم الرسول للخروج مرة ثانية، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلا، وثمانية عشرة امرأة، وبقوا هناك يعبدون ربهم، وينتظرون أمر نبيهم حتى سمعوا بهجرته إلى المدينة التحقوا به مسرعين[١٩].

خروجه إلى الطائف والإسراء والمعراج:

ولبث النبي عليه الصلاة والسلام بمكة يدعو إلى ربه مسفها آلهة قريش، وما هم عليه من ضلال إلى أن كانت السنة العاشرة من المبعث، حيث حلت به مصيبتان: وهما وفاة عمه أبي طالب، وزوجته خديجة، فلزم بيته، وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال، فخرج إلى الطائف

ومعه زيد بن حارثة، وبقي بها عشرا لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أبنائهم، فأغروا به سفهاءهم يرمونه بالحجارة، فلجأ إلى حائط يدعو ربه من كفران العشير والبعيد بدعائه المشهور «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين» ثم عاد راجعا إلى مكة[٢٠].

وقد كان رسول الله {صلى الله عليه وسلم} سأل ربه أن يريه الجنة والنار، وقبل حادث الهجرة بسنة تقريبا، وفي ليلة من الليالي ورسول الله قائم في بيته أتاه جبريل بالبراق، وأسري به إلى بيت المقدس، فصلى بالأنبياء إماما ثم عرج به إلى السماوات سماء سماء، فلقي فيها الأنبياء، حتى انتهى إلى سدرة المنتهي، ورأى آيات ربه الكبرى، وفُرضَت عليه الصلوات الخمس، ونزل جبريل فصلى برسول الله {صلى الله عليه وسلم} الصلوات في مواقيتها[٢١].

دعاء رسول الله الأوس والخزرج: كان مفتاح النصر:

وقد لبث عليه الصلاة والسلام بمكة يدعو القبائل إلى الله، ويعرض نفسه عليهم كل سنة، بمجنة، وعكاظ ومنى، أن يؤوه حتى يُبلِّغ رسالة ربّه ولهم الجنّة، ولم تستجب له أية قبيلة منهم، حتى أراد الله إظهار دينه، ونصر نبيه، وإنجاز وعده، فساقه إلى هذا الحي من الأنصار، وانتهى إلى نفر منهم وهم يحلقون رؤوسهم، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فاستجابوا وأسرعوا، وآمنوا وصدقوا، وآووا ونصروا وواسوا، وتواعدوا على لقائه في الموسم المقبل، وكانوا ستة أو ثمانية، ثم قدموا الى المدينة فدعوا قومهم إلى الاسلام، فأسلم من أسلم ولم تبق دار من دور الانصار إلا فيها ذكر من رسول الله عليه الصلاة والسلام[٢٢].

وفي العام المقبل لقي الرسول اثنى عشر رجلا وهي العقبة الأولى، عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس، فأسلموا وبايعوا، ثم عادوا ومعهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن[٢٣] ثم لما حضر الحج كانت العقبة الثانية، خرج أصحاب الرسول الذين أسلموا للقائه بمكة، ولقيهم بمنى وسط أيام التشريق، وكانوا سبعين رجلا معهم امرأتان وتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله، ورغبهم في الاسلام، فبايعوه، ثم عادوا جميعا إلى المدينة[٢٤].

الهجرة إلى المدينة:

طابت نفس رسول الله بعد بيعة المسلمين في العقبة الثانية، إذ جعل الله له بهم منعة، وقوما أهل حرب وعدة ونجدة، فجعل البلاء يشتد بالمسلمين من المشركين، وزادوا من تضييقهم عليهم ونالوا منهم حتى اشتكى أصحابه، واستأذنوه في الهجرة فأذن لهم قائلا: «قد أُخْبِرتُ بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها»[٢٥] فأخذ المسلمون ينسلون مهاجرين إلى الله ورسوله أرتالا، ونزلوا على الأنصار في دورهم، فآووهم ونصروهم، وواسوهم حتى خرج المسلمون جميعا إلى المدينة، ولم يبق إلا القليل منهم بمكة، فخافت قريش خروج الرسول عليه السلام وتآمروا على قتله، لكنه استطاع أن يهاجر صحبة أبي بكرالصديق، حيث اختفى عن أعين قريش في غار ثور أياما[٢٦] ثم رحل هو وصاحبه ودليلهم في حماية الله وفي الطريق مروا بخيمة أم معبد فسألوها تمرا أو لحما يشترون، فلم يصبوا عندها شيئا إلا شاة خلفها الجهد عن الغنم، فمسح الرسول ضرعها فدرت، فشربوا حتى ارتووا وتركوها أحسن مما كانت[٢٧] وأصبح صوت بمكة عاليا يسمعونه ولا يرونه يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به
فأفلح من أمسى رفيق محمد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها
فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت
له بصريح ضرع الشاة مزبد[٢٨]

وتجمع المسلمون في المدينة ينتظرون قدوم رسول الله عليه الصلاة والسلام، الذى حل بقباء أياما إلى أن كان يوم الجمعة، فجمع من كان معه من المسلمين وهم يومئذ مائة، ثم رحل الى المدينة وأقام بدار أبي أيوب الأنصاري سبعة أشهر، ومازال هذا النشيد العظيم الذى استقبلت به الأنصار رسول الله يرن في آذاننا منذ صغرنا، والذي نتمنى أن يصبح نشيد أطفالنا في المدارس.

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع[٢٩]

بناء المسجد النبوي.
والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار:

كان أول عمل قام به الرسول بعد وصوله المدينة المؤاخاة بين المهاجرين والانصار على الحق والمواساة في دار أنس وكانوا حوالي مائة ما بين مهاجر وأنصاري.

ثم اشترى أرضا ليتيمين من الأنصار ليتخذها مسجدا، فأمر بها فبنيت باللَّبن، وسقفت بالجريد، واشترى الرسول مع أصحابه في البناء وهو يقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره
فاغفر للأنصار والمهاجره[٣٠]

وكانت قبلته إلى بيت المقدس، ومازال النبي يدعو ربه أن يصرف وجهه نحو الكعبة، فمازالوا يصلّون قِبَلَ بيت المقدس سبعة عشر شهرا، إلى أن استجاب الله لرسوله وتحولت القبلة نحو الكعبة، ونزل في ذلك القرآن قائلا: {قد نرى تَقَلُّبَ وجْهكَ في السماء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قبلة ترضاها، فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام}[٣١]، فكان المسجد النبوي ثاني مسجد في الإسلام بعد مسجد قباء الذي أسس على التقوى. وإثر ذلك بشهر نزل فرض شهر رمضان وزكاة الفطر ثم صلى الرسول صلاة عيد الفطر بالمصلى قبل الخُطبة، وَصَلَّى صلاة العيد يوم الأضحى وأمر بالأضحية[٣٢].

غزوات الرسول وجهاده فى سبيل الله:

وقد غزا الرسول عليه السلام عدة غزوات من أجل نصرة دين الله، كانت أولاها غزوة بدر التي أعز الله فيها الاسلام وأهله، وهزم الكفر وجنده، كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة[٣٣] ثم تتابعت غزواته وجهاده الى أن كان يوم النصر يوم فتح مكة[٣٤] الذي أتم الله به نعمة الاسلام، وتوحدت الجزيرة العربية تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، مصداقا لقوله تعالى: {إذا جاء نصرُ الله والفتح ورأيت النَّاس يدخلون في دين الله أفواجا فَسَبِّح بحمد ربك واستغْفِرْه إنه كان تَوَّابا}[٣٥].

رسل الرسول وكتبه إلى الملوك. دليل على عالمية الاسلام:

عندما رجع الرسول من الحديبية في السنة السادسة، أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب لهم كتبا، إذ خرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وكان ممن كتب إليهم داعيا إلى الإسلام النجاشي، وقيصر، وكسرى والمقوقس صاحب الاسكندرية والحارث الغساني وهوذة الحنفي[٣٦] وقد أسلم من هؤلاء الستة النجاشي والمقوقس والحارث إذ هداهم الله إلى الاسلام[٣٧] ثم تتالت رسل النبي وكتبه إلى بقية الملوك والزعماء والقادة، مما يميز دعوة الاسلام

بالعالمية والعمومية خلافا لغيره من الأديان السابقة عليه، مصداقا لقوله عليه السلام: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»[٣٨] وكان من نتائج تلك السفارات وفادات العرب وغيرهم على رسول الله مبايعين بالاسلام.

أوصاف الرسول وأخلاقه:

عندما أخبرت أم معبد زوجها لدى عودته بخبر مرور رسول الله بهم، وما كان من أمر الشاة العجفاء، قال لها: صفيه لي يا أم معبد، قالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، متبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثلجة، ولم تزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشعاره وطف، وفي صوته صحل، أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع، وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه عين من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره محفود محشود، لا عابث ولا مفند[٣٩].

ووصفه أبو هريرة فقال: (ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله {صلى الله عليه وسلم} كأن الشمس تجري في جبهته، وما رأيت أحدا أسرع في مشيته من رسول الله {صلى الله عليه وسلم} كأنما الأرض تطوى له، كنا إذا مشينا نجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث)[٤٠].

ووصفه علي كرم الله وجهه فقال: (لم يكن بالطويل الممغط، ولا بالقصير المتردد، كان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط ولا السبط، كان جعدا رجلا، ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم، وكان في وجهه تدوير وكان أبيض مشرباً، أدعج العينين، أهدب الأشفار، أجرد، ذا مسربة، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب، وإذا التفت التفت معا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين، أجود الناس كفا، وأجرأ الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس بذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهه هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله {صلى الله عليه وسلم}[٤١].

وقال الحسين: سألت أبي عن دخول النبي {صلى الله عليه وسلم} فقال: كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا لله، وجزءا لأهله، وجزءا لنفسه، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة والخاصة، ولا يدخر عنهم شيئا.

وذكر مجلسه فقال: مجلس حلم وحياء، وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا فحَّاش ولاعيَّاب ولا مداح، ولا يقبل الثناء إلا من مكافيء[٤٢].

قال: فسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه فقال: كان رسول الله، {صلى الله عليه وسلم} يخزن لسانه إلا مما يعينهم ويؤلفهم ولا يفرقهم، أو قال ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويولِّيه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس، ويُحَسِّنُ الحسن ويقويه، ويُقَبِّح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا ، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجوز الذين يلونه من الناس، خيارهم أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة.

قال قلت: كيف كانت سيرته في جلسائه؟ قال: كان رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، دائم البشر، سهل الخلق لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب، يتغافل

عما لا يشتهي، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، ومما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا ولا يُعَيِّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته ولا يقبل الثناء إلا من مكافيء، ولا يقطع عن أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام[٤٣].

وسئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن خلق رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقالت: كان خُلُقه القرآن[٤٤].

ثم سُئلت عن أخلاقه فقالت للسائل: ألست رجلا عربيا تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن القرآن خلقه، ومن هنا كان {صلى الله عليه وسلم} أحسن الناس خلقا، وكان يقول: «إن خيركم أحسنكم أخلاقا» ويدعو: «اللهم كما حسنت خلْقي فَحَسِّن خُلُقي».

وخدمه أنس عشر سنوات فقال: خدمت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} عشر سنين فما رأيته قط صافحه إنسان فنزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينصرف، وما قال لشيء صنعته لم صنعت كذا، ولا قال: ألا صنعت كذا وكذا، ولقد شممت العطر فما شممت ريح شيء أطيب ريحا من رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، ولا أصغى إليه رجل فَنَحَّى رأسه حتى يكون هو الذي يتنحى عنه. فلما فتحت مكة بالاسلام، ودخلها الرسول وصحبه مكبرين مهللين، حطموا الأصنام، ورفعوا الصوت بالأذان من أعلى الكعبة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وأكمل الله تنزل القرآن، وانتشر دين الله، قبض الله نبيه ورسوله وتوفاه إليه، وعمره ثلاث وستون سنة، لتتم بذلك النبوة، وتكمل الرسالة، ويعم التوحيد جميع العالمين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

الهوامش:

(١) سيرة ابن هشام ١/١٥٨ - ودلائل النبوة ٢٤ - كما رواه الطبراني.
(٢) سيرة ابن هشام ١/١٥٩ - الروض الأنف ١/١٠٧ - سبل الهدى ١/٤٣٧.
(٣) سبل الهدى ١/١٧٨.
(٤) سيرة ابن هشام ١/٢١٠.
(٥) المصدر السابق ١/٢٠٣ - سبل الهدى ٢/٢٣١.
(٦) سيرة ابن هشام ١/٢٠٢ - الروض الأنف.
(٧) مسند الامام أحمد ٣/١١٢.
(٨) سيرة ابن هشام ١/٢٠٢ - ابن سعد ١/١ و٨٥ زاد المعاد ١/٤٩.
(٩) ابن سعد ١/٩٦، المسند ٥/٢٦٢. الوفا ١/٣٦. سبل الهدى ١/٩٨.
(١٠) سيرة ابن هشام ١/٢٥٠، ابن سعد ١/١٥٧. الروض الأنف.
(١١) جوامع السيرة النبوية ص ٢٩.
(١٢) الرياض النضرة للمحب الطبري ١/٧٢ - سبل الهدى ٣/٣٥٤.
(١٣) حديث متواتر صحيح أخرجه الشيخان عن أبي هريرة.
(١٤) سورة العلق - الآيات الخمس.
(١٥) الرحيق المختوم للمباركفوري ص: ٥٢١ و ٥٢٢.
(١٦) سورة المائدة - الآية/٣.
(١٧) رواه أحمد والبيهقي عن الأشعث بن سليم عن رجل - سيرة ابن كثير ٢/١٥٦.
(١٨) سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ و ٣٥٠ سبل الهدى ٢/٤٨٥.
(١٩) المصدر السابق ١/٣٥٣ - طبقات ابن سعد ١/٢٠٧.
(٢٠) ابن سعد ١/٢١١ - سبل الهدى ٢/٥٧٧ والحديث رواه الطبراني.
(٢١) دلائل النبوة ١٧٤ - سبل الهدى ٢/٣٩٨ - عيون الأثر ١/١٤٠ و ٤٤٤.
(٢٢) سيرة ابن هشام ٢/٣٨ سبل الهدى ٣/٢٦٧.
(٢٣) سبل الهدى ٣/٢٦٩ - ٢٧١.
(٢٤) سبل الهدى ٣/٢٧٧ و ٢٧٨.
(٢٥) ابن سعد ١/٢١٠ - سبل الهدى ٣/٣١٢ والحديث رواه الترمذي.
(٢٦) ابن سعد ١/٢١٤ - سبل الهدى ٣/٣٣٦.
(٢٧) الروض الأنف ٢/٨٢ أسد الغابة ١/٣٧٧ النهاية ١/١٣٤.
(٢٨) نهاية الأرب ١٦/٣٣٧ سبل الهدى ٣/٣٤٩.
(٢٩) رواه البيهقي عن عائشة - سبل الهدى ٣/٣٨٦.
(٣٠) ابن هشام ٢/١١٤ و ١٢٤ الروض الأنف ٢/١٨ سبل الهدى ٣/٣٨٦.
(٣١) سورة البقرة - الآية ١٤٤.
(٣٢) صحيح البخاري ٢/٤ - ٦ و ٢٢٥ و ٢٢٦.
(٣٣) سبل الهدى ٤/١٧ و٢٠.
(٣٤) المصدر السابق ٤/١٨.
(٣٥) سورة النصر.
(٣٦) ابن هشام ٤/٢٥٤ ابن سعد ١/٢ - ١٥ - ابن كثير ٤/٢٦.
(٣٧) جوامع السيرة النبوية ٥٤ - ٥٦.
(٣٨) حديث صحيح رواه السائب بن يزيد.
(٣٩) منال الطالب لابن الأثير ص ١٧٢، طبقات ابن سعد ١/٢٣٠.
(٤٠) طبقات ابن سعد ١/٤٢٢ و ٤٢٣ - دلائل النبوة ٣/٢٢٧ و ٢٣٠.
(٤١) الشمائل لابن كثير ٥٠ - ٥٦ الخصائص الكبرى ١/١٨٨، ١٩٠.
(٤٢) منال الطالب ص ١٩٩.
(٤٣) الشمائل للترمذي ١/٣٩ و ٥٣.
(٤٤) أخرجه البخاري في صحيحه.



جاء في الحديث الشريف عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين. رواه البخاري.

الإيمان وكماله في محبة النبي

{صلى الله عليه وسلم}

بقلم:
عبد الله محمد أبكر
- جدة -

فقوله: لا يؤمن أحدكم: خطاب يشمل الموجودين ومن بعدهم من المولودين وفي رواية مسلم (عَبْدٌ) وفي رواية غيرها (أَحَدٌ) أي - لا يكمل إيمان أحد - بدلالة رواية ابن حبان - لا يبلغ عَبْدٌ حقيقة الإيمان والمعنى لا يعتد بإيمانه، وفي رواية عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: كنا مع النبي {صلى الله عليه وسلم} وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء الا من نفسي فقال له {صلى الله عليه وسلم} لا والذى نفسي بيده حتى أكون أَحَبّ إليك من نفسك فقال عمر فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي فقال {صلى الله عليه وسلم} الآن يا عمر: أي الآن في هذا الزمان قد استقمت إيمانا وتكملت إيقاناً. وحصل الجواب. بالآن أي عرفت ونطقت بما يجب. وقال الحافظ في الفتح: أي لا يكفى ذلك لبلوغ الرتبة العليا حتى يضاف إليه ما ذكر.

ثم قال الحافظ فعلى هذا فجواب سيدنا عمر أولا كان بحسب الطبع ثم تأمل فعرف بالإستدلال أن النبي {صلى الله عليه وسلم} أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والآخرة.

والمراد بالحب هنا ليس الحب الطبيعي المتابع لهوى النفس. فإنه معلوم أن محبة الانسان لنفسه من حيث الطبع أشد من محبة غيره. وكذا محبة ولده ووالده أشد من محبة غيرهما، وهذا الحب ليس بداخل تحت اختيار الشخص بل خارج عن حد الإستطاعة فلامؤخذة، لقوله سبحانه {لا يكلف الله نفسا إلا وُسْعَها} بل المراد الحب العقلي الاختياري الذى هو إيثار ما يقتضى العقل رجحانه، وإن كان على خلاف الطبع ألا ترى أن المريض يكره الدواء المرّ بطبعه ومع ذلك يميل إليه باختياره ويهوى تناوله بمقتضي عقله لما علم أو ظنّ أن صلاحه فيه وكذلك - المؤمن، إذا علم أن الرسول {صلى الله عليه وسلم} لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح دينه ودنياه وآخرته وعقباه وتيقن أنه عليه الصلاة والسلام أشفق الناس عليه وألطفهم إليه، وحينئذ يرجح جانب أمره بمقتضى عقله على غيره وهذا أول درجات الإيمان. وأما كماله فهو أن

يصير طبعه تابعاً لعقله في حبه له {صلى الله عليه وسلم}.

وقوله: الناس أجمعين أي سائر الخلق عموماً حباً اختيارياً يوجب إكراماً له عليه الصلاة والسلام، وإجلالا في مقام الاحترام واختياراً يوجب محبة رسول الله ورضاه على محبة المخلوقين مما سواه.

يفهم من هذا كله أن إيمان الشخص لا يكمل - بل لا يحصل إلا بمحبة النبي {صلى الله عليه وسلم} فوق محبته لكل الناس ومن كل شيء، ولا إيمان لمن لا محبة له، وقد وردت أحاديث كثيرة في شأن الايمان. منها قوله {صلى الله عليه وسلم} : لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به، وقوله: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وقوله: والله لا يؤمن. قيل من يارسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه، - أي شره - وقوله: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وقوله: لا يشرب الخمر حين يشربها أى الرجل وهو مؤمن.. الى غير ذلك من الأحاديث الواردة في عدم الايمان وتحققه وثبوته أو نفى كماله، أو انتزاعه أو وجود حلاوته.

أما الإيمان الأول والأصلي يحصل به {صلى الله عليه وسلم} وبما جاء به ومما جاء به.. الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

وأما مسألة الكمال البشري وما يتبعه فنعتمد فيه الى قوله {صلى الله عليه وسلم} في الحديث الشريف الوارد عن أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه قال - قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية ابنة مزاحم، ومريم ابنة عمران، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام (رواه الامام أحمد وغيره)».

لأنه قيل: مريم مع سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وعائشة رضي الله عنها مع سيدنا القائد {صلى الله عليه وسلم}، ومعلوم أن سيدنا محمداً {صلى الله عليه وسلم} أفضل من عيسى ومن جميع الانبياء عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فهو {صلى الله عليه وسلم}، إمامهم وأمامهم، فمن كان مع سيدنا وحبيبنا محمد {صلى الله عليه وسلم} أفضل ممن هو مع غيره، فالأمر إذاً إمامة وتبعية، ومن هذا الباب جاء تفضيل سيدتنا عائشة رضى الله عنها على سائر النساء، وإن فى ذلك خلاف، والتفضيل لا يقتضي انتقاص الآخرين، ولا ننسى أن السيدة عائشة أحب الناس الى رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، ومن الرجال سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومن هؤلاء الرجال الكمل الطبقة الأولى من الصحابة الكبار، وفى مقدمتهم الخلفاء الأربعة، والبقية من العشرة المبشرة، وأصحاب الشجرة. وأهل أحد وبدر الكبرى.

فكل هؤلاء كُمَّل بلا شك ولا ريب. كمال فى الدين والإيمان وكمال فى المحبة والاتباع، كمال فى تأدية الحقوق والقيام بالواجبات كمال في الطاعة له {صلى الله عليه وسلم} الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وَحْيٌ يوحى، ومن يُطع الرسول فقد أطاع الله - كيف لا إيمان ولا كمال فيهم وهم الذين مدحهم الله بفضل معية الرسول {صلى الله عليه وسلم}: يقول سبحانه {محمد رسول الله والذين معه} كيف لا وهم صفوة الخلق بعد الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله أجمعين، كيف لا وهم السادة القادة من جميع الأمم، كيف لا ومنهم الزوجات الطاهرات السيدات من نساء العالمين، كيف لا وكلهم تشرفوا برؤية الحبيب {صلى الله عليه وسلم} وجالسوه في مجالسه وعاشروه، وملؤوا أعينهم منه {صلى الله عليه وسلم} هيبة منه وإجلالا وحياءا، كيف لا كمال وقد نظر هو {صلى الله عليه وسلم} إليهم بالعين الرحيمة نظرة الأب إلى أبنائه، بالرحمة والشفقة نظرة من قيل في حقه: (حريص عليكم بالمؤمنين

رؤوف رحيم) نظرة من قيل فيه: (ما زاغ البصر وما طغى) لا شك أنه نظر حفيف ونظيف وشريف. فليته خصني برؤية وجهه، زال عن كل من رآه العناء، كيف لا، وهو القائل (طوبى لمن رآني أو رأى من رآني)، أو رأى من رأى من رآني لا شك إنها الرحمة المجردة: كيف لا وهو {صلى الله عليه وسلم} مصدر الرحمة، في قوله تعالى {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} ويقول هو {صلى الله عليه وسلم} عن نفسه: أنا الرحمة المهداة، والهدية تختلف وتمتاز عن العطية.

فاذا كانت هذه الكماليات كلها في صحابته رضوان الله عليهم أجمعين بل فى من هم أدنى منهم درجة وأنزل رتبة، فاذا كان كذلك، فما بالك به وبما فيه هو {صلى الله عليه وسلم} أليس من البديهة أن يكون هو {صلى الله عليه وسلم} الإنسان الكامل الحقيقى المتجلى بالكمال البشرى والانسانى.

ولو قلنا أنه {صلى الله عليه وسلم}: هو الأكمل والأفضل، وهو كذلك، فلو قلنا ذلك، لفاتنا أن ندرك من كنه حقيقته الذاتية المعنوية التى من أنوارها وتجلياتها أوصافه الخلقية الحسية التى جاءت فى الشمائل الشريفة (في كتاب الترمذى) وهذه الأوصاف في حد ذاتها وعلى ظهورها قد بلغت الكمال الأبلغ فليس ثمة شيء صورة ومعنى في الكون كله أكمل منه {صلى الله عليه وسلم} بل جميع المخلوقات، فهو الأفضل على الإطلاق، وناهيك عن الخوض في الكمال المعنوى، فذلك حديث فى شرحه طول، والطول فيه تقليل كيف لا وهو الذى يقول: في نفسه وعنها: (إني على علم من الله علمنيه) ويقول أيضا: (أدّبني ربي فأحسن تأديبي) ولا مانع من أن يكون هذا الأدب والتأديب زائد على ما ورد في القرآن الكريم والذى كانت السيدة عائشة تقول فيه كان خُلُقُهُ القرآن، والقرآن كلام الله، فما المانع من أن يكون هذا وذاك: والمورد واحد، وهو {صلى الله عليه وسلم} يؤكد لنا ذلك بقوله «إنى لست كهيئتكم أبيت عند ربى يطعمني ويسقين» إنها الخصوصية، وما النبوة إلا الأسرار، إذاً..!

فعلى المرء المحبة الصادقة والاتباع القويم والايمان الكامل بهذا النبي الكريم {صلى الله عليه وسلم} وبما جاء به، والمرء مع من أحب (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) (ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّديقين والشهداء وحَسُنَ أولئك رفيقا)، فنعم هذه النتيجة من المعية القويمة النافعة والمعية: في الآخرة تقتضى معية سابقة في الدنيا، إما حساً أو معنى فأنت إذا أحببت في الدنيا ومحبوبك هذا ممن أحبه الله في الدنيا بسبب الطاعة، وهيأ له فى الآخرة من الاكرام والانعام ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كل ذلك نتيجة المحبة ـ فأنت بمعيتك هذه وبمحبتك تصل إلى الأعلى والأرقى، ما توفرت التقوى منك،فكن على مراد مولاك، وكن مع الذين قال الله فيهم وأمر: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونو مع الصادقين} كن مع الذين يحبونه ويحبهم.

وجاء في الحديث الشريف «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» وجاء أيضا: قوله {صلى الله عليه وسلم} «لا تصاحب إلا مؤمنا» الحديث، وكلها أحاديث صحاح ومن صاحب أو أحب أو جانس أو إلى غير ما وصف له الحبيب {صلى الله عليه وسلم} من الأوصاف فهو بشأنه أبصر وكل إناء بالذى فيه ينضح.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يقر أعيننا برؤية الحبيب {صلى الله عليه وسلم} يقظة ومناما في الدنيا والآخرة.

وأن يجعلنا معه في جنات النعيم، ويرزقنا كمال المتابعة له ظاهراً وباطنا، وان يصدق فينا محبته بالقول والعمل ويجعلنا من المتمسكين بكتابه وسنة سيد أحبابه.



اكتسب المجتمع الإسلامي خيريته وسموه بهذا القدر الكبير من الأخلاقيات، والسلوكيات، والقيم والفضائل، التى حكمت العلاقات، ووجهت الروابط والصلات بين أفراده، بحيث يعطي كل فرد قدره، وينزل المنزلة التى يستحقها. وينال التقدير والتوقير الذى وصّت به الشريعة السمحة، ودعا إليه الكتاب الحق والسنة الهادية. ومن الأسس التى يقوم عليها مبدأ التوقير في الإسلام: مقام النبوة، وكبر السن، ومقام العلم بالقرآن، وحق الضعيف والمرأة، ومقام الإمارة.

التوقير من معالم المجتمع الإسلامي

بقلم: أ.د السيد رزق الطويل
عميد الدراسات الاسلامية
- جامعة الأزهر -

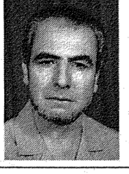
وهذا المبدأ يرتكز على الحديث الشريف، الذى يرويه ميمون بن شعيب عن السيدة عائشة رضي الله عنها؛ إذ مر بها سائل فأعطته كسرة، ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة، فأقعدته فأكل، فقيل لها فى ذلك، فقالت: قال رسول الله [صلى الله عليه وسلم] «أنزلوا الناس منازلهم»[١].

وكأن السيدة عائشة أحست من هيئة الرجل أن له شأنا يتطلب شيئا من توقيره وإبعاده عن المهانة التى قد تلحق به لحاجته وسؤاله، وهذا مدى من التكريم لا يدركه إلا ذوو الحس الإيماني، وأولو الألباب من الناس.

وقد علمنا القرآن الكريم أن مقام النبوة يفرض ألوانا من التكريم والتوقير لمكانتهم عند الله، ومكانتهم الأخلاقية والسلوكية فى دنيا الناس، وينالها من حذا حذوهم من أهل التقوى والصلاح، يحدثنا الله تبارك وتعالى عن المثوبة التى ينالها من أطاعوا الله ورسوله، فيقول سبحانه: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا}[٢].

وفى مقدمة من دعا رب العالمين لتوقيرهم خاتم الرسل محمد [صلى الله عليه وسلم]: لقد انتقد القرآن الكريم وفد بنى تميم الذين أزعجوا النبي [صلى الله عليه وسلم] في قيلولته في غير تجمل أو تلطف وقد وصفهم بعدم التعقل؛ لأن القول الحسن ثمرة العقل الواعي، وفى بداية هذا العقاب للوفد التميمى دعا رب العالمين عباده المؤمنين إلى غض الصوت في مجلس رسول الله [صلى الله عليه وسلم]، فما بالك عند النداء والمخاطبة، حتى تصف الآية من يغضون أصواتهم فى مجلس النبي بأنهم أصحاب عقول محصتها التقوى، لهم عند الله مغفرة وأجر عظيم، يقول سبحانه [يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم، وأنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم}[٣].

إن الآيات أخذت على بني تميم أمرين في التعامل مع النبي الكريم:



أولهما: أنهم لم يتخيروا وقت اللقاء، فجاءوا فى فترة من النهار يخلد الإنسان فيها الى الراحة.

ثانيهما: ارتفاع أصواتهم في النداء، وهذا أمر لا يليق بمقام النبوة أن يجهر الإنسان أمامه بالقول كما يفعل مع الآخرين، بل لابد من أناة في الحديث، وترفق في الخطاب، وأدب فى النداء، كما قال سبحانه: {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}[٤].

وتتوالى توجيهات النبي {صلى الله عليه وسلم} إلى الأمة الإسلامية لتأخذ نفسها بهذا اللون مع علماء الأمة، وذوي الرأى ، وأولي الألباب فيها ، وذوى الشيبة من كبارهم الذين ابيضت لحاهم في الإسلام، كل هؤلاء لهم حق التوقير، وواجب الترفق، وأن نشعرهم بالبر، ونعطيهم حق المكانة التى تبوءوها إن كان من ذوى الإمارة والسلطان، وأما الضعيف فنعينه ليقوى، واليتيم نأخذ بيده ليشتد، والمرأة نساعدها على تعففها وتصونها، وعندما تنجح في ذلك فإن مجتمع المسلمين يأخذ صورته الصحيحة، فيكون مجتمع القيم، والحقوق المصونة، والأدب الكريم الذي يكتمل به إيمان المؤمنين.

ولنقف وقفة متدبرة أمام بعض التوجيهات النبوية في هذا الصدد.

يكرم النبي {صلى الله عليه وسلم} أهل الفطنة، والفقه، وأصحاب العقول الراشده فيأمر بأن يكونوا في الصف الأول، وأقرب الناس إليه في الصلاة، روى أبو مسعود عقبة بن عمرو البدرى أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} كان يقول عند قيامه للصلاة: «ليلنى منكم ذوو الأحلام والنهى»[٥].

ووضعهم فى هذا الموضع ليس مجرد تكريم بلا موجب، ولكن لأنهم أقدر على مواصلة الصلاة، وتحمل عبء الإمامة إذا حدث للإمام شيء، وكذلك لهم القدرة على تذكيره إذا نسي في التلاوة، أو سها عن عمل من أعمال الصلاة.

وتوقير الصغير للكبير مطلب إسلامى، كما أن رحمة الكبار للصغار قيمة إسلامية تربوية تشيع الرفق والمودة فى المجتمع، وقد نبه النبي {صلى الله عليه وسلم} إلى ذلك فى أحاديث عدة من ذلك ما رواه عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا»[٦].

وعبارة الحديث تؤكد خطورة هذه الفضيلة؛ إذ أن الحديث يعنى أن المخالفين لها قد تخرجهم عن ساحة الفضائل الإسلامية.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: ما أكرم شاب شيخا لسنِّه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه»[٧].

وفى هذا الحديث تذكير للصغار بمستقبل آت لا ريب فيه، تكبر سنهم ويفتقدون التوقير الذى ضنوا به على أسلافهم.

بل إن هناك نصا نبويا آخر يعد هذه الفضيلة من باب إجلال المولى جل وعلا وتعظيمه روى أبو موسى الأشعري أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: «إن من إجلال الله إكرام ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن الكريم غير الغالى فيه، والجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط»[٨].

وهنا يشير هذا الحديث بجانب توقير الكبار، وإكرامهم إلى أصحاب العلم بالقرآن، الملازمين لتلاوته وتدبره وفهمه من غير غلو وشطط؛ إنهم من خير الناس قال ذلك النبى {صلى الله عليه وسلم} فى حديث له: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

كما يشير الحديث إلى حق السلطان العادل فى التوقير والتكريم ما دام يقوم في الناس بالحق والقسط؛ ولذا عندما تحاور الصحابة حول لقب الخليفة عمر بن الخطاب أيقولون: خليفة خليفة رسول الله، فيطول بهم الكلام، ويطول أكثر مع من يليه؟!! فقال أحدهم: نقول: يا عمر، فقال: إذن تهضمونني حقي!! فقال: أنتم المؤمنون، وأنا أميركم، فقولوا: يا أمير المؤمنين، وارتضى الصحابة ذلك، بُعْدا عن التكلف وحفاظا على حق الأمير.

ورعاية المرأة والطفل تدخل فى هذا الإطار، أتذكر موقف موسى عليه السلام من ابنتي شيخ شعيب، وهما يذودان أغنامهما، يقول لهما موسى عليه السلام: «ما خطبكما، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء، وأبونا شيخ كبير فسقى لهما»[٩].

ليت شعري ما لي أرى هذه الفضائل غربت من آفاق مجتمعنا، فالشباب الأقوياء يزاحمون الشيوخ الضعفاء والنساء في الحافلات، ويحتلون المقاعد، والكبار يعانون الزحام وآلام الوقوف ومتاعبه؟ وأين توقير العلماء وأهل القرآن؟!! إن وسائل الإعلام تسرف في السخرية بهم وامتهانهم فيما تُقدِّم من أفلام ومسلسلات.

وتقدير الرؤساء وذوى السلطان قيمة غيبها نفاق الانتهازيين والوصوليين لكن الإسلام يدعو الأمة إلى احترامهم، وإنزالهم منزلتهم، كما يدعو إلى نصحهم وتقويمهم إبعادا لهم عن الانحراف والشطط، حرصا على أمن المجتمع المسلم وسلامته.

الهوامش:

(١) رواه مسلم وأبو داود معلقا، وقال الحاكم فى كتابه معرفة علوم الحديث: حديث صحيح.
(٢) سورة النساء/ ٦٩.
(٣) سورة الحجرات/ ٢ - ٥.
(٤) سورة النور/ ٦٣.
(٥) أخرجه مسلم.
(٦) حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي.
(٧) رواه الترمذي وقال حديث غريب.
(٨) حديث حسن رواه أبو داود.
(٩) سورة القصص/ ٢٣.





رحمة للعالمين

شعر: د. محمد محسن
عضو رابطة الأدب
الإسلامي العالمية

أمــحـــمــدٌ : يا رحــمـــة الرحـــمن
ومـــحـــبــة تنســـاب في شـــرياني
ومــحـــرر الكون الأســيـــر بشـــرعـــة
علـويـة منظـومــــة الأركـــــان
يا خـــيـــر قُوَّاد البــريَّة كلهـــا
ومــــــحـطـم الأصـنـام والأوثـان
مـــدحـــوا مـــروءتهُ الأحـــبَّة والعـــدا
نورا أضـــاء مـــســاحـــة الأزمـــان
قـــالوا وقـــال الله فى خلق النبيِّ
عظيـــمـــة فى مـــحكم القـــرآن
الصـــادق الورعُ الأمين، صـــفـــاتُه
تســـرى هُدى فى ســـائر الأكـــوان
هاجـرت فـاجـتـاح البـسـيطة بشـرها
وتفـتـحت مـخـضـرة الأغـصـان
قـــد جـئت شـرَّفت المدينة داعـيـاً
لله والتـــوحـــيـــد والإيمان
فـــتـغـيــر التـــاريخ والكون اهتــدى
امــا الضـــلال فـــقـشـــه الطوفـــان
ســبــحـان من أسـرى بخـيـر عـبـاده
ليــلا إلى الحــرم الشــريف الثــانى

فــــوق البــــراق أراه من آيـاتـه

مــالا يجـول بخـاطر الإنســـان

هـذا إمـــام المرسلين ســـمـــا إلى

أعلى ســـمـــاوات وأعظـم شـــان

في ليلة القــــدر الأمين وقـــد أتى

بالوحي يتلو أوّل القـــــرآن

«إقـــرأ وربُّك» خـــالق العلم الذى

بكتـــابه أهـداه للإنســـان

فـهـداه من حـقب الظلام إلى السنا

وهداه من جـهل لخـيـر بيـان

وهداه للصلوات بعــد شـهـادتين

وللزكـا والصـوم في رمـضـان

والحج للبـيت الحـرام فـريضـة

لمن استطاع بعـزمـه المتـفـاني

يا قـائد الغـر الرسـول المصطفى

وهـداية من ربنا الرحـــمـن

المسـجـد الأقـصى يئن وقـدسـه

تشكو اليـهـود لربهـا الديان

تعـوى سـرايـيـفـو ولا تلقى سـوى

شـرك اليـهـود وسطوة الطغـيـان

الدين في كل البـلاد مـحـاصـر

والثلج والنيـران في الشـيـشـان

ندعـو النصيـر لكي يعـيد فـتوحنا

كي نسـتـعـيد مـسـاجد الجولان

ندعــو القـدير بأن يقـيل عـثـارنا

بجـهـادنا وبقـــوة الإيمان





الجدل النبوي .. أدب وتربية

بقلم: د. عبد الرحمن طالب
المعهد الوطني العالي للحضارة الاسلامية - الجزائر -

المضمون اللغوي لمادة الجدل:

يبدو أن الجدل يطلق في الأصل اللغوي على معنيين حسيّيْن:

أحدهما: الشد والفتل والإحكام. وقد جاد في مفردات الراغب[١] «جدلت الحبل أي أحكمت فتله، وجدلت البناء أي أحكمته».

ثانيهما: الإلقاء والإسقاط على الجدالة التي هي الأرض الصلبة، جاء في أساس البلاغة[٢] «جدله، أي ألقاه على الجدالة».

وعلى كلٍّ سواء أكان الجدل مستمدا من الفتل والشد أم من الصراع والإسقاط، فالمهم أنه يطلق على المشادة الكلامية التي تهدف إلى تحقيق الغلبة لما اعتنق من مذهب، ولما اتخذ من رأي، وإلحاق الهزيمة بالمخالف.

يقول محمد التومي[٣]: «وإذا اعتبرنا المنازعة الكلامية جدلا استنادا على المعنى الأصلي الأول فذلك؛ لأن كل واحد من المجادلين، إنما يعمل على شد رأيه وإحكامه؛ بما يقدمه من أدلة تأييدية، وبما يكشف عنه من وهن في رأي خصمه.. وإذا اعتبرنا التسمية على المعنى الثاني فذلك؛ لأن كل واحد من المجادلين، إنما يجتهد في استجماع قواه العقلية، بإبراز المؤيدات وإظهار الشواهد، لبيان وجاهة ما التزم به من مذهب، وما اعتنقه من مبدأ قصد تبكيت خصمه ومباهتته».

الجدل عند العقلاء وعند المعاندين:

الجدل عند العقلاء مناقشات هادئة تتوجه إلى العقل، وتطالبه بالنظر والتدبر، وتخاطب الحواس تدعوها إلى استخدام ما حولها من كون وأنفس للوصول إلى تقرير الحق، ولكن الجدل عند المعاندين خصام ونزاع، ومراء وعناد، وإثارة شُبه، وإشاعة ومغالطات، وإعراض وتملص باستعمال أساليب لا يقرها منهج، ولا يرتضيها منطق؛ لعدم استنادها على سلطان من كتاب، ولا على برهان من عقل، ولبعدها عن الموضوعية، وانغماسها في الذاتية ومقتضيات الهوى، وعدم تخلصها من المنفعة المصلحية، إذاً، الجدل نوعان: ممدوح ومذموم.

الجدل الممدوح:

الجدل الممدوح هو ما سلكه الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، من طرق بيانية في سبيل نشر ما كُلِّفوا به من دعوات، وخاصة ما كانوا يقومون به من مناظرات، ومحاورات ومناقشات، يعرضون فيها ما تيسر

لهم من بيّنات، وما نزل عليهم من وحي، وقد كانوا يجادلونهم بالحسنى.

الجدل المذموم:

الجدل المذموم عند الله ورسوله وصالحي المؤمنين العقلاء هو:

١ ـ جدل يقصد به تغطية الحقيقة وتغييبها، بدل إظهارها والدفاع عنها. قال الله تعالى[٤]: {ويجادل الذين كفروا بالباطل ليُدْحضُوا به الحق}.

٢ ـ جدل بدون حجج قاطعة، لم يرتكز على المستندات الثابتة من عقل متبصر، ونقل متفحص. وقد ذم الله هؤلاء الأقوام الذين يجادلون بدون سلطان، أي بدون برهان، ووصفهم بالكبر فقال[٥]: {إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إنْ في صدُورهم إلا كبْرٌ ما هم ببالغيه}.

٣ ـ جدل لأسباب ذاتية، مثل سيطرة العادات والتقاليد، فالمجموعة البشرية إذا ألفت بنفسها الى العادات الجارية في الأوساط التي تعيش فيها، تصبح ترى أن المتعة كل المتعة في مسايرة ما عليه المجتمع الذي هو أحد أفراده، قال الله تعالى حكاية عنها[٦]: {إنا وجدنا آباءنا على أُمَّة وإنَّا على آثارهم مُهتدون}.

دور الجدل في التربية:

ـ عندما يُجادل الوثني والكافر ليخرجا من الظلمات إلى النور تربية.

ـ عندما يزحزح المسلم المسرف على نفسه من ضباب الذنوب إلى نور الطاعة والهداية تربية.

ـ عندما يُرقى المسلم إلى معارج المخلصين، ويزاحم بعمله الذين سبقت لهم الحسنى تربية وترقية.

وهذه العمليات كلها تتم بأساليب تربوية نص عليها القرآن، واستعملت في السنة النبوية، وستأتي منها نماذج مختارة.

نماذج من أحاديث الجدل:

١ ـ الجدال مع حصين في وحدانية الله تعالى:

ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني قصة حصين الذي ذهب يجادل رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقال له الرسول[٧]:

ـ ياحصين كم تعبد من إله؟

ـ قال: سبعا في الأرض وواحدا في السماء.

ـ فقال: إذا أصابك الضر من تدعو؟

ـ قال: الذي في السماء.

ـ قال: فإذا هلك المال من تدعو؟

ـ قال: الذي في السماء.

ـ قال: فيستجيب لك وحده وتشركهم معه؟ أرضيته في الشكر أم تخاف أن يُغلب عليك؟

ـ قال: ولا واحدة من هاتين. قال: وعلمت أني لم أكلِّم مثله.

ـ قال: يا حصين أسلم تسلم.

ـ قال: إن لي قوما وعشيرة فماذا أقول؟

ـ قال: قل: اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وزدني علما ينفعني.

فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم.

كان السيد حصين ـ رضي الله عنه ـ ذا حصافة في الرأي، يُرْسَل من قبَل الناس للمهمات الكبرى فينجح في حلها، ولذا اختارته قريش ليجادل رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وذهب معتمدا على ذكائه، وحسن تجاربه، ولكن ما إن بدأ رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يسأله: كم تعبد من إله؟ من تدعو؟ أرضيته في الشكر أم تخاف أن يُغْلب عليك؟ حتى غُلب على أمره، وارتُجَّ عليه، وسُقط في يده، وعلم أنه لم يكلم في سالف أيامه رجلا مثل رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، لا من حيث العلم الحق، ولا من حيث الجدل الهادف الصائب.

ولما علم الرسول [صلى الله عليه وسلم] توَقُّفَ المجادل عن اقتناع دعاه إلى الإسلام. ولما تعلل السيد حصين بكونه ذا قوم وعشيرة، وقد أرسله قومه إليه ليجادله، فماذا عساه أن يقول لهم إذا رجع إليهم، لم يجبه الرسول [صلى الله عليه وسلم] عن سؤاله، وإنما أرشده إلى ما هو أهم، فقال له قل: «اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وزدني علما ينفعني»، وهذا من باب قوله تعالى[٨]: {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج}. قال الشيخ سليمان[٩]: «السائلون سألوا ما بال الهلال يبدو دقيقا، ثم يزيد حتى يمتلىء نورا.. سألوا عن سبب اختلاف القمر في ذاته فأجيبوا ببيان فائدة هذا الاختلاف، إشارة إلى أن هذا هو الذي ينبغي أن يُسأل عنه» وكذلك كان جواب الرسول [صلى الله عليه وسلم] للسيد حصين، فبدلا من أن يلقنه جوابا لقومه، علَّمه دعاء هاما، فيه كل الخير والهداية، وما إن نطق السيد حصين بالدعاء حتى هداه الله إلى الإسلام، وخرج مقتنعا بما فعل. وهذا هو الجدل الهادف. وأثر التربية فيه أوضح من الشمس، يتجلى ذلك في انسلاخ السيد حصين المجادل من ثوب الكفر القاتم، وارتداء لباس الإيمان الناصع.

٢ ـ طلب الترخيص في الزنا:

كان الزنا متفشيا في الجاهلية، ولكن لم يكن كل الناس زناة، كما أن العفة والزواج النظيف كان موجودا، ولكن لم يكن كل الأشخاص أعفاء ومتزوجين، ولما جاء الإسلام حرم الزنا والمخادنة والاستبضاع، وترك الزواج الفطري المتعارف عليه، وثمَّة فتى لمّا علم بحرمة الزنا جاء يترخص الرسول [صلى الله عليه وسلم] في الزنا كقضية استثنائية؛ لأنه رأى أن الاستثناءات في الأحكام موجودة في الإسلام، وهذه القصة التي جاءت في أسلوب جدليٍّ لطيف، رواها أبو أمامة فقال[١٠] «إن فتى من الأنصار أتى النبي [صلى الله عليه وسلم] فقال: يارسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال: ادْنُه، فدنا منه قريبا، قال فجلس.

قال: أتحبه لأمك؟

قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم.

قال: أفتحبه لابنتك؟

قال: لا والله يارسول الله، جعلني الله فداءك.

قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم.

قال: أفتحبه لأختك؟

قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم.

قال: أفتحبه لعمتك؟

قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم.

قال: أفتحبه لخالتك؟

قال: لا والله ، جعلني الله فداءك.

قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم.

قال: فوضع يده عليه قال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء».

لم يكن الفتى ليلتفت إلى الزنا بعد هذا الجدل الهادف الهادئ؛ لأن الرسول [صلى الله عليه وسلم] عندما قال له أول الأمر: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم كأنه قال للفتى حيث أنك لا تحبه لأمك، فالناس أيضا لا يحبونه لأمهاتهم، وإذا كان ذلك كذلك فكيف آذن لك به، وكيف ترضاه لنفسك، لأن المزني بها هي لشخص آخر أمٌّ، أو بنت، أو أخت، أو عمة، أو خالة أو مَحْرم من محارمه. ولما غلب على أمر الفتى بالاحتكام إلى العقل، واقتنع بالجدل المنطقي الذي ليس

فيه سباب، ولا إهانة ولا إزعاج؛ علم بأن الزنا ليس من المروءة بمكان، ولمّا علم الرسول {صلى الله عليه وسلم} بشهامة الفتى وغيرته على حريمه، تحقق بأنه ليس بديوث؛ لأنه لم يرض الفساد لمحارمه، وحينذاك دعا له بالمغفرة والطهارة والحصانة، فصادف الدعاء استعداد الفتى لذلك، وقبل الله الدعاء، وكانت النتيجة العفة عن المحرمات.

وفي هذا الحديث تربية فاعلة، تفيد في التربية والتعليم معا، لما فيها من التدرج في الجدال من الأقرب الحميم التي هي: الأم أو البنت، إلى الأوسط المحترم التي هي الأخت، إلى ما بعده، وهي العمة والخالة، وكأنه {صلى الله عليه وسلم} يقول له: هذا الذى تطلب الرخصة فيه، فإنك بشهادتك هذه لا ترضاه لنفسك، فكيف ترضاه لغيرك؟

٢ ـ نزعه عرق:

من شهامة المرء الغيرة على حريمه، فلا يرضى أن تصاب محارمه بأذى في عرض أو جسم، والغيرة شعبة من شعب الإيمان، لكن الشك في عفة الحريم من دون سلطان بيِّن ، قد يؤدي بصاحبه إذا جهر به إلى اللعان، وحل العصمة الزوجية إلى الأبد، إذا كان القذف مُنصبا على الزوجة، أما إذا كان القذف موجها إلى غير الزوجة، فالجزاء هو حد الفرية ثمانين جلدة، قال الله تعالى[١١]: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم، والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين}.

وفي الحديث الموالي غيرة وشكٌّ من رجل لم يفصح بالقذف، وبعد جدال منطقي اقتنع المرتاب، ورجع إلى زوجته مرتاح الضمير. وفي الحديث النبوي عن سيدنا أبي هريرة ـ رضي الله عنه[١٢] ـ أن رجلا أتى النبي {صلى الله عليه وسلم} فقال يارسول الله، إن امرأتي ولدت غلاما أسود.

فقال: هل لك من إبل.

قال: نعم.

قال: فما ألوانها؟

قال: رمك.

قال النبي {صلى الله عليه وسلم} أربَّما جاءت بالبعير الأورق؟

قال: يارسول الله نعم.

قال: فأين ترى ذلك؟

قال: أراه نَزَعَه عرْق.

فقال النبي {صلى الله عليه وسلم} وهذا نزعه عرق.

هذا الرجل الذي استنكر بقلبه ولده، وهو ضمضم بن قتادة، والسبب في الاستنكار هو اختلاف الألوان بين الأب والولد، فالأب السائل كان أبيض، والولد وُلد أسود. ولما قال للرسول {صلى الله عليه وسلم} «إن امرأتي ولدت غلاما أسود» علم قصده وإن لم يصرح بشيء، لا قذفا ولا تهمة، وبدلا من أن يقول له الرسول {صلى الله عليه وسلم} لأول وهلة: قد يأتي الولد مخالفا لأبيه في اللون من دون برهان، استدرجه بأربعة استفهامات من محيط بيئته التي يعيش بين جنباتها، من الإبل الرمادية اللون التي تلد أحيانا البعير الأسود، ولما اعترف السائل بأن

هذا الاختلاف في اللون موجود في الإبل، بسبب وجود هذا اللون في الأصول البعيدة لهذا البعير، أقره الرسول {صلى الله عليه وسلم} على هذا العلم، ونبهه إلى أن الغلام الأسود الذي استنكره هو الآخر نزعه عرق، وجاء أسود؛ لأن شخصا ما من أجداده الأبعدين كان يحمل هذا اللون. وهنا اقتنع السائل وقرت عينه بولده، ورجع معترفا بولده، مبرئا ساحة زوجته، كان ذلك بفضل الجدل النبوي المنطقي الهادئ.

٣ ـ الاستئذان في الدخول على الأم:

كل عاقل يعلم بأنه من اللياقة والأدب، الاستئذان في الدخول على الناس في بيوتاتهم، ولكن قد يغفل المرء أحيانا فيظن الاستئذان خاصا بالأباعد، أما المحارم والأقارب فلا داعي للإعلام بالدخول عليهم، وهذا موضع الحديث الآتي.

عن عطاء بن يسار أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} سأله رجل[١٣]:

فقال: يارسول الله أستأذن على أمي؟

فقال: نعم.

قال الرجل: إني معها في البيت.

فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} استأذن عليها.

فقال الرجل: إني خادمها.

فقال له رسول الله {صلى الله عليه وسلم} استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة؟

قال: لا.

قال: فاستأذن عليها.

تكرر السؤال من الرجل ثلاث مرات، من أجل توضيح مقامه من أمه، إنه ابنها، ويسكن معها، ثم هو مع هذا وذاك خادمها تحتاج إليه في كل حين، ولم يكن الرجل يسأل أو يجادل حبًّا في الجدل، أو معاندا للحق، إنما كان يريد أن يظهر مقامه من أمه، من كونه ابنها ويسكن معها ويخدمها.

وقد تكرر الجواب من رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بوجوب الاستئذان على الأم في المرتين الأوليين، بدون ذكر علة الاستئذان، وفي المرة الثالثة أظهر سبب الاستئذان على شكل استفهام: أتحب أن تراها عريانة؟ وهنا تجلت التربية النبوية في هذا السؤال المحرج المخجل، ووقع الاقتناع.

والاستئذان كما يجب على الأم يجب على ذوات المحارم كلهن: البنت، الأخت، العمة، الخالة، الجدة، بنت الأخ، بنت الأخت، وهكذا لأن العلة واحدة. أما الزوجة أو الأَمَة التي يحل النظر إلى عورتها، فلزوجها أو سيدها الدخول عليها بدون استئذان.

والجدل النبوي هنا أفاد السائل إفادة تربوية أخلاقية عظمى، وأحدث في نفسه مروءة وأدبا مع أُمِّه؛ إذ الانسان مهما كان حميما أو قريبا أو صديقا يكره أن تُرى سوءته، وما سميت العورة سوءة إلا لأنه يسوء المرء اكتشافها.

٥ ـ مع كل إنسان شيطان:

علمُ الناس بوجود الشيطان قديم، يرجع إلى زمن خلق أبينا السيد آدم عليه الصلاة والسلام، ولكن كون الشيطان موجودا مع كل إنسان، هذا هو الذي يجهله كثير من الناس، ولذا تعجبت السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ واستفهمت لما قال لها رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «أقد جاءك شيطانك»؟

وفي الحديث عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت[١٤]: «خرج النبي {صلى الله عليه وسلم} من عندي ليلا فغرتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع.

فقال: مالك يا عائشة أغرت؟

قلت: وما لي لايغار مثلي على مثلك؟

فقال: أقد جاءك شيطانك.

قلت: يارسول الله أو معي شيطان؟

قال: نعم.

قلت: ومع كل إنسان؟

قال: نعم.

قلت: ومعك يارسول الله؟

قال: نعم ولكن ربي أعانني حتى أسلم.

وقع بين السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وبين رسول الله {صلى الله عليه وسلم} استفسار، بسبب ما شاهده الرسول من اضطراب وقلق عند السيدة عائشة، فسألها الرسول {صلى الله عليه وسلم} عن قلقها، وهل نشأ ذلك عن غيرة؟ فأجابت باستفهام: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ ولكن الرسول {صلى الله عليه وسلم} لم يُقرها على ما فعلت، ولمح في سؤاله إلى أن ما عملته قد يكون من وسوسة الشيطان، وهنا اغتنمت السيدة عائشة الفرصة؛ لتسأل عن كون الشيطان موجودا معها ومع كل الناس؟ ثم تجرأت وسألت - قصد الإفادة - مرة أخرى عن إمكان وجود الشيطان مع الرسول {صلى الله عليه وسلم} نفسه أيضا، فأجابها نعم، ولكن الله أعانني عليه حتى أسلم (بضم الميم) من شره، وروي حتى أسلم (بفتح الميم) أي حتى أضحى شيطاني مسلما فلا يوسوس لي بشر. وهنا ينقطع الجدل، وتستسلم الزوجة الطاهرة راضية مرضية اقتناعا بالأمر الواقع.

٦ - إنما الجهاد للدين:

الجهاد أنواع: جهاد للدعوة الإسلامية، جهاد للغنيمة، جهاد السمعة، جهاد للرياء، وفي الحديث[١٥]: «جاء رجل إلى النبي {صلى الله عليه وسلم} فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». إذاً الأنواع الثلاثة المسؤول عنها كلها باطلة ولا تسمى جهادا، وبقي الجهاد الخالص لوجه الله الذي لا يراد منه إلا نصر الإسلام، ولكن هناك نوع آخر من القتال غمض شأنه على بعض الصحابة، فسأل عنه الصحابي مقداد بن الأسود - رضي الله عنه - فقال[١٦]: «قلت يارسول الله، أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فقاتلني، فضرب إحدى يدي بالسيف، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله، أفأقاتله يارسول الله بعد أن قالها؟

قال: لا تقتله.

فقلت: يارسول الله إنه قطع يدي.

قال: لا تقتله ، فإن قتلته ، فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال: «الصحابي مقداد سأل رسول الله {صلى الله عليه وسلم} عن قضية خطيرة، كافرٌ محارب يقطع يد مسلم، ثم يعلن الإسلام بعد اليأس من النجاة، ويجيبه الرسول {صلى الله عليه وسلم} بعدم شرعية القتل؛ لأنه أعلن الإسلام، ولكن السيد مقداد يتعجب من هذا الأمر، فيجادل للتأكد من فهم الفتوى فيقول، إن الكافر كان محاربا، وقد قاتلني فقطع يدي فعلا، ويجيبه الرسول {صلى الله عليه وسلم} بما معناه إن قتلته بعد إسلامه صار دمك مباحا بالقصاص، كما أن دم الكافر مباح بحق الدين، فوجه الشبه إباحة الدم وإن كان الموجب مختلفا؛ لأن الشارع - عليه الصلاة والسلام - ليس له غرض في إزهاق الروح، بل في الهداية والإرشاد، فإن تعذرت بكل سبيل تعيّن إزهاق الروح، لزوال مفسدة الكفر من الوجود.

والتربية في هذا الحديث أن الجهاد أو التأديب لا يكون لغرض الانتقام والتشفي، ولا

للعصبية والحمية، ولا لنيل شيء من متاع الدنيا: مسؤولية كانت أو مالا، والشخص بمجرد نطقه بالشهادتين هو أخ مسلم، لا يُقتل ولا يُخذل، وله ما للمسلمين من الحقوق وعليه ما على المسلمين من الواجبات.

نماذج أخرى من الحجاج بالمنطق الفطري:

النماذج التي قدمت في الأحاديث السابقة، كان فيها جدال بيْن اثنين، ولكن النماذج التالية ليس فيها جدال ولكنها أحاديث قدمها الرسول {صلى الله عليه وسلم} لسامعيه، بحجة المنطق الفطري والوجداني الذي يملك النفس من قريب ويقنعها حتى لا تجد سبيلا لإطالة اللجاج.

١ - حديث الفطرة:

عن الصحابي أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[١٧]: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ثم يقول: اقرأوا[١٨]: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» فأبواه يُهوِّدانه، أو ينصرانه، أو يُمجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها، قالوا يارسول الله، أفرأيت من يموت صغيرا؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين».

في هذا الحديث يأخذ البيان قضية الفطرة من القرآن الكريم، فطرة الله التي فطر الناس عليها، فالمولود يولد سليم الفطرة، مهيأ لما يلقن له من خير أو شر، فينقله أبواه إلى دينهما؛ بما يبثان في قلبه من ألوان العقيدة والسلوك، مثله مثل البهيمة التي تولد مستجمعة الخلق، سليمة القرون، كاملة الأعضاء، فيتناولها صاحبها بالجدع أو الوسم فيغير ويشوه ما كان بريئا من العيب، وبهذا الاستفهام التقريري يكون الجواب تصديقا وإذعانا ملزما بالاقتناع.

٢ - جمرة الغضب:

روى أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - حديثا للرسول {صلى الله عليه وسلم} هذا طرف منه[١٩]: «ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن أحسّ بشيء من ذلك فليلصق بالأرض». المؤمن الحق لا يحتاج إلي دليل من الرسول {صلى الله عليه وسلم} لأنه الصادق الأمين، ولكن الرسول {صلى الله عليه وسلم} يعطي الدليل أحيانا لمخاطبيه من دون طلب؛ حتى يقتنع عقله بعد ما كان قد اطمأن قلبه. وليعلمهم - كيفية تبيين الدعوة الإسلامية - بالأدلة والبراهين المقبولة. ولهذا وبعد ما قدم التشبيه البليغ الذي صيّر فيه الغضب جمرة محرقة، أقام دليلا منطقيا محسوسا، وهو احمرار العينين، وانتفاخ الودجين. وأرشد إلى علاج هذا الغضب القاتل الذي لا ينشأ عنه إلا الفساد، بالجلوس إلى الأرض «فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض»، فالجلوس يقلِّل من الهيجان والاضطجاع يذهبه، وفي حديث الصحابي أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه[٢٠]: «أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع.

٣ - غض البصر:

عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت[٢١] كنت عند رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وعنده ميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم، وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب، فقال النبي {صلى الله عليه وسلم} احتجبا منه، فقلنا يارسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال النبي {صلى الله عليه وسلم} أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه»؟.

الشرع الإسلامي أمر بغض البصر عن الأجنبي والأجنبية، قال الله تعالى[٢٢]: {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم}.. وقال[٢٣]: {وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن}. ولكن لمّا دخل الصحابي ابن أم مكتوم على زَوْجَتَي الرسول {صلى الله عليه وسلم} لم تحتجبا منه، بعد نزول آية الحجاب التي تقول[٢٤]: {وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب}. فأمرهما الرسول {صلى الله عليه وسلم} بالاحتجاب، فأجابتا بأن الداخل عليهن أعمى لا يبصر، ولا يعرف الزوجتين الطاهرتين، فنبههما الرسول {صلى الله عليه وسلم} إلى ما غفلتا عنه، وهو أن الله تعالى لمّا أمر بغض البصر، أمر الرجل والمرأة معا، وهذا التنبيه والارشاد جاء عن طريق الاستفهام «أفعمياوان أنتما»؟ «ألستما تبصرانه»؟ الحجة جاءت منطقية لا تقبل اللجاج، ولا تسمح به، واقتنع العقل السليم بهما، بعد ما ثلج الصدر لذلك، إنه المنطق السليم الشافي، والأدب الرباني، الذي تلقاه رسول الله {صلى الله عليه وسلم} من ربه، وأصبح له سلوكا عمليا بين المؤمنين. وتأثر به الصحابة رضوان الله عليهم فمشوا على منهجه القويم.

خلاصة أثر الجدل في التربية:

أول ما يلفت الانتباه في الجدل هو:

- أن التربية فيه تؤخذ عن اقتناع وارتياح.
- إما لكون الجدل فيها جاء عن حسن تسلسل الاستفهامات، وتعددها وترقيها.
- وإما لكون الحجاج فيها جاء بحجة المنطق الفطري والوجداني، الذي يملك النفس من قريب ويقنعها، فلا تستطيع اللجاج وتستسلم للحق.

وأحسن دليل على أثر الجدل في التربية وإفادته، ما وجد في تلك النماذج المعروضة آنفا: إسلام الحصين، وإسلام خبيب، عفة الفتى عن الزنى، اعتراف المتشكك بولده الأسود، وتبرئة ساحة زوجته، رضى الولد البار بالاستئذان على أمه، الاقتناع بفطرة المواليد، ضرر الغضب ومعالجته، غض البصر عن الأجانب حتى ولو كان المنظور إليهم عُمْياً، لقد استسلم الصحابة - رضوان الله عليهم - في كل ما ذكر، لواقع الأمر المنطقي، الذي يُثلج الصدر، ويريح الضمير، ويطمئن إليه القلب السليم.

الهوامش:

(١) حسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات مطبعة الحلبي/١٣٨١ مادة جدل.

(٢) محمد بن عمر الزمخشري، اساس البلاغة، بدون ذكر المطبعة ولا تاريخ الطبع.

(٣) محمد التومي، الجدل في القرآن الكريم، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس/ ١٤٠٠ هج صفحة ٠٧.

(٤) سورة الكهف، الآية/ ٥٦.

(٥) سورة غافر، الآية/ ٥٦.

(٦) سورة الزخرف، الآية/ ٢٢.

(٧) ابن حجر، الإصابة، مطبعة محمد مصطفى، مصر/ ١٣٥٨ هج الجزء ١ ص ٣٣٧.

(٨) سورة البقرة الآية/ ١٨٩.

(٩) سليمان بن عمر الشهير بالجمل، الفتوحات الإلاهية، المكتبة التجارية الكبرى، بدون تاريخ، الجزء الأول، صفحة ١٥٢.

(١٠) ابن حنبل، المسند، الجزء الخامس، صفحة ٢٥٧.

(١١) سورة النور، الآيات/ ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩.

(١٢) الإمام أحمد المسند، الجزء الثاني، صفحة ٤٠٩، البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، الباب ٢٥.

(١٣) الإمام مالك، الموطأ، كتاب الجامع، باب الاستئذان، الحديث الأول.

(١٤) الشيخ منصور علي ناصف، التاج الجامع للأصول، الجزء الخامس، صفحة ٢٣٣، والحديث رواه الإمام مسلم.

(١٥) الامام البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، الباب ١٥.

(١٦) الإمام البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، الباب ١٢.

(١٧) الإمام البخاري، الصحيح، كتاب القدر، الباب ٠٣ وكذا الإمام مسلم، الصحيح، كتاب القدر، الحديث ٢٤.

(١٨) سورة الروم، الآية ٣٠.

(١٩) الإمام الترمذي، الجامع، كتاب الفتن، الباب ٢٦، وكذا ابن حنبل، المسند، الجزء الثالث صفحة ١٩ ـ ٦١١.

(٢٠) الحافظ المنذري، الترغيب والترهيب، الجزء الرابع، صفحة ٢٢٩. وقال رواه أبو داود، وابن حبان في صحيحه.

(٢١) محمد بن علاء الصديقي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين للإمام النووي، باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية، مطبعة الحلبي، مصر، بدون تاريخ الطبع، الجزء الرابع، صفحة ٤٧٨.

(٢٢) سورة النور، الآية ٣٠.

(٢٣) نفس المصدر السابق، الآية ٣١.

(٢٤) سورة الأحزاب، الآية ٥٣.



أحس رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بوعكة المرض الذي ألمّ به في اواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة وجعلت الآلام تشتد وطأتها عليه يوماً بعد يوم، وتمكنت الحمى منه، وتصعدت حرارتها في سائر أعضائه حتى أن عمر بن الخطاب دخل عليه وهو محموم، فوضع يده عليه فقبضها من شدة الحر، وبدأت قواه تتلاشى شيئاً فشيئاً حتى حل الاجل ووقع المحتوم يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول.

رثاء المصطفى في الشعر

محمد جمعة العودات - الاردن -

ولحق بجوار من اختاره واصطفاه، وتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون وفزع المؤمنون لهذا النبأ، وأظلمت آفاق المدينة، وكادت تزيغ أبصار من فيها من المؤمنين، وافقد الهلع كثيراً من المسلمين وعيهم، فلا يدرون ماذا يفعلون، فدخلوا على النبي عليه الصلاة والسلام في بيت عائشة، ينظرون اليه فقالوا: كيف يموت وهو شهيد علينا ونحن شهداء على الناس، فيموت ولم يظهر على الناس؟ لا والله ما مات، ولكنه رُفع كما رُفع عيسى بن مريم، وليرجعن. وتوعدوا من قال أنه مات، ونادوا في حجرة عائشة وعلى الباب: لا تدفنوه؛ فإن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لم يمت.

وأقبل أبو بكر فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل بيت عائشة فيمم رسول الله وهو مسجي ببرده، فكشف الثوب عن وجهه، فاسترجع، فقال: مات رسول الله. ثم تَحَوَّل من قبل رأسه فقال: وانبياه، ثم حدّر فمه فقبل جبهته، ثم سجاه.

ثم خرج الى الناس في المسجد، وقام فيهم خطيباً فأقبل الناس اليه، ثم قال: اما بعد: فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تبارك وتعالى: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عَقِبَيْه فلن يَضُرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين}. فلما تلاها ابو بكر أيقن الناس بموت النبي {صلى الله عليه وسلم} حتى قال قائل من الناس: فو الله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها أبو بكر، فإنما هي في أفواههم.

وعم الناس الحزن ولَفَّهُم الأسى، فضجت اجواء المدينة بالنشيج والبكاء، وارتفعت اصوات الشعراء في أرجاء المعمورة، معبرة عن مشاعر أصحابها الحزينة، مفصحة عن لوعة أفئدتهم. وقد وردت إلينا صور كثيرة من هذه الاشعار الباكية الحزينة.

والشعر الذي بين أيدينا من مراثي الرسول يجمع بين شعر العاطفة الخاصة، المعبرة عن شعور الشخص، وبين شعر الرثاء العام، المعبر عن عظم المصيبة في فقده، وخسارة الامة بفراقه.

وخير ما يمثل النوع الاول قصيدة السيدة فاطمة، فهي تقطر أسى وحزناً، وتنفجر عاطفة ولوعة، فكل بيت فيها يقطر دمعاً بل دماً، فالحزن يجري في قلبها وفؤادها، ويتمثل في حركاتها وسكناتها بل في كل بيت من أبيات قصيدتها:

قد كنت ذا حمية ما عشت لي
أمشي البراح وكنت أنت جناحي
فاليوم اخضع للضعيف وأتقي
منه وأدفع ظالمي بالراح
يارب صبرني على ما حل بي
مات النبي وانطفا مصباحي

* وقد حاول بعض الشعراء عبثاً تسليتها

وتصبيرها، لعلها تخفف من تلك اللوعة، وتطفيء بعض النيران الملتهبة بين جنبيها، فخاطبتها هند بنت أثاثه بقولها:

أفاطم فاصبري فلقد أصابت
مصيبتك التهائم والنجودا
وأهل البر والابحار طراً
فلم تخطىء مصيبته وحيداً

* وقد أحسن حسان في تصوير ما أصابه عند فقد رسول الله، فصور حاله بأنه أصبح بعد فقده وحيداً في صحراء قاحلة يكاد يقتله الظمأ بعد أن كان في ماء ونهر فقال:

يا أفضل الناس إني كنت في نهر
أصبحت منه كمثل المفرد الصادي

* وصور غنيم بن قيس المازني اثر فقد الرسول في نفسه فقال:

ألا لي الويل على محمد
قد كنت في حياته بمقعد
وفي أمان من عدو معتد

* اما الصدِّيق - رضي الله عنه - فقد ضاقت عليه الديار، ووهنت منه العظام، ودفن حبه وبقي منفرداً وهو حسير:

لما رأيت نبينا متجدلا
ضاقت عليَّ بعرضهن الدور
وارتعت روعه مستهام واله
والعظم مني واهن مكسور
أعتيق ويحك إن حبك قد ثوى
وبقيت منفرداً وأنت حسير

* وتفنن الشعراء في النوع الثاني من الرثاء، وهو تبيان أثر فقده على المجتمع والناس، واجادوا في صوره، فأبدت السيدة صفية بنت عبد المطلب تخوفها مما سيحل بالمسلمين من الاضطراب إثر فقده فقالت:

لعمرك ما ابكي النبي لفقده
ولكن لما اخشى من الهرج آتيا

* أما أبو الهيثم بن التبهان فانه كنى عما أصاب المسلمين من ذل لفراقه بقوله:

لقد جدعت اذاننا وانوفنا
غداة فُجِعْنا بالنبي محمد

* وحاول الشعراء أن يشركوا العوالم الطبيعية رزء المصاب، فهي تحس وتتألم لفراقه، فانكسفت الشمس، وخبا البدر، وتزعزعت الآطام، وانهدت الجبال، واقتلعت النخيل كما يقول ابو ذؤيب الهذلي:

كسفت لمصرعه النجوم وبدرها
وتزعزعت اطام بطن الا بطح
وتزعزعت اجبال يثرب كلها
ونخيلها لخطب مفدح

* وفي رثاء السيدة فاطمة شاركت الطبيعة ايضاً فأغبرت آفاق السماء، وكورت الشمس، واظلم النهار، واضطربت الارض:

إغْبَرَّ آفاق السماء وكورت
شمس النهار واظلم العصران
فالارض من بعد النبي كئيبة
أسفاً عليه كثيرة الرجفان

* وشاركت الارض المسلمين في مصيبتهم، فمالت جوانبها ومادت تحت أرجل المسلمين في رثاء ابي سفيان بن الحارث:

لقد عظمت مصيبتنا وجلّت
عشية قيل قَدْ قُبِضَ الرسولُ
واضحت ارضنا مما عراها
تكاد بنا جوانبها تميل

* وأوضحت هذه المراثي ما سوف يتبع فَقْدَ الرسول (صلى الله عليه وسلم) من انقطاع الوحي الذي كان يتنزل على قلبه الشريف، فكعب بن مالك أكد أن فقده يعنى انقطاع الوحي الذي كان يهبط عليه في حياته، وما دام محمد عليه السلام قد انتقل الى الرفيق الاعلى ، فلا امل بعد ذلك اليوم في هذا النور الذي كان يعم الكون ويشمل العالمين:

ألا أنعي النبي إلى من هدى
من الجن ليلة اذ تسمعونا
لفقد النبي إمام الهدى
وفقد الملائكه المنزلينا

* واتى حسان على هذا المعنى بعد أن مَهّد له بالحديث عن فداحة الرزء وعظم المصيبة، فقال:

وهل عدلت يوماً رزية هالك
رزية يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحي عنهم
وقد كان ذا نور يغور وينجد

* وتطرق ابو سفيان بن الحارث الى هذا المعنى في مرثيته ايضاً فقال:

فــقــدنا الوحي والتنزيل فــينا
يروح به ويغــدو جــبــرئيل

* وتعديد الخصال وتسجيل المناقب من السبل التي سلكها معظم من رثى رسول الله [صلى الله عليه وسلم] فذكروا مناقبه، وعددوا فضائله، ونشروا محامده، وهو ما يسمى بالتأبين، ولكن جميع هؤلاء الشعراء تحدثوا بسيرة جديدة لم تكن تعرفها الجاهلية فيها المجد والتقوى والايمان، وفيها الخير والبر والوفاء، وبهذه المآثر والمناقب الجديدة كانت فاجعة الاسلام والمسلمين عند فقد الرسول الكريم عليه السلام.

فهذا كعب بن مالك يلح على عينيه ان تبكيا رسول الله بدمع منهمر:

يا عين فــابكي بدمع ذرى
لخــيــر البــرية والمصطفى
على خــيــر من حــملت ناقــه
واتقى البــرية عند التــقى

* وبكت السيدة اروى بنت عبد المطلب فيه البر والرحمة والهدى، فقالت:

ألا يارســول الله كنت رجــاءنا
وكنت بنا براً ولم تك جــافــيــا
وكنت بنا رؤوفــا رحــيــمــا نبــينا
لبــيك عليك اليوم من كــان باكــيــا

* وحسان اكثر الشعراء ايثاراً لهذه الطريقه، فقد اطال في عرض شمائله الكريمة وخصاله الحميدة:

إمــام لهم يهــديهم الحق جــاهداً
مــعلم صدق ان يطيعــوه يسعــدوا
عــفــو عن الزلات يقــبل عــذرهم
وان يحــسنوا فــالله بالخيــر اجــود
ومــا فــقــد الماضــون مــثل مــحــمــد
ولا مــثله حــتى القــيــامــة يفــقــد

* واستعان شعراء هذه المراثي في رثائهم للرسول بالبكاء، فطالما طلبوا الى اعينهم ان تنجدهم بالدموع، والى مآقيهم ان تسعفهم بالبكاء، فنثروا الدموع الغزار.

* واستهلت هند بنت اثاثه مرثيتها بقولها:

الا يــا عــين بكــي لا تمــلــي
فــقــد بكر النعي بمن هويت

* ولم يكتف الشعراء بما صبت أعينهم من دموع، وما تفجر في مآقي المسلمين من بكاء، وانما حاولوا ان يشركوا جميع الكائنات والموجودات معهم في البكاء، فهذا حسان بن ثابت يذكر بكاء السماء والارض فيقول:

يبكون من تبكي السمــوات يومــه
ومن قــد بكتــه الارض فــالناس اكمــد

* واشرك عامر بن الطفيل الارض والسماء في البكاء ايضاً فقال:

بكت الارض والســمــاء على النور
الذي كــان للعــبــاد ســراجــاً
من هــدينا بــه الى ســبــيل الحق
وكنا لا نعــرف المنهــاجــاً

* واشرك مروان بن ذي عمير الهمداني جبريل مع الارض والسماء فقال:

إن حــزني على الرســول طويل
ذاك مني على الرســول قليل
بكت الارض والســمــاء عليــه
وبكاه خــديمهُ جــبــريل

* وحاول الشعراء من خلال هذا الرثاء تأكيد هدايته لهم وانه مصدر النور والاشراق، فشبهوه بالضياء تارة، وبالبدر المتلألئ حينا، وبالسراج الوهاج حينا آخر.

فهذه هند بنت أثاثة تذكر هذه الاوصاف في رثائها فتقول:

قــد كنت بدراً ونوراً يســتــضــاء به
عليك تنزل من ذي العــزة الكتب

* وأكدت السيدة صفية هذه الاوصاف فشبهته بالسراج المنير:

وســراجــاً يجلو الظلام منيــراً
ونبــيــاً مــســدداً عــربيــاً

* ولم ينس من رثى رسول الله من الشعراء، أن يخصوا نبيهم بالدعاء والصلاة والتبريك والتسليم خلال رثائهم له.

فحسان يتوجه الى الله سبحانه أن يصلي وملائكته والطيبون على حبيبه فيقول:

صلى الإله ومن يحف بعــرشــه
والطيــبــون على المبــارك أحــمــد

* وتدعو له أروى بنت عبد المطلب بالسلام والجنان:

عليك من الله الســلام تحــيــة
وادخلت جنات من العــدن راضــيــاً

* وخصه عبد الله بن سلمه الهمداني بالسلام كلما

هبت الريح وأزال النور الظلام، فقال:

فعليه السلام ما هبت الريح
ومدت جنح الظلام نوار

* وسلكت السيدة صفية هذه الطريقة فبلغته سلامها وسلام ربه كل بكرة وعشاء فقالت:

فعليك السلام منا ومن ربك
بالروح بكرة وعشيا

* واستنزلت عليه رحمة الله وسلامه، وحسن ثوابه فقالت:

رحمة الله والسلام عليه
وجزاه المليك حسن الثواب

* وترضت عنه في الدنيا والآخرة ودعت له بالجنان الخالدات فقالت:

رضي الله عنه حياً وميتاً
وجزاه الجنان يوم الخلود

* وتمنى هؤلاء الشعراء أن يفدوا رسول الله بكل ما يملكون، بأنفسهم وأهليهم والمسلمين، فقالت السيدة صفية:

ليت يومي يكون قبلك يوماً
انضج القلب للحرارة كيا

* أما سيدنا أبو بكر فإنه تمنى أن تقوم القيامة بعد فقده، وألا يرى بعده مالا ولا ولداً فقال:

ليت القيامة قامت بعد مهلكه
ولا نرى بعده مالا ولا ولداً
نفسي فداؤك من ميت ومن بدن
ما أطيب الذكر والاخلاق والجسدا

* وتمنى في مرثية أخرى أن لو غيب من قبل أن يروع بفقد صاحبه عليه الصلاة والسلام:

ياليتني من قبل مهلك صاحبي
غيبت في جدث عليَّ صخور

* وتمنت السيدة فاطمة لو صادفت الموت قبل أن يصل إليها نعي الرسول وغيبته الكثبان فقالت:

فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نعيت وحالت دونك الكثب

* وأخيرا فما دام الموت حقاً ، فلا مناص من التسليم لله سبحانه، والرضا بقضائه في رسوله، ولكن أنّى للمسلمين أن يطيقوا فراق ربيع قلوبهم ومن تغلغل حبه في كل ذرة من أجسادهم، أنّى لهم أن يصبروا عن النور الذي غمر أفئدتهم والسعادة التى ملأت عقولهم.

إن لقاءه أصبح حلم كل شاعر، ومصاحبته أمل كل مسلم ومسلمة، فتمنوا أن يجمعهم الله به يوم القيامة، ليسعدوا بجواره، ويأنسوا بقربه فقال حسان:

يارب فاجمعنا معاً ونبينا
في جنة تثني عيون الحسد
في جنة الفردوس فاكتبها لنا
ياذا الجلال وذا العلا والسؤدد

* ولم يتمن ابو بكر الصديق الموت الا ليكون مع الحبيب المهتدي عليه السلام:

فكيف الحياة لفقد الحبيب
وزين المعاشر في المشهد
فليت الممات لنا كلنا
وكنا جميعاً مع المهتدي

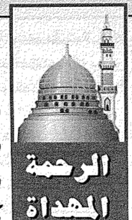
وأخيرا نود أن نسجل بعض الملاحظات على هذه المراثي، وهي:

(١) شيوع المقطوعات التي قد تهبط احياناً الى البيت الواحد، وربما يكون مرد ذلك الى أن كثيرا من شعر هذه المراثي قد امتدت اليه يد الضياع، والا فليس من الممكن أن يرثي شاعر رسول الله ببيت واحد، أو بيتين فقط.

(٢) مساهمة المرأة المسلمة بالقسط الاكبر والنصيب الاوفر من هذه المراثي، ونحن لا نستكثر ذلك على المرأة المسلمة، فمعروف أن المرأة أدق حساً وأرق شعوراً من الرجل في مثل هذه الاحداث والمناسبات وكتاب ـ مراثي شواعر العرب ـ يصور مدى ما قدمت المرأة العربية في هذا الميدان.

(٣) انفراد بعض المصادر المتأخرة بإيراد بعض هذه المراثي، مثل الذخائر والاعلاق الباهلي ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب، مما جعلنا متيقنين بأن هذه الكتب اخذت عن مصادر لم تصل الينا، ولو وصلت لقدمت لنا ثروة شعرية كبيرة، في هذا الباب وغيره.

(٤) إغفال الطبري لجميع هذه المراثي مع توسعه في أخبار الرسول [صلى الله عليه وسلم] ، وايراده الشعر المناسب لجميع الاحداث التاريخية، وقد تابعه في ذلك ابن الاثير في الكامل، بينما اقتصر ابن هشام في سيرته على مراثي حسان فقط.



لم يترك المصنفون والباحثون قديماً أو حديثاً جانباً من جوانب سيرة الهادي {صلى الله عليه وسلم} إلا وكتبوا عنه وبحثوا فيه، فقد كتب الكثير عن مولده {صلى الله عليه وسلم} ونسبه، ودلائل نبوته، وسيرته، وأفعاله، وأخلاقه ومناقبه، وشمائله، وأحكامه، وأقضيته، وتفسيره، وجوامع كلمه، ومعجزاته، وما مُدح به، وغير ذلك[١].

المزاح في حياة الرسول

{صلى الله عليه وسلم}

إياد فرعون ـ سوريا ـ

ورغم ثراء مكتبة السيرة وغناها بالمؤلفات والدراسات التي غطت أدق تفاصيل حياته {صلى الله عليه وسلم} فإن هناك جانباً أحسب أنَّه لم يأخذ حقه من الدراسة والبحث، وأعني به المزاح في حياة الرسول {صلى الله عليه وسلم} فلطالما تساءلت: هل كان الرسول {صلى الله عليه وسلم} يمزح مع أصحابه؟ وهل كان يتقبل مزاحهم ودعابتهم؟ وكيف كان هَدْيُهُ في ذلك اللون من ألوان السلوك الاجتماعي؟.

الرسول {صلى الله عليه وسلم} والمزاح:

لم يكن الضحك والمزاح من الأمور المستهجنة أو المذمومة عند العرب، بل كانوا على العكس من ذلك فهم أكثر الشعوب شغفاً بالضحك والفكاهة، وقد انعكس هذا الشغف على لغتهم وآدابهم، إذ كانت العرب ـ كما يقول ابن إسحاق «إذا مدحت رجلا قالت: هو ضحوك السنِّ، بسَّام العَشيات هشٌّ إلى الضيف، وإذا ذمَّته قالت: هو عبوس الوجنة جهم المُحيَّا كريه المنظر»[٢].

وفي الأسماء التي شاعت بين العرب مبرزة المكانة المميزة للضحك نذكر: بسَّام، وضحَّاك، وبشر، وبشير، وفرحان فإذا كان للضحك هذه المنزلة عند عامة العرب فكيف بمن كان معلماً للبشرية وأسوة حسنة في السلوك وقدوة صالحة في الخلق؟

تعقبت هذا الموضوع في كتب السيرة، ولفتت نظري عناية أصحاب السيرة بمزاح الرسول {صلى الله عليه وسلم} حيث أفرد بعضهم أبواباً خاصة لمزاحه {صلى الله عليه وسلم} كما صنع ابن الجوزي في «الوفا

بأحوال المصطفى» والقسطلاني في «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» والحلبي في السيرة الحلبية.

كما لا يخلو كتاب من كتب الأدب من الإشارة إلى بشر الرسول ومزاحه، نذكر من هذه الكتب: نثر الدر للآبي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي.

كما درج مصنفو كتب أدب الفكاهة على تصدير كتبهم بالحديث عن مزاحه {صلى الله عليه وسلم} كما صنع ابن الجوزي في «أخبار الظرّاف والمتماجنين» والحصري في «جمع الجواهر في الملح والنوادر».

ولعلَّ أوَّل من كتب في هذا الموضوع بشيء من التوسع والتفصيل هو محمد الغزي (المتوفى سنة ٩٨٤هـ) حيث ألَّف كتاباً طريفاً جمع فيه كلَّ ما أثر عن الرسول {صلى الله عليه وسلم} من إباحة المزاح والترخيص فيه، وما روي في مزاحه {صلى الله عليه وسلم} مع أصحابه، كما تعرَّض في كتابه هذا الذي عنونه بـ«المُراح في المُزاح» لمزاح بعض الصحابة الذين اشتهروا بالظرف والدعابة، وتعقب أخبار التابعين والعلماء والفقهاء الذين عُرفوا بالمرح وحبِّ الفكاهة[٣].

وتجمع كلُّ تلك الكتب والمؤلفات على حبِّه {صلى الله عليه وسلم} للمزاح وتقبله للدعابة، إذ أنَّ الصورة التي نستخلصها من مجمل تلك الكتابات هي صورة النبي دائم البشر، ضحوك السن الذي «يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويؤنسهم ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره»[٤].

وقد وصفه أصحابه بحبِّ المزاح، فهذا عبد الله بن الحارث يصفه بقوله: «ما رأيت رجلا أكثر مزاحاً من رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[٥]، وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كان النبي {صلى الله عليه وسلم} من أفكه الناس[٦]، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: كانت في النبي {صلى الله عليه وسلم} دعابة[٧].

وقد أثر عنه {صلى الله عليه وسلم} قوله: «روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإنَّ القلوب إذا كلَّت عميت»[٨].

فالدعوة إلى الضحك والمزاح إذن ليست دعوة إلى أمر مستنكر أو مذموم كما قد يعتقد البعض، فهذا رسولنا وقدوتنا {صلى الله عليه وسلم} لم يعرف العبوس والتجهم طريقاً إلى وجهه الشريف، بل كان دائم البشر ضحوك السن، يمازح أصحابه ويداعبهم، يتفكه حيناً، ويطرب للفكاهة حيناً آخر، وفي ذلك حكمة بالغة لمسها الزرقاني عندما قال: «فلو ترك {صلى الله عليه وسلم} الطلاقة والبشاشة ولزم العبوس لأخذ الناس أنفسهم بذلك على ما في مخالفة الغريزة من المشقة والعناء، فمزح {صلى الله عليه وسلم} ليمزحوا»[٩].

ومن هنا فقد ذهب أغلب الفقهاء إلى استحباب المزاح طالما روعيت فيه آدابه وشروطه الشرعية، وقد سُئل سفيان الثوري: المزاح هجنة؟ فقال: بل سنة لقوله {صلى الله عليه وسلم}: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقا»[١٠].

أما ما ورد عن الرسول {صلى الله عليه وسلم} في ذمِّ المزاح والنهي عن المداعبة فقد

حمله الفقهاء على الإفراط والمبالغة حتى في ساعات الجد أو على المزاح المبني على الكذب واختلاق الأمور، أو المزاح الخبيث، والدعابة السمجة التي تجرح النفس، وتخدش الحياء وتورث البغضاء والقطيعة بين البشر، فكل ذلك منهي عنه بلا شك، أما المزاح الذي نعنيه في هذا المقام فهو ذاك اللطيف البريء الذي لا يجرح ولا يؤذي، ولا يتخذ الكذب مطيَّة ووسيلة، مزاحُ ينهل من هدي الرسول {صلى الله عليه وسلم} القائل: «إني لأمزح ولا اقول إلا حقا».

والقائل أيضاً: «إن الله لا يؤاخذ المزَّاح الصادق في مُزاحه»[١١].

ولهذا نجد أن المزاح المروي عنه {صلى الله عليه وسلم} كله من نوع الكناية أو التورية.

ومن ذاك أن امرأة من الأنصار أتت النبي {صلى الله عليه وسلم} فقالت يارسول الله ادعُ الله أن يدخلني الجنة، فقال لها: «أما علمت أن الجنة لا يدخلها عجوز؟» فبكت، وفي رواية فصرخت، فتبسم الرسول {صلى الله عليه وسلم} وقال لها: «لست يومئذ بعجوز، أما قرأت قوله تعالى: «إنَّا أنشأناهنَّ إنشاءاً فجعلناهنَّ أبكاراً، عُرُباً أتراباً»[١٢].

وعن أنس - رضي الله عنه - أن رجلا أتى النبي {صلى الله عليه وسلم} فقال: احملني، فقال له النبي {صلى الله عليه وسلم}: «إني حاملك على ولد الناقة» فقال: يارسول الله ما اصنع بولد الناقة؟ إنَّه لا يحملني فقال الرسول {صلى الله عليه وسلم}: «وهل تلد الابل إلا النوقُ!!»[١٣].

دعابة الرسول {صلى الله عليه وسلم}:

عن أنس - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أحسن الناس خُلُقاً وكان لي أخ يقال له أبو عمير، وكان له نُفر يلعب به، فمات، فدخل النبي {صلى الله عليه وسلم} ذات يوم فرآه حزيناً، فقال: ما شأنه؟ قالوا: مات نُفره، فقال: يا أبا عمير ما فعل النُّفَير؟[١٤].

والنُّفير تصغير نُفر وهو فرخ العصفور.

وعن أنس - رضى الله عنه - أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهراً كان يهدي للنبي {صلى الله عليه وسلم} الهدية من البادية، فيجهزه الرسول {صلى الله عليه وسلم} إذا أراد أن يخرج، فقال النبي {صلى الله عليه وسلم}: «إنَّ زاهراً باديتنا ونحن حاضروه» وكان النبي {صلى الله عليه وسلم} يحبه، وكان رجلا دميماً فمشى {صلى الله عليه وسلم} يوماً إلى السوق فوجده قائماً يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره فقال الرجل: أرسلني، من هذا؟ فالتفت فعرف النبي فجعل لا يألوا ما ألصق ظهره بصدر النبي {صلى الله عليه وسلم} حين عرفه وجعل النبي {صلى الله عليه وسلم} يقول: من يشتري العبد؟ فقال: يارسول الله إذن والله تجدني كاسداً، فقال النبي {صلى الله عليه وسلم}: «لكن عند الله لست بكاسد، أو قال: لكن عند الله أنت غال»[١٥].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: خرجت مع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} في بعض أسفاره وأنا جارية لم احمل اللحم بعد ولم ابْدُن، فقال للناس: تقدموا، فتقدموا، ثم قال: تعاليْ حتى

أسابقك، فسابقته فسبقته فسكت عني، حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس: تقدموا، فتقدموا: فقال لي: تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقني، فجعل يضحك ويقول: «هذه بتلك»[١٦]٠

وعن خوَّاب بن جبير قال: نزلنا مع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} مرَّ الظهران (اسم موضع قرب مكة) فخرجت من خبائي، فإذا نسوة يتحدثن فأعجبنني، فرجعت فأخرجت حلة لي فلبستها، ثم جلست معهنَّ، فخرج رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقال: «أبا عبد الله ما يجلسك إليهن؟» فلما رأيت رسول الله هبته واختلطت، فقلت: يا رسول الله جمل لي شرد، وأنا ابتغي له قيداً، قال: فمضى رسول الله وتبعته، فألقى إليَّ رداءه ودخل الأراك فقضى حاجته وتوضأ، ثم جاء فقال: أبا عبد الله ما فعل شرادُ جملك؟ ثم ارتحلنا، فجعل لا يلحقني في منزل إلا قال لي: «السلام عليك يا أبا عبد الله، ما فعل شرادُ جملك؟»٠

فلما رأيت ذلك تعجلت إلى المدينة واجتنبت المسجد ومجالسة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فلما طال ذلك تحيَّنتُ ساعة خلوة المسجد فخرجت إلى المسجد وقمت أصلي، فخرج رسول الله {صلى الله عليه وسلم} من بعض حُجَره، فجاء فصلى ركعتين خفيفتين، وطوَّلت رجاء أن يذهب عني، فقال: «طوِّل ابا عبد الله ما شئت أن تطوِّل فلست قائماً حتى تنصرف» فقلت في نفسي: والله لاعتذرنَّ إلى رسول الله ولأبرِّئنَّ صدري، فلما انصرفت قال: السلام عليكم أبا عبد الله، ما فعل شرادُ جملك؟ فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت، فقال: «رحمك الله» ثلاثاً ثم لم يعد لشيء مما كان[١٧]٠

الهوامش:

(١) راجع: معجم ما أُلف عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} للدكتور صلاح الدين المنجد لتقف على ثراء مكتبة السيرة النبوية وتنوع مواضيعها٠

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ٦/٣٨١٠

(٣) يذكر الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه «معجم ما ألف عن رسول الله» أسماء ثلاثة كتب أخرى - غير المراح في المُزاح - تبحث في مزاح الرسول {صلى الله عليه وسلم} وهي:

- بيان صفة مزاح النبي {صلى الله عليه وسلم} لعلي بن سلطان القاري٠

- شفاء السقام في نوادره عليه الصلاة والسلام لشعبان بن محمد الآثاري٠

- مزاح النبي للزبير بن بكار٠

لكن هذه الكتب شأن كثير من الكتب والمصنفات الأخرى لم تصل إلينا٠٠ راجع ص ٢١٤ من الكتاب المذكور٠

(٤) القسطلاني: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٢/٣٥٢٠

(٥) ذكره ابن الجوزي في الوفا بأحوال المصطفى ٢/٤٤٥، وقد رواه الترمذي بلفظ «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله {صلى الله عليه وسلم}»٠

(٦) قال العراقي: رواه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس ووجد في بعض نسخ مسند البزار زيادة مع نسائه٠

(٧) الوفا بأحوال المصطفى ٢/٤٤٩٠

(٨) ذكره السيوطي في الجامع الكبير بلفظ: ساعة وساعة وقال: رواه الديلمي عن أنس٠

(٩) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: ٤/٢٧٣٠

(١٠) رواه الطبراني عن ابن عمر باسناد حسن والخطيب عن أنس، وفي رواية عن أبي هريرة أنه قال: قالوا: يارسول الله إنك تداعبنا: قال: «نعم، وإني لا أقول إلا حقا» رواه احمد والترمذي٠

(١١) ذكره ابن الجوزي في الوفا من حديث عائشة: ٢/٤٤٩٠

(١٢) قال الزرقاني: رواه الترمذي وابن الجوزي موصولا عن أنس ، ورواه الحسن مرسلا تارة باسقاط أنس وتارة وصله بذكر أنس، وقد رواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر من حديث عائشة٠

(١٣) رواه أبو داود والترمذي وأحمد والبخاري في الأدب المفرد٠

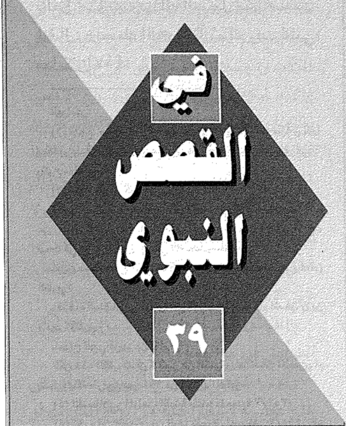
(١٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي٠

(١٥) قال ملا علي القاري في شرح المشكاة: رواه صاحب المصابيح (أي البغوي) في شرح السنة، وكذا الترمذي في الشمائل، وابن حبان وصححه، وزاد الحافظ ابن حجر في الاصابة: الامام أحمد٠

(١٦) رواه النسائي وابن ماجة٠

(١٧) قال العراقي: رواه الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوَّات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات٠

الجنة في القصص النبوي ٣٩



قصور الجنة وغرفها وخيامها:

في اللغة العربية يطلق القصر على البيت الضخم الفخم المبني من الحجارة أو نحوها، ويجمع على قصور، قال تعالى: {تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنّات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا}.

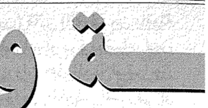
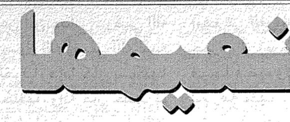
وقصور الجنة أجَلّ وأعظم مما هو في مفهوم اللغة حيث أوضحت السنة مفهوم القصر في الجنة في رواية عن الحسن قال[١]: سألت عمران بن حصين وأبا بكر - رضي الله عنهما - عن تفسير هذه الآية (ومساكن طيِّبة) فقالا: على الخبير سقطت، سألنا عنها رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقال: (قصر من لؤلؤ في الجنة، في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتا من زبرجدة خضراء، في كل بيت سبعون سريرا، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون، على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لونا من الطعام، في كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة، فيعطي الله - تبارك وتعالى - المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله)، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب مع اختلاف فى الرواية وبعض اللفظ.

وحين نقول إن معاجم اللغة تعجز عن الإحاطة بوصف قصور الجنة، فإننا ننظر إلى قول الحق - تبارك وتعالى - {فلا تَعْلَمُ نفس ما أُخفيَ لهم من قُرّة أعْيُن}.

فالقصر بالصفة المتقدمة مما لم تره العيون ولا سمعته الآذان ولا خطر على قلوب البشر، لولا ما جاء في القصص النبوى عن صفات قصور الجنة وغرفها.

نقل القرطبي عن ابن وهب قال: أخبرنا ابن زيد عن أبيه قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[٢]: «إنه ليجاء للرجل الواحد بالقصر من اللؤلؤة الواحدة، في ذلك القصر سبعون غرفة، في كل غرفة زوجة من الحور العين، في كل غرفة سبعون بابا، يدخل عليه من كل باب رائحة من رائحة الجنة سوى الرائحة التى تدخل عليه من الباب الآخر).

وروى الترمذي عن بريد بن الخصيب قال: أصبح رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فدعا بلالا فقال: (يا بلال بما سبقتني إلى الجنة؟ فما دخلت الجنة إلا سمعت خشخشتك أمامي، فأتيت على قصر مربع مشرف من ذهب، فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل عربي فقلت أنا عربي، لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من قريش، قلت أنا قرشي، لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد، قلت: أنا من أمة محمد، قلت: أنا محمد، لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب، فقال بلال: يارسول الله، ما أذنت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابنى حدث إلا توضأت عنده،

ورأيت أن لله ـ تعالى ـ علي ركعتين، فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (بهما) هكذا نقل القرطبي السبق لبلال والقصر لعمر.

ونقل ابن قيم الجوزية[٣] عن الأعمش عن مالك بن الحارث عن مغيث بن سمي قال: إن في الجنة قصورا من ذهب، وقصورا من فضة، وقصورا من لؤلؤ، وقصورا من ياقوت وقصورا من زبرجد. وقال الأعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال: إن أدنى أهل الجنة منزلة من له دار من لؤلؤة واحدة منها غرفها وأبوابها.

وغني عن البيان أن القصر يشتمل على أنواع من الغرف، وقد يطلق الجزء ويراد به الكل كما جاء في قول الله تعالى: (أولئك يُجْزَوْن الغُرْفَةَ بما صبروا).

والغرفة في اللغة: العُلِّيَّة: وهي الحجرة فى الطبقة الثانية من الدار وما فوقها، وتجمع على غُرف، وغرفات، كما فى القرآن الكريم: (وهم فى الغرفات آمنون) وكما قال تعالى: {لكن الذين اتقوا ربهم لهم غُرَفٌ من فوقها غُرَفٌ مَبْنِيَّة}.

يقول ابن قيم الجوزية[٤] فأخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة، لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل، وأنه ليس هناك بناء، بل تتصور النفوس غرفا مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض، حتى كأنها ينظر إليها عيانا، ومبنية صفة للغرف الأولى والثانية، أي لهم منازل مرتفعة، وفوقها منازل أرفع منها.

وقد وصف القصص النبوي غرف الجنة وصفا حقيقيا ودقيقا معجزاً لا يتأتى إلا لنبي معصوم لا ينطق عن الهوى. ولا شك أن هذا البيان، وهذا الوصف الفريد هو توضيح وتفسير لما أجمله القرآن الكريم. وعندما نقف على التعبير البياني الذى جاء فى القصص النبوي، ندرك مدى تأثيره وأثره فى اللغة العربية واعطاء النماذج الأسلوبية والبلاغية لأئمة البيان الذين نهلوا من هذه اللغة الشاعرة.

بقلم:
أ.د. عبد الباسط احمد على حمودة
ـ مصر ـ

ومن ذلك القصص ما رواه الترمذي[٥] عن عبد الرحمن بن اسحاق، عن النعمان بن سعد عن علي قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «إن فى الجنة لغرفا، يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها، فقام أعرابي فقال: يارسول الله لمن هي؟ قال: لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام».

وروى الطبراني عن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (إن فى الجنة غرفا، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام).

وقد تقدم في درجات الجنة قصة رويت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يارسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذى نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين».

وأورد البيهقي قصة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «إن في الجنة لغرفا، فإذا كان ساكنها فيها لم يخف عليه ما خلفها، وإذا كان خلفها لم يخف عليه ما فيها، قيل لمن هي يارسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام، وواصل الصيام، وأطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى والناس نيام، قال: وما طيب الكلام؟ قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ فإنها تأتي يوم القيامة ولها مقدمات ومعقبات. قيل: وما وصال الصيام؟ قال: من صام شهر رمضان، ثم أدرك شهر رمضان فصامه، قيل: وما اطعام الطعام؟ قال: من قات عياله وأطعمهم، قيل: وما إفشاء السلام؟ قال: مصافحة أخيك وتحيته، قيل: وما الصلاة والناس نيام؟ قال: صلاة العشاء الآخرة».

وتوضح قصة نبوية أخرى بعض صفات غرف الجنة. فعن جابر بن عبد الله قال: قال النبي {صلى الله عليه وسلم}: «ألا أحدثكم بغرف الجنة؟ قال: قلنا : بلى يارسول الله بأبينا أنت وأمنا، قال: إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله، يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، فيها من النعيم واللذات مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، قال: قلنا: يارسول الله لمن هذه الغرف؟ قال: لمن أفشى السلام، وأطعم الطعام وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام، قال: قلنا: يارسول الله ومن يطيق؟ قال: أمتي تطيق ذلك. وسأخبركم عن ذلك، من لقى أخاه فسلم عليه فقد أفشى السلام، ومن أطعم أهله وعياله حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام، ومن صام رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام، فقد أدام الصيام، ومن صلى صلاة العشاء الأخيرة في جماعة، فقد صلى الليل والناس نيام، اليهود والنصارى والمجوس».

ومن القصص النبوي في وصف غرفات الجنة ما نقله القرطبي[٦] عن الترمذى الحكيم عن سهل بن سعد عن النبي {صلى الله عليه وسلم} في قوله - تعالى: (أولئك يجْزَوْنَ الغرفة بما صبروا) وقوله: (وهم في الغرفات آمنون) قال: (الغرفة من ياقوتة حمراء، أو زبرجدة خضراء، أو درة بيضاء، ليس فيها فصم ولا وصل، وإن أهل الجنة ليتراءون الغرفة منها كما تتراءون الكوكب الشرقي أو الغربي فى أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما).

وفى قصة مروية عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (إن المتحابين في الله - تعالى - لعلى عمود من ياقوته حمراء، في رأس العمود سبعون ألف غرفة، يضيء حُسْنهم أهل الجنة كما تضيء الشمس أهل الدنيا، يقول أهل الجنة بعضهم لبعض: انطلقوا بنا حتى ننظر إلى المتحابين في الله - عز وجل - فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم أهل الجنة كما تُضيء الشمس أهل الدنيا، عليهم ثياب خضر من سندس، مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون في الله - عز وجل -).

وينقل القرطبي[٧] عن صاحب عيون الأخبار قصة مرفوعة عن علي، رضي الله عنه، تصف حال المتقين منذ خروجهم من قبورهم حتى دخولهم الجنة. جاء فيها: (فينطلق بهم إلى قصور من فضة، شرفاتها من ذهب، يرى ظاهرها من باطنها من النور والرقة والحسن قال: فيقول أولياء الله عند ذلك يارضوان: لمن هذا؟ فيقول: هذا لكم، فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فلولا أن الموت يرفع عن أهل الجنة لمات أكثرهم فرحا، قال ثم يريد أحدهم أن يدخل قصره، فيقول له رضوان: اتبعنى حتى أريك ما أعد الله لك، قال: فيمر به فيريه قصوراً وخياما، وما أعطاه الله، عز وجل، قال: ثم يأتي إلى غرفة من ياقوتة، من أسفلها إلى أعلاها مائة ذراع، قد لونت بجميع الألوان على جنادل الدر والياقوت، وفى الغرفة سرير طوله فرسخ فى عرض مثل ذلك، عليه من الفراش كقدر خمسين غرفة بعضها فوق بعض، قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فذلك قوله - عز وجل: {وفرش مرفوعة} وهى من نور والسرير من نور..}.

وجاء في القصص النبوي عن صفة بيت المؤمن في الجنة بما يزيد من نعيم أهل الجنة وكرم الله لهم في دار الخلد، من ذلك ما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال[٨]: (دار المؤمن في الجنة درة مجوفة، في وسطها شجرة تنبت الحلل ويأخذ بإصبعه، أو قال بإصبعيه سبعين حلة منظمة باللؤلؤ والزبرجد والمرجان) وعنه أيضا: (إن دار المؤمن في الجنة من لؤلؤة فيها أربعون بيتا، في وسطها شجرة تنبت الحلل، فيذهب فيأخذ بأصبعيه سبعين حلة منظمة باللؤلؤ والزبرجد والمرجان).

هذه صورة حقيقية لقصور الجنة ودورها وغرفها، وهي كما قلنا لا تستوعبها معاجم وفقه اللغة، ولا يمكن لخيال البشر أن يقع على هذه الصور، ومن هنا ندرك أثر وتأثير القصص النبوي في الفن الأدبي والفن المعماري لدى المسلمين، وأثر ذلك على الأمم الأخرى التي نقلت عن الحضارات الإسلامية.

وتحدث القصص النبوي عن خيام الجنة. وأصل الخيمة بيت يتخذه الأعراب من الثياب أو عيدان الشجر، وتجمع على خيام وخيمات. وهذا المعنى اللغوي يختلف عما ورد في القرآن الكريم والقصص النبوي، فحين قال الله تعالى: {حور مقصورات في الخيام} عنى بالبيوت المصنوعة من اللؤلؤ المجوف ذات الأبواب الكثيرة والمساحات الواسعة نقل عن أبي الدرداء[٩] (الخيمة لؤلؤة واحدة، لها سبعون بابا كلها من در) وعن ابن عباس: (الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب).

قال ابن قيم الجوزية: وهذه الخيم غير الغرف والقصور، بل هي خيام في البساتين وعلى شواطىء الأنهار. وقال ابن أبي الدنيا حدثنا الحسين بن عبد الرحمن عن أحمد عن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان قال: ينشأ خلق الحور العين إنشاء، فإذا تكامل خلقهن ضربت عليهم الملائكة الخيام.

وجاء في القصص النبوي في الصحيحين[١٠] عن أبي موسى الأشعري، عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «إن للمؤمن في الجنة الخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا» وفي لفظ: «في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن» وفي لفظ آخر (الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون) وللبخاري وحده في لفظ: (طولها ثلاثون ميلا).

وقد تحدث القصص النبوي عن المادة التي بُنيت منها هذه الغرف، والقصور والبيوت فهي: لبنة من فضة ولبنة من ذهب، وملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران وبعض القصور والبيوت والغرف في بعض الجنات: لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء، وحشيشها الزعفران. وبعض البيوت - كبيت خديجة رضي الله عنها، من قصب أو من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت لا صخب فيه ولا نصب، وأرض الجنة مرمرة بيضاء من فضة كأنها مرآة.

سلالم للارتقاء للدرجات:

نعني بالسلالم التي مفردها (سُلَّم) بضم السين وفتح اللام المشددة الوسيلة التي يرتقى عليها، ويسمى معراج، وهي مقسمة إلى درجات مفرد درجة وهي المرقاة من مراقي السلم، وتطلق الدرجة على المنزلة من منازل الرفعة. ويطلق على السلم مصعد وهو ما يوصل من طابق إلى طابق.

وقد سبق الحديث عن القصور والغرف المبنية والدرجات العليا في الجنة والارتفاع الشاهق في الخيام. قال ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: {لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية}: أخبر - عز وجل - عن عباده السعداء، أن لهم غرفا في الجنة، وهي القصور أي الشاهقة طباق فوق طباق، مبنيات محكمات مزخرفات عاليات.

وقد وضح القصص النبوي وفصل في درج الجنة، ففي قصة عن ابن عباس[١١] رضي الله عنه - عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «درج الجنة على عدد آي القرآن، لكل آية درجة، فتلك ستة آلاف ومائتا آية وستة عشر آية، بين كل درجتين مقدار ما بين السماء والأرض، وينتهى به إلى أعلى عليين، لها سبعون ألف ركن، وهي ياقوتة تضيء مسيرة أيام وليالي). وقالت عائشة - رضي الله عنها : (إن عدد آى القرآن على عدد درج الجنة، فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن).

وقد قدمنا في قصص درجات الجنة مجموعة من الروايات، ونزيد هنا في هذا المقام ما ذكره ابن وهب قال: أخبرني عبد الرحمن بن زياد بن أنعم أنه سمع عتبة بن عبيد الضبي يذكر عمن حدثه، أن رجلا أتى النبي {صلى الله عليه وسلم} فقال: يارسول الله، كم في الجنة من درجة؟ قال: (مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أول درجة منها دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومغاليقها من فضة، والدرجة الثانية دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومغاليقها من ذهب، والدرجة الثالثة دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومغاليقها من ياقوت ولؤلؤ وزبرجد، وسبع وتسعون درجة لا يعلم ما هى إلا الله).

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (إن الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم).

وفي القصص النبوي مكانة صاحب القرآن في الآخرة وعلو منزلته في الجنة، حيث يصعد إلى أعلى الدرجات بقدر ما يقرأ ويرتل من القرآن الكريم، ففى قصة خرجها أبو داود عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها).

وعن ابن ماجة عن أبى سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه).

ونقل ابن كثير[١٢] عن الامام أحمد في رواية عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، فإن حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس فى أرضه التى ولد فيها) قالوا يارسول الله أفلا نخبر الناس؟ قال: (إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أو تنفجر أنهار الجنة).

وفي مسند الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام) وقال ابن عفان (كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس) وفي بعض الروايات: (الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مسيرة خمسمائة عام).

فرش أهل الجنة ولباسهم:

لا بأس من الاستئناس بتعريف الفرش من خلال ما جاء في معاجم اللغة العربية، لعل ذلك يوضح الفرق بين ما يخطر على الفكر وما يتعارف عليه الناس وبين ما يفسره القصص النبوي.

فالفرش: يعنى الفضاء الواسع من الأرض، وفرش الشيء: بسطه عليها، ويقال ذلك في الصغير الخفيف من النبات والحيوان.

ولكن مفهوم الفرش في الجنة يختلف عن ذلك كل الاختلاف. من ذلك ما جاء في قول الله تعالى[١٣] {وزرابي مبثوثة} قال ابن عباس: الزرابي: البسط ومعنى مبثوثة أي ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها، وجاء في تفسير قوله تعالى:

{متكئين على فرش بطائنها من استبرق} هو ما غلظ من الديباج أو الديباج المزين بالذهب. وقال عبد الله بن مسعود: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟ وقال مالك بن دينار: بطائنها من استبرق وظاهرها من نور جامد.

ونسوق قصة نبوية تصف فى إجمال بعض مظاهر الجنة، ففي رواية عن أسامة بن زيد يقول: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (ألا هل من مشمر للجنة، فإن الجنة لا حصر لها، هى ورب الكعبة: نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام فى أبد فى دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية؟ قالوا: نعم يارسول الله، نحن المشمرون لها، قال: (قولوا إن شاء الله) قال القوم: إن شاء الله.

وجاء في قصة رواها أبو سعيد الخدري[١٤] - رضي الله عنه - عن النبي {صلى الله عليه وسلم} فى قوله تعالى :{وفرش مرفوعة} قال: ارتفاعها كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام.

وفى قصة عن أبى أمامة - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله {صلى الله عليه وسلم} عن الفرش المرفوعة؟ فقال: لو طرح فراش من أعلاها لهوى إلى قرارها مائة خريف.

ومما يتصل بفرش الجنة ما جاء في قول الله تعالى: {متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان} وقوله تعالى: {فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة} وقد نقل ابن قيم الجوزية[١٥] أن الرفرف: رياض الجنة، والعبقري: عتاق الزرابي، وأهل المدينة يقولون: هي البسط، وأما النمارق فهى الوسائد. قال الكلبى: وسائد مصفوفة على الطنافس، وزرابي بمعنى البسط.

وقيل فى معنى (متكئين) أى مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة (وعبقرى) أى طنافس ثمينة ثخينة مزخرفة، ينسج فيها بسط منقوشة بلغت غاية الحسن.

وجاء في رواية عن أسماء بنت أبى بكر[١٦] - رضي الله عنها - عن النبي {صلى الله عليه وسلم}: (يسير الراكب في ظل الفنن منها مائة سنة، فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القلال، يعنى سدرة المنتهى).

ويوضح القصص النبوى لباس أهل الجنة وحليهم من الذهب والفضة والحرير المحلى بالدر والياقوت والزينة والترف الذى لا يقدر على وصفه وتفصيله إلا عن طريق السنة المطهرة. ففى الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه[١٧] قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (قال الله - عز وجل - أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك فى كتاب الله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}.

وقد أفرد ابن قيم الجوزية بابا تحدث فيه عن لباس أهل الجنة وحليهم ومناديلهم وفرشهم وبسطهم ووسائدهم ونمارقهم وزرابيهم. وجاء فيه عن أبى الدنيا عن كعب قال: (إن لله - عز وجل - مَلَكا منذ يوم خلق يصوغ حُلي أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة، لو أن قلبا من حلي أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاع الشمس، فلا تسألوا بعد هذا عن حلي أهل الجنة) وعن أشعث عن الحسن قال: (الحلة في الجنة على الرجال أحسن منه على النساء).

وفي قصة نبوية عن داود بن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه عن جده، عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (لو أن رجلا من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوء الشمس، كما تطمس الشمس ضوء النجوم).

وتصف قصة أخرى حال أهل الجنة في الحلى والزينة وهي عن أبي هريرة[١٨] رضي الله عنه - قال: إن أبا أمامة حدث أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} حدثهم وذكر حلي أهل الجنة فقال: (مسورون بالذهب والفضة، مكللون بالدر، عليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة وعليهم تاج كتاج

الملوك. شباب مرد مكحلون) وتبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء.

وروى الإمام مسلم قصة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).

ومن القصص النبوي الذي يجري بطريقة الحوار، فيه السؤال والجواب، والتشوق إلى تقييد الفوائد ، وفيه السرد والوصف الدقيق الذى يشهد على حرص أصحاب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} على نقل كل ما جاء عنه بأمانة وعناية لم تعرفها البشرية من قبل.

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا محمد بن أبى الوضاح، حدثنا العلاء بن عبد الله بن رافع، حدثنا حنان بن خارجة عن عبد الله بن عمر قال: (جاء أعرابي حرمى فقال: يارسول الله أخبرنا عن الهجرة؟ إليك أينما كنت، أم لقوم خاصة، أم إلى أرض معلومة إذا مت انقطعت؟ فسأل ثلاث مرات ثم جلس، فسكت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يسيرا ثم قال: أين السائل؟ فقال: ها هو ذا يارسول الله، قال: الهجرة أن تهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، ثم أنت مهاجر وإن مت بالحضر، فقام آخر فقال: يارسول الله أخبرنى عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقا أم تنسج نسجا؟ قال: فضحك بعض القوم، فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} تضحكون من جاهل يسأل عالما، فسكت النبي {صلى الله عليه وسلم} ساعة، ثم قال: أين السائل عن ثياب أهل الجنة؟ فقال: هاهو ذا يارسول الله، فقال: لا بل يشقق عنها ثمر الجنة) ثلاث مرات.

وفي معجم الطبراني عن عمرو بن ميمون عن عبد الله عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (أول زمرة يدخلون الجنة كأن وجوههم ضوء القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على لون أحسن من كوكب دري في السماء، لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ سوقها من وراء لحومها وحللها، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (لقيد سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها، ولنصيف امرأة من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها، قال قلت يارسول الله وما النصيف؟ قال: الخمار).

وعن أبى سعيد الخدري قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (إن الرجل ليتكيء في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول، ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبيه، فينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب، فتسلم عليه فيرد السلام، ويسألها من أنت؟ فتقول: أنا المزيد، وإنه ليكون عليها سبعون ثوبا، أدناها مثل النعمان من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها التيجان، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب).

ومن القصص النبوي الذى يصف لباس أهل الجنة ما روى عن يحيى بن كثير عن أبى سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة يحدث عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال:[١٩] (ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى، فتفتح له أكمامها فيأخذ من أي ذلك شاء، أبيض، وإن شاء أحمر، وإن شاء أخضر وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود، ومثل شقائق النعمان وأرق وأحسن).

وعن خالد الزميل أنه سمع أباه قال: (قلت لابن عباس ما حلل الجنة؟ قال: فيها شجرة فيها ثمرة كأنه الرمان، فإذا أراد له الله كسوة انحدرت إليه من غصنها، فانفلقت عن سبعين حلة، ألوانا بعد ألوان، ثم تنطبق ترجع كما كانت).

وعن أبى سعيد[٢٠] عن رسول الله {صلى الله

عليه وسلم} أن رجلا قال له: يارسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك، فقال: طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني، فقال له رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها) قال أبو هريرة: (دار المؤمن في الجنة لؤلؤة، فيها شجرة تنبت الحلل، فيأخذ الرجل بأصبعه - وأشار بالسبابة والإبهام - سبعين حلة، ممنطقة باللؤلؤ والمرجان) وقال كعب: (لو أن ثوبا من ثياب أهل الجنة لبس اليوم في الدنيا لصعق من ينظر إليه، وما حملته أبصارهم).

وعن أنس بن مالك قال: (أهدى أكيدر دومة[٢١] إلى النبي {صلى الله عليه وسلم} جبة من سندس، فتعجب الناس من حسنها، فقال: لمناديل سعد فى الجنة أحسن من هذا).

ونقل القرطبي[٢٢] أن عطارد بن حاجب أهدى لرسول الله {صلى الله عليه وسلم} ثوبا من ديباج، كساه إياه كسرى، فاجتمع إليه الناس، فجعلوا يلمسونه ويعجبون ويقولون: يارسول الله، أنزل عليك هذا من السماء؟ فقال: (ما تعجبون! فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا. يا غلام اذهب بهذا إلى أبى جهم وجئنا بأنبجانيته).

ويقص علينا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أن أهل الجنة توضع على رءوسهم التيجان بعد أن يلبسهم لباس الوقار والكرامة. ففى مسند الإمام أحمد عن أبي بريدة عن أبيه عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان وأنهما يظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، والقرآن يلقى صاحبه يوم القيامة، حين ينشق عنه قبره، كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول له: ما أعرفك فيقول له القرآن: أنا الذى أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين، لا تقوم لهما الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هدرا كان أو ترتيلا).

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق} أي لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه السندس وهو رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها مما يلى أبدانهم، والاستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس.

ونقل ابن كثير[٢٣] ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (تبلغ الحلة من المؤمن حيث يبلغ الوضوء).

وعن ابن عباس أنه قال: نخل الجنة جذوعها من زمرد أخضر، وفروعها من ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللهم.

«للحديث صلة»

الهوامش:

(١) القرطبي: التذكرة ص ٥٤٣.
(٢) المرجع السابق ص ٥٤٤.
(٣) حادى الأرواح ص ١٨١.
(٤) المرجع السابق ص ١٧٨.
(٥) المرجع السابق ص ١٧٩.
(٦) التذكرة ص ٥٤٠.
(٧) المرجع السابق ص ٥٧٩.
(٨) التذكرة ص ٥٨٢.
(٩) ابن قيم الجوزية: حادى الأرواح ص ٢٥١.
(١٠) المرجع السابق ص ٢٥٠.
(١١) التذكرة ص ٥٣٨.
(١٢) النهاية في الفتن والملاحم جـ ٢ ص ٢٦.
(١٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٠٣.
(١٤) المنذري: الترغيب والترهيب جـ٤ ص ٥٣٠.
(١٥) حادى الأرواح ص ٢٤٧.
(١٦) منتخب كنز العمال ص ١١١.
(١٧) حادى الأرواح ص ٣١٩.
(١٨) المصدر السابق ص ٢٤٠.
(١٩) المصدر السابق ص ٢٤٢.
(٢٠) المرجع السابق ص ٢٤٣.
(٢١) أكيدر: ملك دومة الجندل.
(٢٢) التذكرة ص ٥٣١.
(٢٣) النهاية في الفتن جـ٢ ص ٣٢٣.

عَبْدَةُ بن الطبيب (ت نحو ٢٥هـ)

كان شاعراً مجيداً غير مُكثر، وهو ينتمي إلى تميم، وكانت في الجاهلية يقال لها: عبد تيم، وتَيْمُ صنم كان لهم يعبدونه، وقد تألق شعره في الجاهلية، ووصل إلى مدى كان يُقدِّره الكثيرون، ومما يروى في هذا أنه اجتمع مع الزبرقان بن بدر، والمخبّل السعدى وعمرو بن الأهتم، وقد هيَّأُوا مجلسا، ونحروا جزوراً، واشتروا خمراً ببعير، وجعلوا يشوون، ويأكلون، ويشربون، فقال بعضهم: لو أن قوماً طاروا من جودة أشعارهم لطرتم، فتحاكموا إلى أول من يطلع عليهم فطلع ربيعة بن خدار اليربوعي فَسرُّوا به، وحكموه، فقال: أخاف أن تغضبوا فأمنوه من ذلك.

بقلم:
أ.د. عبده بدوي
كلية الآداب
جامعة الكويت

فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل، ولا ترك نيئاً فينتفع به، وقال لعمرو: أما أنت فإن شعرك كبرُ ودحبر، يتلألأ فيها البصر، فكلما أعيد فيها النظر قصر البصر.

وقال للمخبل: وأما أنت فشعرك قصَّر عن شعرهم، وارتفع عن شعر غيرهم.

وقال لعبدة: وأما أنت فإن شعرك كمزادة أحكم خرزُها فليس تقصرُ ولا تمطر[١]، ومما يحفظ له في فترة الجاهلية أنه رثّى قيس بن عاصم التميمي في قصيدة مشهورة جاء فيها:

عليك سلام الله قيس بن عاصم
ورحمته ما شاء أن يترحما
تحيَّةً من أوليته منك نعمة
إذا زار عن شَحْط بلادك سلَّما
فما كان قيس هُلكه هُلكُ واحد
ولكنه.. بُنيانُ قوم تهدَّما

فقد وصل في البيت الثالث إلى ما سمى أرثى بيت قالته العرب[٢].

ولقد كان من الذين دخلوا الاسلام في وقت مبكر، ولكنه لم يحتك بالرسول عليه الصلاة والسلام، والرِّجال الأول، إنما كان احتكاكه في الفترة التى تميزت بالفتوح في عهد عمر - رضي الله عنه - ، وبالقادة الذين انطلقوا لمجاهدة الفرس[٣]، وفي هذه الفترة رأيناه يقول قصيدة مشهورة رحبة رويت في المفضليات وتبلغ واحداً وثمانين بيتا، وإلى قصيدة أخرى تبلغ أبياتها الثلاثين، وقد حيّرت هذه القصيدة الرّواة إلى حدّ اعتبارها قصيدتين، ذلك لأن فيها حديثاً عن حرب المسلمين مع الفرس، وفيها حديث عن الشراب، ويبدو أنه قالها في مرحلتين من العمر، فقد كان فى المرحلة الأولى يتحدث عن الهرب بالحب، وفي المرحلة الثانية يتحدث عن الهرب بالشراب، وفي ضوء هذا كان النسيج واحداً، وكانت الصّور هي الخطوط الرئيسية للقصيدة التي عرف بها، وفي الوقت نفسه وضع فيها كل

قدراته:

هل حبلُ خولة بعدَ الهجر موصول
أم أنتَ عنها بُعَيْد الدار مشغول؟
حلَّت خويلة في دار مجاورة
أهل المدينة فيها الدِّيك والفيل
يقارعون رؤوس العُجم ضاحية
منهم فوارس لا عزل ولا ميل
وقد غدوتُ وقرن الشمس منفتق
ودونه من سواد الليل تحليل
إذ أشرف الديك يدعو بعض أسرته
لدى الصباح وهم قوم معازيل
إلى التجار، فأعدانى بلذته
رخو الأزار كصدر السيف مشمول
حتى اتكأنا على فرش يزينها
من جيِّد الرَّقْم ازواج تهاويل
فيها الدجاج وفيها الأسد مخدرة
من كل شيء يرى فيها تماثيل
فى كعبة شادها بان وزينها
فيها ذبالٌ يضيء الليل مفتول
لنا أصيص كجذم الحوض هدَّمه
وطء العراك لديه الزِّق مغلول
والكوب أزهرُ معصوبٌ بقلَّته
فوق السياع من الرَّيحان أكليل
لما نزلنا نصبنا ظل أخبية
وفار باللحم للقوم المراجيل[٣]

.. وقد عاش في هذه الفترة محاربا شجاعا[٤] وفي الوقت نفسه كان يستمتع بحياته، ويمرح ما وسعه المرح، ولكن الأيام كانت تمضي به بعيداً، وكانت ترغمه على الجد، وعلى التعبير عن العالم الذى يعيش فيه، ومن هنا رأيناه يعيش على التذكر، وعلى ذكر الديار، فيقول على نحو ما جاء في المنازل والديار[٥].

وذكرنيها بعد ما قد نسيتها
ديار عليها وابل متبعِّق
وقفتُ بها والشمس دون مغيبها
قريباً فهاج الشوق من يتشوق
قليلا فلما استعجمت عن جوابنا
تَعَزَّيت عنها والدموع ترقرق
فلا الدار تدنيها لنا غير فينة
ولا حُبُّها عن شاحط النأى يخلق!

ثم لما أسن ورابه بصره رأيناه يقدم وصية لأبنائه:

ولقد علمتُ بأنّ قصرِى حفرة
غبراء يحملنى إليها شرجع[٦]
فبكى بناتي شجوهُنّ، وزوجتي
والأقربون إليَّ ، ثم تصدَّعوا
أبنى إنى قد كبرتُ، ورابنى
بصرى، وفيَّ لمصلح مستمتع
فلئن هلكتُ لقد بنيت مساعياً
تبقى لكم منها مآثر أربع
أوصيكم بتقى الإله فإنه
يُعطي الرغائب من يشاء ويمنع
وببرٍّ والدكم، وطاعة أمره
إن الأبرَّ من البنين الأطوع
إن الكبير إذا عصاه أهلُه
ضاقت يداه بأمره ما يصنع
ودعُوا الضغينة لا تكن من شأنكم
إن الضغائن للقرابة توضع
واعصوا الذى يُزْجي النمائم بينكم
مُتَنَصِّحا. ذاك السمام المنقع[٧]

وهي قصيدة طويلة، وقد علّق على بعض أبياتها الجاحظ، فقال: وهذا الشعر من غُرَر الأشياء، وهو مما يحفظ[٨] كما استشهد

البحتري به، على ما جاء في النمائم[٩]، ومما يتصل بهذه القصيدة تركيزه على قضية الزمن والانسان في قوله:

إذا الرجال ولدت أولادها
واضطربت من كبر أعضاؤها
وجعلت أسقامها تعتادها
فهي زروع قد دنا حصادها[١٠]

* وقد احتج له بعض رجال اللغة على شرح بعض الكلمات، ثم إن البلاغيين قد اهتموا به، واستشهدوا بقوله:

والمرء ساع لأمر ليس يدركه
والعيش شحّ وإشفاق وتأميل

* على ما يسمى بصحة التقسيم[١١]، كما استشهد ابن رشيق له فى باب الرجز والقصيد[١٢]، وَعُدَّ في الذين أكدوا لعلم البديع.

وأخيراً فإذا كان قد قيل: إنه كان عبداً أسود، وأنه كان في البدء من لصوص الرّباب، فإن قضية سواده لم تشغله في شعره، فقد كان على ثقة بنفسه، كما أنه كان من الذين تمتعوا بحياتهم، فقد جمع بين الجهاد تحت راية الإسلام، والجهاد تحت راية الاستمتاع بالحياة، حتى ولو كان هذا الاستمتاع مناقضاً للمفاهيم الإسلامية، ولقد حفظ له أنه كان يترفع عن الهجاء، فالذين أخذوا عليه أنه كان لا يحسن أن يهجو قيل لهم: إنه ما أبى من عي، ولكنه كان يترفع عن الهجاء، ويراه صنعة، كما يرى تركه مروءة وشرفاً، ولعل أجمل ما قيل فيه أن عبد الملك بن مروان قال يوما لجلسائه: أيّ المناديل أشرف؟ فقال قائل منهم: مناديل مصر كأنها القشرة الملتزقة ببياض البيض، وقال آخرون: مناديل اليمن كأنها نور الربيع، فلم يوافق عبد الملك على هذا وقال: بل مناديل أخي بني سعد، عبدة بن الطبيب.

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية
وفار للقوم باللحم المراجيل
وردٌ وأشقرُ ما يؤنيه طابخه
ما غيَّر الغليُ منه فهو مأكول
ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُرْد مُسوَّمة
أعرافُهُنَّ لأيدينا مناديل[١٣]

المهم أنه كان يستحضر صور المدركات الحسية عند غيبتها عن الحواس، دون التصرف فيها بزيادة، أو نقص، أو تغيير، أو تبديل، وذلك كاستحضار صورة حديقة رأيتها من قبل.. وإلى اختلاف الناس في الإدراك الحسي يرجع اختلافهم في التصور، والقدرة على التصوير[١٤]، وقد كان سعيد بن جبير يقرأ الآية «أكاد أخفيها» ويستشهد بقول عبدة بن الطبيب:

يخفي التراب بأظلاف ثمانية
فى أربع مَسَّهُنَّ الأرض تحليل[١٥]

** وأخيرا فإذا كان لابد من وقفة عند قصيدته اللامية المشهورة، فالمعروف أنها تمثل إحدى ذرى توسيع البنية التوليدية، وأن الزخرفة ملأت كل شريحة من شرائحها، ثم إنَّ البنية التوليدية تتبطن النص بدقة دون أن تنحرف، وهكذا تكون في النهاية قد وصلت بالبنية التوليدية إلى ذروتها من التنامي في كل مكوناتها، وهي

بهذا التصعيد تجسد رؤيا أعمق احتدامية، وأعنف مجابهة، فهي تضع الحيوية في مقابل الذبول، وتُفَجِّر الانسان والحيوان بالطاقة في سياق الموت، في مقابل العلاقة المتوترة مع المرأة[١٦]٠

الهوامش:

(١) الإصابة ٢/١٠٠، الموشح ١٠٨٠

(٢) الأغاني ١٨/١٦٣، الشعر والشعراء ٢/٦١٣ والذي قال هذا عمرو بن العلاء في ديوان المعانى ٢/١٧٥٠

(٣) شعر الفتوح الأسلامية ، النعمان عبد المتعال القاضي ١٨٠٠

(٤) شرح اختيارات المفضل للتبريزى، تحقيق فخر الدين قباوه ٢/٦٤٣٠

(٤) قيل كان في جيش النعمان بن المقرن الذين حاربوا معه الفرس بالمدائن ـ معاهد التنصيص ١/١٠٢٠

(٥) تحقيق مصطفى حجازى ص ٨٣ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية٠

(٦) الشرجع: الخشب يشدّ بعضه إلى بعض كالسرير يحمل عليه الموتى ـ المفضليات ١٤٨، ١٤٩٠

(٧) من المفضلية ٢٧، معاهد التنصيص للعباسي ١٠

(٨) كما احتج برأيه في عدم تعليم الصبي العداوة، الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ٤/١٦٨٠

(٩) الحماسة ص ٢٤٠ ط١٠

(١٠) الوحشيات لأبى تمام ص ١٥٦ ط١٠

(١١) جاء في البيان والتبيين أن عمر بن الخطاب أعجب من حسن ما قسم وفصل ١/٢٤١٠

(١٢) العمدة ١/١٨٢ ط٥ دار الجيل كقوله:

باكرني بسحرة عواذلي
وعذلُهُنَّ خَبَل من الخبل!
يلمنني في حاجة ذكرتها
في عصر أزمان ، ودهر قد نسل

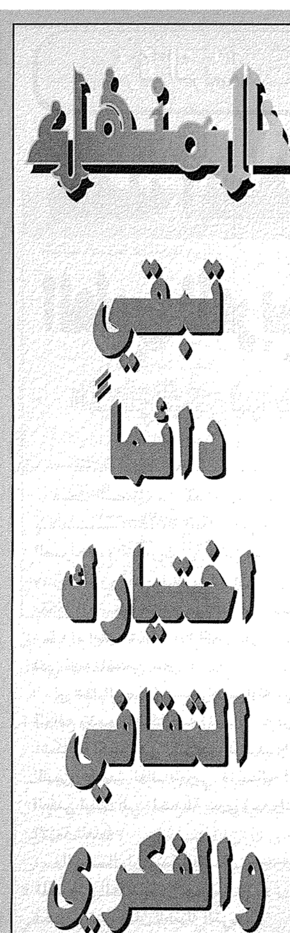
(١٣) يرى ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/٦١٤ أنه أخذه من قول امريء القيس:

نمُش بأعراف الجياد أكفنا ٠٠٠ إذا نحن قمنا عن شواء مُضَهَّب٠

(١٤) دراسات في علم النفس الأدبي، حامد عبد القادر ص ٣٢ ط١٠

(١٥) أمالي المرتضى: تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ٢٣٣ ـ دار الكتاب العربي بيروت ـ ويخفى بمعنى يظهر٠

(١٦) الرؤيا المقنعة، د٠ كمال أبو ديب ص ٤٤٦، ط٠ الهيئة العامة للكتاب٠



حركة الترجمة:

معضلة المصطلح العلمي العربي

«المصطلح اللساني نموذجا»

محمد يحياتن
- الجزائر -

«يجب التساؤل عن اللغة العربية في علاقتها بالانسية Humanism، على اختلاف الصراعات والظاهرات، إن الامة العربية جائعة ومريضة وجاهلة، فلا غرابة أن تكون لغتها مفككة العضلات هزيلة وضبابية في التعبير»[١] - ما دام أهلها كذلك - أما اللغة العربية في ذاتها فهي قوية ناضجة حيّة.

إن هذا التصدير - على قساوته - يروم في الواقع وضع الاشكالية المعالجة فى صلب اشكالية أكبر، هي اشكالية التخلف والتبعية اللذين عليهما العالم العربي، فاشكالية المصطلح العلمي ليست في المحصلّة سوى وجه واحد لهذه الازمة العامّة.

والحال إن اشكالية المصطلح العلمي، من جهة أخرى، ترجمان للمنزلة التي هي عليها كل من الثقافة والعلم، فلئن كنّا لا ننتج ما نأكل إلا بنسبة قليلة، فإننا في الوقت عينه لا ننتج المعنى او لنقل بأننا لسنا منتجي معرفة. فنحن في كل الاحوال، والحق يقال، مستهلكون، والمقصود بالاستهلاك ههنا هو استهلاك المعارف المختلفة الوافدة علينا، أما الاستهلاك السيء فمعناه عدم الاحاطة بهذه المعارف وتمحيصها.

وفضلا عن هذا، يجب الاعتراف بفداحة التقصير من حيث قلة مواكبتنا للتطور العلمي الحاصل في العالم، لا سيما في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية كاللسانيات على سبيل المثال التي نزعم اننا نعرف حالها فى الوطن العربي. فعندما نستقرىء واقع تدريس اللسانيات في بلداننا، فاننا نلاحظ دونما عناء، بأن مدارس برمتها ونظريات برأسها حديثة لم تلج بعد حياض معاهدنا وجامعاتنا، من ذلك مثلا نظرية الحديث أو التلفظ كما يسميها البعض واللسانيات التداولية ونظريات الخطاب. وهذا بالطبع مما يجعل تدريسنا الجامعي موسوما بالتخلف. وهذا الذى قدمناه يصدق بطبيعة الحال على التخصصات العلمية الأخرى.

وهذا التقصير الفادح في مواكبة المعارف المختلفة مردّه إلى:

أ - ضعف حركة الترجمة في العالم العربي:

عندما نمعن النظر في مدونة ما ترجم إلى العربية على جميع الاصعدة، نجد ان ما تُرجم هزيل جدا. وهنا يحضرنى ما ذهب اليه زميلنا المغفور له عمّار بلّحْسن من أن واقع الترجمة في العالم العربي لا يساوي البتة ما كان عليه من نشاط وازدهار على أيام المأمون مؤسس بيت الحكمة، حيث كان وزن الكتاب المترجم

** اللغة تضعف بضعف أهلها.
** التبعية تولد الانهيار في كل المجالات.

الكتب المترجمة	المترجمون / المكان
ـ دي سوسير: محاضرات في اللسانيات العامة	ـ أربع ترجمات: تونسية، لبنانية، مغربية عراقية.
ـ أ. مارتيني: مبادىء في اللسانيات العامة	ـ ترجمتان: سورية وتونسية.
ـ ر. بارت.: مبادىء في علم الادلة	ـ محمد البكري ، المغرب.
ـ ج. مونان: مفاتيح الالسنية	الطيب البكوش، تونس.
ـ ج. مونان: تاريخ اللسانيات ـ	بدر الدين قاسم، سوريا .
ـ ب . جيرو: علم الدلالة ـ	منذر عياشي، سوريا .
ـ ف. أرمانفو: المقاربة التداولية ـ	سعيد علوش، المغرب.
ـ ك. لي فوك وآخرون: قضايا اللسانيات العامة	ـ المنصف عاشور، الجزائر.
ـ ر. هدسون: علم الاجتماع اللغوي	ـ محمد عبد الغني، العراق.
ـ فندريس : اللغة ـ	محمد الدواقلي ومحمد الخصاص، مصر.
ـ ج. كانتينو: دروس في علم أصوات العربية	ـ صالح القرماوي، تونس.
ـ ن. تشومسكي: البنى النحوية	ـ يوسف عزيز، المغرب.

ذهبا![٢].

ولكي نقيم الدليل على هذا الضعف، حسبنا أن نعرض ههنا نتائج احصائنا للكتب المترجمة في مجال اللسانيات:

تعليق: الحصيلة كما هو واضح هزيلة: ١٢ كتابا، علماً بأن جلّها هي من قبيل المصنفات العامة التي تنهض بالتعريف بأهم المفاهيم اللسانية العامة. وفي هذا الباب، لابد من الاشارة إلى عدم انتشار الكتاب العربي عبر الاقطار العربية، وهذا من شأنه أن يتسبب في اهدار الجهود: فالكتاب الواحد قد يترجم ترجمات عديدة.

وهذا الذى قلناه عن اللسانيات يمكن أن يصدق على الفلسفة. وهنا لا مفرّ من الاستشهاد بأهل الفلسفة، فأهل مكة كما يقال أدرى بشعابها.

يقول د. محمد وقيدي، الاستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط ما يلي:

«.. لقد قلنا إن شرط الترجمة لا يوجد بما فيه الكفاية وندلل على قولنا بالإشارة إلى أن عددا من كبار الفلاسفة (...) غير حاضرين باللغة العربية، ولا يمكن أن نتصور حوارا فلسفيا فعالا في غياب هذه النصوص، كما لا يمكن أن نتصور في غيابها وجود تعليم فلسفي جاد»[٣].

ويقول في مكان آخر عن حضور الفلاسفة المعاصرين لنا بأنهم:

«ليسوا بأكثر حظا من سالفيهم برغم صفة المعاصرة التى تربطنا بفكرهم. هناك لا شك مجهود يستحق التقدير قام به بعض المترجمين لكن ما هو موجود من المترجمات لم يخضع إلا لاستراتيجيات ثقافية عامة.. نجد في الزمن المعاصر أيضا فلسفات لم تأخذ عنايتها من المترجمين إلى اللغة العربية مع أنه كان لها التأثير القوي على مسيرة الفكر الفلسفي المعاصر مثل نيتشه وهيدجر وهابرماس وبرانشفيك كما لم تحظ بما تستحقه من أهمية الفلسفات التي فكرت أساسا في الثورات العلمية المعاصرة: كارل بوبر، الكسندر كونير، جورج كانغيلام وتوماس كوهن وغيرهم»[٤].

ب ـ منزلة الثقافة والبحث العلمي في العالم العربي:

بالاضافة إلى ما قدمناه أعلاه، لابد كذلك من الإقرار بأن منزلة الثقافة والبحث العلمي غير خليقة بأن تُفضي إلى النهوض بهما، ذلك لأننا لا نزال ننظر إليهما على أنهما من قبيل الكماليات في حين أن الدول المتطورة ـ على تطورها البيّن ـ ما فتئت ترصد الأموال الهائلة لترقية البحث العلمي على جميع الأصعدة. وفي هذا الباب بالذات، يجدر بنا أن نقف قليلا عند التقرير الهام الذى اصدرته منظمة اليونسكو في سنة ١٩٩٤ حول واقع البحث العلمي ومنزلته في الحركة التنموية في العالم. وما يهمنا منه الارقام التى وردت فيه والتى تتعلق بنسبة الدخل القومي العام المرصودة للبحث العلمي:

- اليابان: ١ر٣.
- الولايات المتحدة الامريكية: ٨ر٢ .
- الاتحاد الاوربي : ٢.
- اوربا الوسطى والشرقية : ٧ر١.
- اسرائيل : ٧ر١.
- كندا : ٤ر١.
- نيوزيلندا .
- استراليا ونيوزيلندا الجديدة : ٢ر١.
- الاتحاد السوفياتي سابقا : ١ر١.
- الصين : ٨ر.
- الهند: ٨ر.
- أمريكا اللاتينية : ٤ر.
- الشرق الأدنى والاوسط : ٤ر.
- المغرب العربي : ٣ر.

لسنا ـ فيما نعتقد ـ بحاجة إلى التعليق على هذه الارقام[٥].

٢ ـ في معضلة المصطلح العلمي:

لقد بدا لنا المدخل السابق هاما، ذلك أن مشكلة المصطلح ترجمان لأزمة التخلف التى نحن عليها. لكن يا ترى ماذا عسانا أن نضيف إلى مئات المقالات والدراسات التي عنيت بهذه الاشكالية؟ اننا والحق يقال لا نزعم بأننا سنقدم الحلول الشافية لها ، لكن حسبنا أن نشدد على أمرين نخالهما أساسين:

(أ) ـ ضرورة التخلص من التناول الحرفي العفوي الذي يَسمُ العمل الاصطلاحي العربي في جميع المجالات والاختصاصات.

(ب) ـ مسألة المصطلح العلمي ليست حكرا على اللساني، فلابد من اشراك المستعملين في شحذ المصطلحات، وهذا يعني وضع البعد السوسيولساني في الحسبان.

العنصر الأول:

ماذا نعني بضرورة التخلص من العمل العفوي الحرفي؟ نقصد بذلك أن العمل الاصطلاحي غالبا ما يقتصر على العمل الفردي المعزول، ومباشرة المصطلحات العلمية ونقلها بالنظر إليها ككلمات، مع ما يترتب عن ذلك من الذهول عن المحتوى المعرفى الخاص الذى

** حركة الترجمة اليوم هزيلة وضعيفة.
** محدودية انتشار الكتاب العربي أضعف الافادة منه.

تنطوي عليه، وهذا ما جعل د. عبد القادر الفاسي فهري يتحدث عن «غياب تمثل نظري للقضية المصطلحية»[٦].

ومعنى هذا أن كثيرا من الأعمال المصطلحية تنسى أو تتناسى بأن المصطلح العلمى انما يندرج في صلب نسق معرفى ومفاهيمي يشد بعضه بعضا، وأن المحتوى المفهومي للمصطلح انما يستمد من هذه المنظومة الكلية، وحتى لا يظل كلامنا على هذا النحو من التجريد، لابد من إيراد بعض الامثلة.

أ ـ نظرية الـ e'nonciation:

ترجمها البعض بنظرية التلفظ، وهي عندنا ترجمة غير صائبة، لأن المترجم ههنا انما احتفل بالمعنى الأول الذى توحي به كلمة (e'non-ciation) وفاته أن المفهوم الدقيق الذى يرمي إليه صاحبه انما هو الحديث من حيث هو تحويل اللغة إلى خطاب يؤثر من خلاله المتكلم على المخاطب بشكل من الاشكال. نعتقد أن لفظ الحديث اكثر دلالة من التلفظ.

ب ـ re'pertoire verbal :

مصطلح من المصطلحات التى يكثر تداولها في مجال صناعة تعليم اللغات وعلم الاجتماع اللغوي، ويعني مجموع الموارد اللغوية التي يتوفرها عليها الفرد (مثلا كأن يكون مالكا للعامية والفصحى ولغة أو لغات أجنبية) وقد نقله البعض إلى العربية بـ: السجل اللغوي، وهو نقل أخرق لأن المترجم ههنا أيضا نظر إلى re'pertoire من حيث معناه المتداول الشائع أي ذلكم الدفتر الصغير الذى تدوّن فيه بعض المعلومات. ونقترح أن يُنقل إلى العربية بـ: الرصيد اللغوي أو الذخيرة اللغوية كما اقترح ذلك استاذنا الجليل د. عبد الرحمن الحاج صالح[٧].

العنصر الثاني:

أي البعد السوسيولساني، وهو عنصر مهمّ لانه من خلاله ينظر إلى المصطلح من حيث بعده الاستعمالي التداولي، فاللغة ـ أيا كانت ـ استعمال قبل ان تكون بنية مجردة. وهذا ما دفع بعض الاختصاصيين إلى القول: «إن الاعمال التوحيدية (أي التى تسعى إلى توحيد المصطلحات) لا يمكن أن تؤتي ثمارها اذا غضت الطرف عن واقع الممارسات اللغوية وشروط انتاج الخطاب»[٨].

ومعنى هذا لابد من العمل الاصطلاحي أن يضم إلى جانب اللسانيين والمختصين في المصطلحات المستعملين الحقيقيين بقصد الاستشارة واثراء العمل الاصطلاحي.

الهوامش:

(١) د. محمد عزيز لحبابي: أن نكون أو لا نكون تلك هي المشكلة، مجلة الاصالة ، الجزائر، العدد ١٧ ـ ١٨، ١٩٧٤، ص ٢٣٣.

(٢) عمّار بلحسن، عودة النص، حول ترجمة الادب، جامعة وهران، ص ٣.

(٣) د. محمد وقيدى، الترجمة بوصفها ضرورة ثقافية، جريدة السلام ، الجزائر، بتاريخ ١٩٩٥/٢/١٦، الصفحة الاخيرة.

(٤) د. محمد وقيدي، المرجع السابق.

(٥) مجلة Jeune Afrique ، العدد ١٧٥٩، من ٢٢ الى ١٩٩٤/٩/٢٨، ص ٥٠.

(٦) د. عبد القادر الفاسى فهري، اللسانيات واللغة العربية، الكتاب الثاني ١٩٨٥، ص ٢٣٠.

(٧) F. Laroussi et L. Guespin, Glottopol: Tique et standard: sation terminologique, La Basque des Mots n' 1989, P.8

لماذا نكتب للأطفال:

الرديء .. يأكل الجيد

وليس المقصود بعالم الاطفال هو ذلك الجسد الصغير الذى يتوج به الصغار، ولا علامات الزغب الذى ينتشر في الاجساد، ولكن هو ذلك الشعور الانسانى البالغ البراءة الذى يقوم فى الاساس على رفض عالم الكبار، أو الدخول فيه، ولذا فأنا اتعامل مع الطفولة باعتبارى لم أبلغ بعد سن النضج الحسي.

ولذا فإن العلاقة بين ما نكتبه، وبين مشاعرنا الخاصة يجب أن تكون متكافئة، ومتسقة معا. ومن المهم أن أعبر هنا عن انتباذى لعالم الكبار، وهروبى منه الى عالم الصغار.

فاللغة بين الكبار تقوم على المصلحة، والرغبة الشديدة والاعجاب بالذات على حساب الآخرين، وما رأيته من لغة يستخدمها الكبار من أجل اثبات ذواتهم ماديا، ومعنويا، ومن أجل تأمين مستقبلهم، أو مستقبل أبنائهم يدفع المرء الى أن يتقوقع فى عالم الطفولة، شاء أم أبى. وعلى سبيل المثال فكل هذه الجرائم البشعة التى يرتكبها الكبار إنما سببها أنهم يشعرون بعدم الأمان، ويحاولون شراء المستقبل بأى ثمن. وهذه الجرائم البشعة هي من ضمن لغات الكبار، أما الصغار فهم لا يرتكبونها واذا فعل بعضهم ذلك فبوحي من الكبار.

وعالم الكبار، الذى نرغم على الدخول فيه، من حقنا أن ننعزل عنه، اذا اتيحت لنا الظروف أن نفعل، وقد وجدت ذلك فى الكتابة للاطفال، ولا تعني الكتابة هنا هي الجلوس أمام المكتب، وملء الصفحات البيضاء بكتابات ساذجة، ولكن هو تفريخ البراءة التى في الذات إلى الآخرين سواء في صورة قصص، أو حكايات، أو معلومات، ثم معاودة قراءتها،

> **لماذا نكتب للأطفال؟**
>
> ***بالنسبة لي فالاجابة بالغة البساطة، فأنا لا أكتب للاطفال الآخرين الا بعد أن أكتب لهذا الطفل الذى بداخلي، والذى لا أسعى إلا أن أدفنه وسط السنين التى تطاردنى وتجعلنى أكبر سنا يوما وراء يوم، وفي الفترة الأخيرة بدأت بعض الشعيرات البيضاء تزحف على الرأس. أي بما يعني أن هناك انفصالا ما لابد أن يتولد بيولوجيا بين تركيب الجسم، وبين الأيام والسنين التى تمر، وبين عالم الاطفال.***

محمود قاسم - مصر -

**** عالم الصغار .. براءة كم وددنا ألا نتجاوزها.**

**** توقف عن الكتابة للأطفال متى ما غادرك الطفل الذي بداخلك.**

**** المصلحة والاعجاب بالذات، مصطلحات لم ترحل إليها الطفولة بعد.**

كأن آخر هو الذى كتبها، وفي الكثير من الاحيان تراجع بروفات هذه الكتب، فنشعر بنفس مشاعر الصغار. كما أن الكتابة للاطفال هى التى قربت منى اطفال يأتون أجيالا بعد أجيال ويتجددون دائما، نلتقى بهم فى المحاضرات، والندوات، والحدائق، وفي أماكن عديدة، نتناقش معهم ونحاورهم، ونعايشهم، فيمتد عمرنا الطفولى، أكثر. ويقصر عمرنا الناضج. والغريب أننى لا أقرأ الكثير من كتاب الاطفال، والسبب بسيط، ان أغلبهم محترف كتابة، وهو ايضا كبير يكتب للاطفال. ولذا فلست في حاجة الى أن أقرأ ما كتبه الكبار، بقدر ما أنا فى حاجة ماسة لأن أطالع ما يبدعه الصغار. هؤلاء الذين يعيشون في صيرورة، فسرعان ما يكبرون، ويحاولون قدر الامكان طرد الطفل البرىء من دواخلهم، فترى بعضهم يحاول تدخين السجائر، أو اطلاق زغب شاربه، للتأكيد على رفض طفولته، والهروب منه، فهو يتعجل أن يكون كبيرا دون أن يدرى أنه يدخل على مراحل الخطر بكل حذافيره، وهو مساق الى ذلك سوقا.

الكتابة هي في المقام الأول معايشة، دخول الى عالم الصدق، وسط زيف مكثف يحوطنا في كل مكان، وعندما يجلس الكاتب الى أوراقه، ويمسك قلمه، فإنه ينسلخ من أشياء كثيرة يحاول أن يطردها، وهناك بعض الكتاب يتقمصون هذه المتاعب والمعاناة من أجل الكتابة عنها. وبالنسبة لي فالكتابة نوع من اللذة الجماعية، أمارسها وأنا بالغ السعادة، التقي في لحظاتها بذاتى، وبالآخرين وأكتب ما يدفعه القلب إلى القلم، وأحاول أن أرتفع عن المستوى الحسي الذى أشعر به، ويسعى إلى أن يغلبنى.

والسؤال هو ماذا نكتب للاطفال، ولماذا نكتب؟

لابد أن يتذكر المرء وهو صغير حكايات داخل ذاته، ابتدعها، أو خلقها له آخرون، فعاش فيها لبعض الوقت قبل أن ينسلخ منها، وفى طفولتنا ذلك الخيال الواسع بأنك محور الكون، وأن هذا العالم إنما خلق لسعادتك ولتسليتك، وهناك ذلك الشبح الذى يأتي إليك عبر الجدران، فيقوم بأخذك معه الى آفاق بعيدة، يجعلك تفعل أشياء ليست في مقدورك، كأن تطير بدون جناحين، أو أن تسبق طائرة نفاثة، أو أن تتناول العشاء مع نجم شهير أنت تحبه. وأشياء كثيرة.

وهذه الحكايات والتخيلات كثيرا ما تتفق مع ما يرويه لك الكبار أحيانا، وأيضا مع ما تعيشه مع الصغار من أمثال، فالواقع حولك.. أما .. الخيال فرائع، وعلى الصغير أن يصدق كل شيء. ان يصدق أن بطل الحكايات الاسطورية هو أكثر حقيقة من الاشخاص الذين يحيطونك.

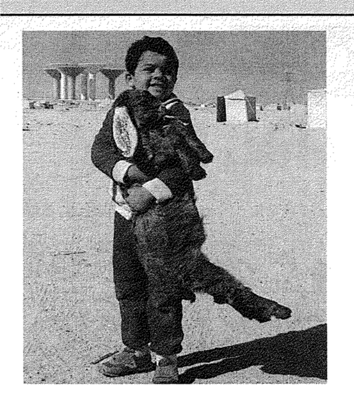
ولذلك تصير صداقة وإعجاب بين أبطال الطفولة، وبين الصغار أكثر مما ستصير بين الاطفال من نفس السن على سبيل المثال. فهل يتذكر أحد منا صديق المرحلة الاولى من طفولته بنفس القدر الذى يتذكر به حكايات ألف ليلة وليلة، وأم الغولة، وأسماء كثيرة أخرى.

وأروع ما فى هذا العالم هو سرعة تصديقه، ولماذا لا نصدق ومفردات الكذاب، بكل أشكاله، لا تعرف طريقها إلينا حتي تلك المرحلة، والغريب أننا نبدأ في الابتعاد عن كل هذا العالم بنفس الدرجة التى نتعلم بها أساليب الكذب، تلك العادة المحببة جدا للكبار.

لماذا لا ندع للصغار عالمهم؟ ولكنه نداء مستحيل، فبيوتنا ضيقة، وحوارينا أكثر ضيقا، وزحاما، وقرانا مزدحمة بالصغار والكبار، والاسمنت الذى حل مكان الارض الخضراء، واذا شاهد الصغار التليفزيون، فانهم حتما سيكبرون، فالتمثيليات والافلام مليئة بالحديث عن مشاكل الكبار.

وعليه فان الصغار محاطون دائما بمشاكل الكبار في كل مكان، وهم مرغمون على هذا، ويستعذبونه، وفي الصيف، هذه الأعوام الاخيرة، انقلبت الامور في حياتنا تماما، فالصغار يجلسون أمام شاشة التليفزيون حتى ساعة متأخرة من الليل، أما الكبار، فعليهم أن يناموا مبكرا من أجل اللحاق بأعمالهم في الصباح. أليس هناك انقلابا أشد والكثير من البيوتات لم يعد لاصحابها قدرة على ارغام ابنائهم على النوم مبكرا، وضاع زمان حدوتة ما قبل النوم تماما.

اذن، فالكتابة للاطفال تستلزم أن يكون الكاتب نفسه طفلا في روحه وفى احساسه وان يحمل هما هو الاحتفاظ بدرجة عالية من البراءة



للاطفال. ولكن حتى ما نرى الاطفال يحبونه يكشف أننا فى خطر داهم، فكُتب العنف، والمطاردات والجواسيس تملأ المكتبات، ويزداد الاقبال عليها، ومؤلفوها هم كتاب، وهناك فرق هائل بين الاديب والكاتب، الاديب يحمل على عاتقه رسالة، ويعبر عن واقعه، وواقع الحياة التى يعيشها القراء، أما الكاتب فهو أشبه بكاتب يجلس أمام احدى المصالح الحكومية، يملأ صفحة بيضاء، طلب أو خلافه، كي يأخذ أجره. ليس له رسالة، ولا هدف، وكل ما يهمه هو ارتفاع نسبة التوزيع، وهل هناك هدف سام فى أعمال كتاب من طراز موريس لبلان، واجاثا كريستى، والافعال الرئيسية في الكتابات التى يقدمونها للبشر هي: «ذبح، قتل، طارد، اختلس، سرق، اشتبه، وأفعال أخرى بالغة السوء والقسوة».

زحفت هذه الافعال في السنوات الاخيرة الى عالم الاطفال، ملأت كتب من هذه النوعية ادراجهم، وقد لا يكون من حقنا أن نعترض،

ولكن في بعض البيوت، فإنك لن تجد سوى هذا النوع فقط من العناوين والكتب. أى أن بضاعة الافعال السابقة قد طردت الافعال النبيلة مثل «طمح، حلم، افتدى، أخلص، أنقذ، أحب، وغيرها».

ونحن ككتاب أطفال، وجدنا أمورنا تسوء، فالناشرون يسعون الى مبيعات أعلى، واذا فإنهم يطلبون منا دوما أن نكتب لهم قصص الالغاز، وهى روايات بوليسية تعتمد على الغموض والمطاردات، والقتل، وأشياء أخرى عديدة، وكيف لكاتب يكره كل ما كتبته اجاثا كريستي وموريس لبلان، وشرلوك هولمز، وجورج سيمنون، أن يجد نفسه يكتب روايات بوليسية أو الغازاً.

الروايات البوليسية مصنوعة في المقام الاول كي يتسلى بها ركاب القطارات الذين يسافرون لساعات، وعليهم التعامل مع الثقافة، بنفس المنطق الذى يقوم به شخص بشراء كيس فيشار، أو كيس لب يتناول حباته وهو يشاهد فيلماً فى دار سينما، هو يرى أن السينما تسلية، واللب وسيلة من وسائل التسلية، أي أن الاثنين متفقتين معا.

وكتابة الالغاز هى جريمة كبرى في حق الاطفال، ومع ذلك طلب منا الناشرون أن نقدم لهم الالغاز، لانها تباع، وأنا أعترف أن لي مجموعة روايات في دار الشروق تحت اسم «الغاز الشروق» اقترحها المهندس ابراهيم المعلم. للحق هو اراد عمل «الغاز» وترك لى حرية الموضوع، فابتدعت شخصية «حب حب» ليكون تانتان العربي، مغامراً أكثر تطورا، لديه الكومبيوتر صاحب المعلومة، والذى يتتبع الاحداث الكبرى في العالم، مؤتمر قمة الارض، زلزال القاهرة، اوليمبياد ١٩٩٢، كأس العالم

*** وهو في الثلاثين من عمره ينبغي أن يكون طفلا وهو يكتب للاطفال.**

*** الكبار ينامون مبكراً والصغار يسهرون.**

١٩٩٤، الاتجار في الاسلحة النووية في الدول المنشقة عن الاتحاد السوفيتي، ظهور قراصنة البحر في نهاية القرن العشرين فى شرق آسيا، ومجابهة كل تخلف بالكومبيوتر.

البداية كانت مع سيدة ذكية، ماما جميلة كامل. كانت في عام ١٩٨٦ رئيسا لتحرير كتاب الهلال للاولاد والبنات، طلبت أن اقوم بتبسيط رواية «آلة الزمن» لهربرت جورج ويلز، ولما قرأتها بالفرنسية اكتشفت أنها تمجيد للتاريخ الانجليزى. فقررت كتابة رواية للاطفال فيها تمجيد للتاريخ المصرى، وكان أول كتاب لى «مغامرات آلة الزمن العجيبة» الذى حمل اثنين من الاطفال الى خمس أزمنة عربية هى زمن طرد الهكسوس، وزمن كليوباترة، وزمن التأميم عام ١٩٥٦، والقاهرة المعاصرة، وقاهرة المستقبل.. وقد بدا الكتاب محاولة أولية في اخراجه وان كان يضن قصصا من التاريخ

* أقحمنا الصغار في مشاكل الكبار فغادرتهم البراءة.

* كتابة الألغاز جريمة في حق الأطفال.

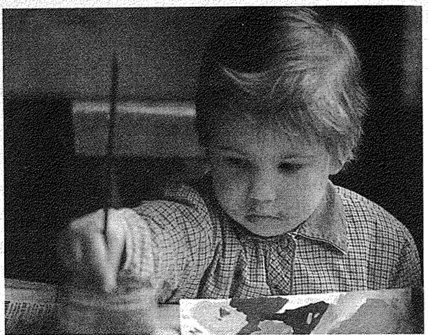
القديم والمعاصر والمستقبلي، وأذكر أن بطلي القصة علاء ودعاء (وهو الاسم المفضل لدي إنه اسم وحيدتي)، قد رحلا الى بور سعيد عام ١٩٥٦، من اجل المشاركة في صد العدوان الثلاثي، وقد تم رسم جمال عبد الناصر بنفس الروح الذى قدم به محفوظ عبد الرحمن فيلمه «ناصر ٥٦»، بما يعنى أننا جميعا عشاق لتلك المرحلة الزمنية سواء من عاش فيها، أو سمع أو قرأ عنها. وقد كنت فى السابعة من عمرى فى تلك المرحلة وهاجرت اسرتنا من الاسكندرية الى أبي حمص.

وبعد عام، أى في ١٩٨٧ طلبت منى ماما جميلة أن أعد كتابا عن المخترعات الحديثة باسم «حكايات غيرت الدنيا» تتبعت فيه عشرة من العلوم الهامة، وذلك من خلال رسوم ستريس، بالاضافة الى قصة خيالية، تدور في اطار أحد هذه العلوم، فلو تحدثنا مثلا عن الانفاق العملاقة كإنجاز علمى، فهناك قصة اطفال تدور في كوبرى الانفاق، أى أن الكتاب قد جمع بين تبسيط العلوم، والقصص المؤلفة.

وعندما تقدمت بكتابي الثانى هذا الى جائزة الدولة لم أكن أتوقع أن يفوز بالجائزة، وفي مرحلة الانتظار غير المتعمدة، كنت قد قدمت في نفس السلسلة كتابا ثالثا تحت عنوان «أجمل حكايات البحر» وقدمتنى زميلتى آمال خطاب الى دار نهضة مصر، فاقترحت عليهم أن نحكي للاطفال قصص افلام السينما الشهيرة فى مجموعة كتب تحمل اسم «أجمل حكايات الدنيا»، وتمت الموافقة على المشروع، وانتهيت من صياغة الكتاب الاول «أوليفرتويست»، ويضم خمسة افلام فرنسية وبريطانية، وأمريكية، وقد قام الناشر بتوزيع مسودات من الكتاب على اطفال وكبار، وابلغنى المدير الفنى آنذاك أن الجميع اتفق على جمال الاسلوب، والطريقة المثيرة في الحكى وشد انتباه القارىء، وبينما نحن نستعد للطباعة، تم اعلان اسمى كفائز بجائزة الدولة التشجيعية، كنت آنذاك فى التاسعة والثلاثين، ولم أكن أتوقع الجائزة بهذه السرعة، كنت أتصور أن علي أن انتظر عشر سنوات، أو عشرين، وربما أكثر، ولا أحصل عليها. كنت اتمشى فى بهو دار الهلال، عندما تابعنى محمد الشاذلى وسألنى: هل انت محمود محمود قاسم فعلا، وألقى علي بالخبر، وكانت فرحة العمر، ولا أنكر أننى استثمرت هذا النجاح دوما، وهذا الوسام، ليس فقط بالعمل على نشر المزيد من الكتب، ولكن لتحسين اسمى، وعملى، وحتى لا أحبط أبدا، وكان همى هو النشر قبل أن احصل على النقود، وكم غلبنا الناشرون في المال، ولكننا كسبنا بنشر كتب هى أهرامنا بعد وفاتنا.

أكتب هذا المقال في نهاية سبتمبر ١٩٩٦، أى

معظم رواياتى مثل «لماذا» ١٩٨١، «الثروة» ١٩٨٣، و«وقائع سنوات الصبا» ١٩٩٤، «زمن عبد الحليم حافظ» ١٩٩٦، «أيام الشارلستون» ١٩٩٧، كما اننى وضعت شعارا «لكتبى» اجمل حكايات الدنيا هو «أنا طفل كبير. اكتب لاصدقائى الصغار وأنا في الاربعين».



ليس مطلوبا من المرء وهو يكتب عن تجربته فى الكتابة أن يحدد مؤلفاته، فالغريب أن الكثير من مؤلفات الاطفال تضيع فى الزحام، يتم استهلاكها بسرعة، ولا يوجد نقاد يتابعون هذا الابداع، والرديء الكثير موجود في المكتبات فى مواجهة القليل الجيد. ولذا مطلوب من الكاتب التركيز على فكره، واهتماماته، وأنا أحب الابداع، وتعددت فيه، من تأليف الى اعداد، وحاولت الاستفادة من اتساع الخيال، وتعاملت مع مخيلتى بمنطق الاسفنج الذى يتشرب المزيد من السوائل (الخيال) ولكن اهتمامى الاساسى هو المعرفة، وقد مزجت اعمالى بين المعرفة، والتخيل، وكرهت الروايات البوليسية سواء للكبار أو الصغار، ولكنها منتشرة، وتكاد تكون الثقافة الاوحد لدى الكثيرين، وقد ضيق علينا هذا النطاق، نطاق التواجد، ونطاق القراءة، وقد ساعدت مثل هذه الروايات في تسطيح الرؤى لدى الجيل الجديد، ولذا فأكثر كتاب الاطفال اليوم يواجهون ثقافة بديلة سيئة فى مقابل ثقافتهم الجيدة، وذلك رغم الازدهار غير المسبوق فى عالم ادب وكتب الطفل.

بعد عشر سنوات وأشهر من بدايتى ككاتب اطفال، لا شك أن تجربتى مع الاطفال أكثر اثمارا من أنشطتى الاخرى، فاذا كانت كتبى الهامة هى موسوعاتى، ورواياتى، فان مساحة الصداقات الواسعة التى كسبتها ككاتب اطفال فى المكتبات التى اقوم بزيارتها، أو هؤلاء الذين يتصلون بى، أو يزورونني هى أهم وأكثر اتساعا من كل أنشطتى الاخرى، لقد نجحت فى استرجاع طفولتى، من خلال هذه الانشطة واكتشفت كم هو سيء عالم الكبار، وكم هو رائع عالم الصغار، ورحت أحاول أن أكون مثل «أوسكار» بطل رواية «الطبلة الصفيح» لجونتر جراس، قررت أن أظل طفلا، ولكن كل من حولى يعاملوننى كأننى كبير.

والمشكلة الآن أننى مشدود الى عدة اتجاهات، الكبار يجذبوننى لعالم البالغين، والصغار يفتحون لى ابواب البراءة، وجسدي يحاول أن يشيخ رغما عن أنفى، اقترب من الخمسين، فأنا من مواليد عام ١٩٤٩، وأنا أسير لكل من يعاملنى كما يرى. ولكن طفولتى هى المفضلة، وقد نجحت في تجسيد طفولتى في



«منطقة الجوف في آثار عصور ما قبل الاسلام للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري٠٠»

«الآثار الاسلامية للدكتور خليل ابراهيم المعيقل»

هاتان المحاضرتان القيتا ضمن أعمال (ندوة تاريخ وآثار منطقة الجوف)، وكانت واحدة فعاليات الأسبوع الثقافي الذي تقيمه مؤسسة الأمير عبد الرحمن السديري كل عام٠٠

ونسعد بنشر المحاضرتين لتعميم الفائدة٠ **المنهل**

منطقة الجوف في آثار عصور ما قبل الاسلام



بقلم أ٠د٠/ **عبد الرحمن الطيب الأنصاري**
ـ الرياض ـ

الجزيرة العربية بكاملها ما هي الا متحف للتاريخ بآثارها وتراثها وحضارتها٠ ولكن عجلة التطور وعجلة التنمية تجعل عالم الآثار في حزن دائم ذلك أنه يحتار بين أن يشارك في هذه التنمية وبين أن يقبض بعجلة التاريخ لكي ينقطع فيستمتع هو ويترك الآخرين يعيشون بطريقتهم الخاصة٠ تلك معضلة كبيرة يعيشها كل عالم آثار٠

ولكن دائماً أقول للناس هل حقيقة أن البقاء للأفضل، وأن الانسان الحاضر أولى بالحياة؟ وكيف يكون لنا هذا التطور وهذه التنمية دون بصيرة من أمر الماضي؟٠

في هذه الأمسية سمعت كلمة قالها الدكتور زياد السديري وهي (أن الانسان لابد أن يرتبط بجذوره ولابد أن يرتبط بتاريخه) فوقعت مني موقعاً خاصاً٠

إننا ندعو بكل حرص على أن نربط الانسان في الجزيرة العربية بجذوره وتاريخه، لأن عصر نهضتنا دخل علينا بكل خلفياته الحضارية ففقدنا كثيراً جداً، في مأكلنا وملبسنا وحياتنا وكل ما كنا قد ورثناه من ماضينا، فكيف يمكن أن نعيد للانسان توازنه بين هذا وذاك؟ والتوازن عملية صعبة في مجتمع معقد له بريق شديد وقوي٠ والاقتصاديون قد لا يعرفون كثيراً مما ندعوا اليه،

ولكنا مع ذلك نُصرّ ونضغط علّنا نستطيع أن نترك للأجيال القادمة شيئاً يفخرون به ويعتصمون به.

وما من شك في أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتراث الاسلامي الخالد عصمة لكل مسلم ولكل عربي، ولكن هذه العصمة يجب أن تكون مرتبطة بالتاريخ أيضاً ليكون هناك توازن بين الروح والعقيدة وبين الوطن وكل شيء له صلة بالأرض وما يفخر به الانسان في ماضيه وما يفخر به في مستقبله.

الجزيرة العربية كما قلت مليئة بالآثار ومليئة بالتاريخ، في كل مكان تذهب إليه تجد التاريخ يقول لك: أنت كنت هنا، وكان لك ابداع وكانت لك حضارة، وبالتالي يجب أن تحاول أن تصطبغ بالصبغة التي يمكن أن تجعل لك لونا وطعماً ونكهة خاصة تختلف عن بقية الأمم في داخل الجزيرة العربية وفي خارج الجزيرة العربية وفي العالم كله لانك ابن الجزيرة العربية.

الجزيرة العربية لها تاريخ طويل عريق منذ آلاف السنين منذ عصور ما قبل التاريخ، ولعل دومة الجندل ولعل الجوف أكبر شاهد على العمق الحضاري في الجزيرة العربية. إن منطقة الشويحطية شمال سكاكا تعود إلى أكثر من مليون سنة، كان الانسان يعيش في هذه المنطقة قبل أكثر من مليون سنة، وتلك آثاره واضحة، ولعلها من أقدم الآثار في هذه المنطقة العربية. وللأسف فإن هذه المناطق جار عليها الزمن ولكن ادارة الآثار، وكذلك الآثاريون استطاعوا أن ينقذوا ما أمكن إنقاذه ومعرفته من فترات تاريخية كادت أن تذهب، ولا ريب أن كثيراً منها قد ذهب.

منطقة الجوف الأثرية هي (ثيرمومتر) الحضارة في الجزيرة العربية، أو هي ساق الشجرة التي غرست في الجزيرة العربية، ويمكن من خلال هذا الساق أن نعرف - من خلال الدوائر التي في الشجرة - الفترات التاريخية التى في الجزيرة العربية، والجيولوجيون يعرفون ذلك ويستطيعون من خلال هذه الدوائر فى ساق الشجرة تحديد عمرها.

عمر الحياة الانسانية في الجزيرة العربية أكثر من مليون سنة على الأرض ومنطقة الجوف أكبر شاهد على ذلك. ثم بعد ذلك نجد مراحل مختلفة.. أبرز فترة تاريخية يمكن أن يشهدها الانسان ويستمتع بها هي منطقة تسمى الرجاجيل وهي عبارة عن مكان فسيح وفيه أنصاب، هذه الأنصاب تتكون من مجموعات كل مجموعة يتراوح عددها ما بين نصبين إلى خمسة أو ستة أنصاب، وتمثل قاعدة كل مجموعة من الأنصاب حدوة حصان في فلاة من الأرض، هذه النماذج من الآثار لا يمكن أن يوجد مثلها وبتاريخها في الجزيرة العربية الا في هذه المنطقة التي تسمى الرجاجيل ويعود تاريخها الى الألف الرابع قبل الميلاد، وهذا التاريخ المتواضع وضع لها قياساً على ما هو موجود ببريطانيا مما يسمى «ستون هنجز» الموجودة بالقرب من لندن ويعود تاريخها الى الألف الثالث قبل الميلاد فقياسا على أن الحضارة بدأت في الشرق وأنها تشبه تلك الموجودة في بريطانيا أعطيت هذا التاريخ، وهو تاريخ في رأيي أقل مما يجب أن تؤرخ به.

ولكن علماء ما قبل التاريخ لم يستطيعوا بعد أن يجروا التنقيبات اللازمة التي تحدد الفترة التاريخية الحقيقية للمنطقة بما تطمئن إليه النفس. ثم بعد ذلك تجد الكثير من مظاهر الحياة، سنشاهد كثيراً من الآثار الغنية التي تركها انسان الجزيرة العربية وتركها انسان

الجـوف في هذه المنطقـة. وهذه الآثار لا يزيد عمقها التاريخي عن الألف الثالث قبل الميلاد. أي أن الانسان في هذه الجزيرة كان يعيش بكل أفراحه وأتراحه أينما تكون الماء وتكون الخضرة وتكون الحياة.

وبالمناسبة فإن هذه المنطقة من أكثر المناطق خصباً في الجزيرة العربية خاصة أنها الطرف شبه النهائي لوادي السرحان وتقع في الجرف الذي يلتقط المياه والذي ترى فيه اخضرارا واضحاً أينما ذهبت في هذه المنطقة.

دخلتْ هذه المنطقة بعد حوالي الألف الثالث قبل الميلاد في مرحلة تاريخية، ونقصد بالمرحلة التاريخية تلك الفترة التي بدأ فيها الانسان يكتب، عندما بدأ الانسان يكتب.. بدأ التاريخ، بدون كتابة لا تاريخ حتى في مجاهل افريقيا، حتى في مجاهل أمريكا الجنوبية، قبل أن يبدأ الانسان في الكتابة حتى لو قبل ٦٠٠ سنة هو لا زال في مرحلة ما قبل التاريخ، التاريخ هو الكتابة.

عندما بدأ الانسان يكتب في وادي الرافدين وفي وادي النيل بدأت حركة التاريخ فيهما. ولكن نحن لا نعرف حتى الآن متى بدأ الانسان يكتب في الجزيرة العربية، متى بدأ الانسان يؤرخ في الجزيرة العربية، تلك الفترة من الفترات العويصة أو نقطة من النقاط الصعبة التي لم يستطع العلماء أن يحددوها حتى وقت متأخر بالنسبة للجزيرة العربية، نعرف متى بدأ يؤرخ في بلاد الشام ووادي النيل ولكن بالنسبة للجزيرة العربية لا نعرف متى كان ذلك، ولكن من خلال الكتابات الموجودة في جنوب الجزيرة العربية استطعنا أن نضع تاريخاً مبدئياً ورغم شكنا فيه إلا أنه من المحتمل أن يكون الانسان في الجزيرة العربية بدأ يكتب منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد وربما بعد ذلك، لكن المشكلة التي تواجهنا هي أن الكتابة في جنوبي الجزيرة العربية بدأت متكاملة، والانسان عندما يبدأ يكتب لابد أن يمر بمراحل في محاولاته حتى يستطيع أن يصل إلى هذه النماذج الجميلة من الحروف والأشكال الهندسية، المربعة - المستطيلة - المعينات وغيرها.

ما هي المراحل التي مر بها الانسان العربي حتى وصل إلى هذا التكوين الكامل والأبجدية المتكاملة في الجزيرة العربية؟.

من المعتقد أن شمال الجزيرة العربية كان هو الموطن، لماذا؟ لأنا وجدنا حضارة جنوب الجزيرة العربية حضارة متكاملة، اذن أين كانت البدايات التي بدأ انسان الجزيرة العربية يسجل فيها تاريخه ويقوم بأدواره الحضارية؟.

في اعتقادي أن هذه المنطقة هي التي تقع شمال «رملة عالج» حتى تيماء والعلا والحجر حتى خليج العقبة، وفي وادي رم في الاردن تلك كانت هي المنطقة أو المناطق التي شهدت بدايات الحضارات الأولى. في مطلع النصف الأول من الألف الأول ق.م كانت هناك ملكات في شمال الجزيرة العربية وتعرفنا على خمس أو ست منهن كن يحكمن في شمال الجزيرة العربية لم نجد ملكة واحدة في جنوب الجزيرة العربية. هؤلاء الملكات كن يحكمن في فترة تسبق نشأة الممالك في جنوب الجزيرة العربية. نشأت الممالك المعروفة في جنوب الجزيرة العربية حسب آخر تحديد زمني في القرن الثامن قبل الميلاد على خلاف بين المؤرخين وربما بعد ذلك. في حين نجد أن الملكات في شمال الجزيرة يعود تاريخهن الى حوالي القرن التاسع قبل الميلاد. كنا نجد ملوك آشور وبابل يأتون الى شمال الجزيرة العربية في حملات متلاحقة لغزو هذه المنطقة، ويهدمونها ويأسرون ملكاتها ويأخذونهن بأقفاص

من ذهب ويطوفون بهن في شوارع نينوى في العراق ثم بعد فترة من زمن يعدن إلى أماكنهن ثم يأتون في حملة أخرى.

وقد سجلت الألواح الآشورية حوالي ست أو سبع غزوات متوالية من ملوك آشور وبابل الى الجزيرة العربية.

لماذا الجزيرة العربية؟ لماذا شمال الجزيرة العربية ومن وادى الرافدين؟.. التجارة.. الرزق.

شمال الجزيرة العربية وشمال غرب الجزيرة العربية كان هو عنق الزجاجة للاقتصاد التبادلي بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها فكان من قبض على دومة الجندل قبض على كل القرى الموجودة بعدها. لذا كانوا يقولون إذا سقطت دومة الجندل سقطت كل القرى الموجودة حتى يثرب وهذا ما حصل فعلا. لذلك نجد أن الآثار الموجودة في دومة الجندل هي من أقوى الآثار، ولذلك سميت الجندل (دومة الجندل) والجندل هو الصخر أي بنيت من الصخر لتكون هي الخط الاول للدفاع عن التجارة في الجزيرة العربية.

عندما جاء (نبونيد) في القرن السادس قبل الميلاد دخل دومة الجندل ثم اتجه الى تيماء وقتل عشرين ألفا من رجالها وبنى قصره وعاش عشر سنوات ووصل الى يثرب كما يزعم - وكانت يثرب ضمن المستعمرة البابلية في ذلك الوقت - واستمر عشر سنوات ثم لظروف سياسية في العراق عاد اليها. عندما قبض على دومة قبض على يثرب لأن الاقتصاد اليثربي هو شريان حياة الجزيرة العربية. ولذا نجد أن هناك صراعاً بين وادي الرافدين ووادي النيل للقبض على طريق التجارة في الجزيرة العربية.

فإذا ما توقفت حملات وادي الرافدين جاءت حملات مصر، ولكن حملات مصر التى سجلت وعرفت حتى الآن جاءت متأخرة في الفترة البطلمية خلال القرن الثالث قبل الميلاد وما بعده.

إذ كان هناك صراع بين الأدوميين وبين الأنباط من جهة وبين حكام وادي النيل في ذلك الوقت من جهة أخرى.

لعلكم تتصورون معي أن مدينة هذا هو حجمها السياسي والاقتصادي في شمال الجزيرة العربية، لابد أنها كانت من الثراء ومن القوة ما يمكنها أن تصمد أمام هجمات الآشوريين والبابليين. ولذلك ففي اعتقادي أن منطقة الجوف بكاملها (دومتها والمدن الأخرى فيها) كانت تعج بالحركة الاقتصادية والتجارية والثقافية أيضا. ولذلك فما وجدناه من كمية من الكتابات المسجلة من الفترة التاريخية سواء أكانت كتابات بالقلم المسند أم كتابات نبطية أم كتابات القوافل، تعطينا معلومات عن الحياة الاجتماعية والثقافية التي كانت موجودة في هذه المنطقة. إن الشيء الذي حاولت بسطه أمامكم الليلة ما هو إلا معلومات حاولت أن ألخصها عن فترة ما قبل الميلاد. أما عن فترة قبيل الاسلام أو فترة ما بعد الميلاد فقد كانت دومة الجندل أيضاً منطقة استراتيجية في الصراع الدولي بمسمى ذلك العصر. ولذلك نجد أن سوق دومة الجندل هي من الأسواق المهمة، فعندما تكون القوة في ميزان المنازرة كانت كنده هي التي تسيطر على السوق ويمثلها.. السكونيون، وإذا كان العكس كانت قبيلة أخرى مثل كلب هي التي تسيطر على السوق. ولذلك كان السوق الذي يستمر حوالى شهر في دومة الجندل محل قوة وسطوة، من يبدأ أولا؟ من يأخذ الرسوم؟ من يبيع ويشتري قبل الآخر؟ كل هذه الأشياء تأتي حسب القوة السياسية الموجودة في ذلك العصر.

ففي تصوري أن القبائل العربية كما كانت تتنافس في سوق عكاظ لابد أنها كانت أيضا تتنافس في سوق دومة الجندل.

ودومة الجندل بحكم أنها على الحدود كانت تجرى فيها بعض الأشياء التي لم تكن مستحبة كثيراً عند العرب ولكنها سجلت. وهي مظهر من مظاهر الانفتاح في ذلك العصر. ومن الأشياء التي ذكرت في دومة الجندل أيضاً أنها نقلت الكتابة وتطورت فيها دون بقية بلاد العرب ثم علمت أهل مكة كيف يكتبون. وهذه مما تذكر ضمن مفاخر دومة الجندل أي أنه عن طريقها تعلم المكيون الكتابة. وعلى الرغم من علامات الاستفهام التي توضع وبشدة على هذه المقولة الا أننا يمكن أن نقول لابد أن يكون سكان دومة الجندل أو سكان الجوف كانوا يكتبون ويقرأون، وهذا ما تدل عليه الكتابات المسجلة على سفوح الجبال وعلى الصخور وكأن ليس همهم الا أن يكتبوا وليس هم الأخرين الا أن يقرأوا.

إن مقولة أن أهل دومة الجندل كانوا يقرأون ويكتبون شيء نسلم به، وأما أنهم علموا أهل مكة ذلك فهذا ما نتوقف عنده من هو ذلك الشخص الذي علم أهل مكة؟ هو بشر بن عبد الملك شقيق الأكيدر الذي ذهب إلى الحيرة في العراق وتعلم الخط العربي من أهلها، ثم أتى إلى مكة وتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي. رآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. فسألاه أن يعلمهما الخط.

هنا نقف. سفيان بن أمية وأبو قيس بن عبد مناف يسألان بشر بن عبد الملك أن يعلمهما الخط، يجب أن نتساءل أولا هل هناك معاصرة بين الاثنين؟ هذا ما يجب أن نتحقق منه.

الشيء الآخر سفيان بن أمية سيد من سادات قريش يطلب من عربي يأتي من شمال الجزيرة العربية أن يعلمه الخط كيف يكون هذا وخاصة أن مكة قد وصلت إلى أوجها الاقتصادي وأوجها المالي وأوجها الفكري إذ لابد أن تكون في ذلك العصر قد استخدمت الكتابة. ولذلك كان النبي الأمي ومعجزته الانتساب للأمية في مجتمع يقرأ، هو مجتمع قريش.

فسألاه أن يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتبا. وفي ذلك قال شاعر من دومة الجندل موجها كلامه إلى أهل مكة معرباً عن فضل أهل دومة الجندل عليهم من جهة تعليمهم الكتابة:

فلا تجحدوا نعماء بشر عليكمو
فقد كان ميمون النقية أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو
من المال ما قد كان شيئا مبعثرا
وأتقنتموا ما كان من المال مهملا
وأطمنتم ما كان منه منفراً
فاجمعتم الأقلام عودا وبدأة
وضاهيتم كتاب كسرى وقيصرا
وأغنيتم عن مسند الحي حميراً
وما زبرت في الصحف أقيال حميرا

البيت الأخير: هذا مهم جداً رغم ما فيه من افتئات، معنى ذلك أن مكة إلى فترة قصي كانت تكتب الخط الحميري أما ما بعد قصي فقد بدأت تكتب بخط الشمال. من أين جاءها خط الشمال؟ هذه قصة أخرى:

مما يبدو لي أن الأنباط الذين سقطوا تحت سيطرة الرومان سنة ١٠٦ ميلادية نزحوا للجنوب فوجدوا في مكة والكعبة موئلا لهم من سطوة الرومان الذين ضموا كل منطقة القرى

العربية حتى يثرب إلى ما أسموه: المقاطعة العربية وتمت سيطرة الدولة الرومانية.

أي أن الأنباط هربوا إلى داخل الجزيرة العربية، ولاذوا بمكة والبيت ومكة لا تستطيع أن تصل إليها أيدي الرومان لبعدها ولما حباها الله به من أمن واطمئنان لمن يلوذ بالبيت. فوجد الأنباط في مكة حمى لهم. ومن هنا انتقلت الكتابة (وكان الأنباط شعباً مثقفاً ومتعلماً) إلى مكة وانتقلت الكتابة إلى الطائف والى غيرها من المناطق وقبل ذلك كما يقول هذا الشاعر كانت مكة تكتب بالخط الحميري (الخط المسند) لا أريد أن أطيل كثيراً لكن هناك بعض الأشياء التي يمكن أن أقولها، وإن كنت أود ترك فرصة للنقاش.

في دومة الجندل (قصر مارد) من القلاع الحصينة في الجزيرة العربية، وأقدم ما وجد فيه من آثار يعود الى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد وأحدث ما فيه يعود إلى بداية المملكة العربية السعودية، أي أنها شريحة من شرائح التاريخ المتسلسل منذ ذلك العصر حتى الآن.

لو أتيتم قبل خمسة عشر عاما لوجدتم دومة الجندل غير ما هي عليه اليوم. كانت مدينة متكاملة بها سوق من أجمل الأسواق زال كثير منها، وقد حفرت فيها ادارة الآثار وأظهرت فيها نمطا من الأنماط المعمارية النبطية التي نفتقر لها في الجزيرة العربية.

في دومة الجندل مسجد، يقول الناس عنه هنا أنه لعمر بن الخطاب، ولكنني أضع أكثر من علامة استفهام حول هذه التسمية وحول هذه النسبة. هل جاء الى هنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟ عمر بن الخطاب لم تذكر له رحلة الا عندما ذهب الى بيت المقدس وعاد، عندما ذهب الى بيت المقدس ذكر المؤرخون الطريق الذي اتبعه، أما كيف عاد فهذا ما لم يذكره المؤرخون.

عودة عمر بن الخطاب من بلاد الشام الى المدينة لم تذكر في كتب المؤرخين. النمط المعماري الموجود لا يختلف عن النمط المعماري الموجود في المدينة المنورة ولا في مكة المكرمة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولا بعده هذا النمط من المآذن لم يعرف الا في دمشق.. الا في بلاد الشام عندما بدأ الأمويون يضاهون معابد النصارى في بلاد الشام فبنوا المآذن. اذن هذه المئذنة هل هي مئذنة؟ وهذا المسجد هل هو لعمر بن الخطاب أم عمر آخر؟

كنا نقول إن مدائن صالح هي مدائن نبي الله صالح، حتى جاء الشيخ حمد الجاسر وأثبت أن المسمى (صالح) ليس هو نبي الله صالح وانما هو وال من ولاة العباسيين كان في وادي القرى فسميت هذه المدائن باسمه ومن المعروف أن الاسم التاريخي لها هو الحجر.

وأنا أميل أن يكون هذا (العمر) هو عمر غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أو وال من الولاة الذين جاءوا الى هذه المنطقة خلال العصر العباسي أو اسم قبيلة كانت تسكن دومة وبُنيَ هذا المسجد ونُسبَ اليها فسمي مسجد عمر. الناس يقولون مسجد عمر وليس عمر بن الخطاب ولا ندري. ولعله نسبة الى بني عمرو الذين كانوا يسكنون الدومة حتى عصر قريب، وهذا هو الأقرب للقبول.

ولذلك لابد أن تعمل معاول الآثاريين في معرفة الطبقات التاريخية لهذه المئذنة أو لهذه الصومعة والمسجد بالحفر في داخله والحفر حوله حتى نعرف متى بنيت تماماً. وهذه المئذنة غير الملتصقة بالمسجد أيضا يجب أن يحدد تاريخها بشكل جيد.



الآثار الاسلامية في منطقة الجوف

بقلم:
د/ خليل بن ابراهيم المعيقل
الرياض

تعد منطقة الجوف من المناطق الأثرية المهمة في شمال الجزيرة العربية، ويعود تاريخ المنطقة لعصور سحيقة في القدم، بل ان هذه المنطقة تحتضن أقدم موقع استوطنه الانسان في الجزيرة العربية وذلك موقع الشويحطية الذي يعود تاريخه لأكثر من مليون سنة. يضاف الى ذلك عشرات المواقع الأثرية التي تعود لعصور ما قبل التاريخ المختلفة. اما خلال العصور التاريخية التي أكدت مراحل الاستيطان المختلفة التي شهدتها المنطقة خاصة خلال الألف الأول قبل الميلاد وحتى بداية البعثة النبوية، هذه المواقع الأثرية وما تحويه من شواهد بارزة فوق سطح الأرض أو أخرى مندثرة ومطمورة تعكس مرحلة تعد من أهم مراحل ازدهار الحضارة والرقي والتي تزامنت مع تطور واتساع النشاط الاقتصادي وحركة القوافل البرية التي كانت منطقة الجوف احدى أهم المحطات الرئيسة على مسار تلك القوافل. معظم الشواهد الأثرية تعود لهذه المرحلة حيث ازدهرت المدن الرئيسية في المنطقة واتسع عمرانها وازدادت أهميتها السياسية والاقتصادية مما انعكس ذلك على عملية حماية وتأمين هذه المدن عن طريق بناء القلاع والأسوار والتي لازالت بقاياها قائمة في كل من دومة الجندل وسكاكا.

مع بداية التاريخ الاسلامي كانت منطقة الجوف من أهم الواحات الواقعة في شمال الجزيرة العربية وكانت مركزاً رئيساً للقبائل العربية. أهمية هذه الواحة تنبع أولا من موقعها الاستراتيجي في نقطة وسط بين المراكز الحضارية المختلفة، جنوب وادي الرافدين وبلاد الشام من جانب ومنطقة وسط الحجاز من جانب آخر. ثانياً كونها أحد أهم المراكز التجارية في شمال الجزيرة العربية.

يضاف إلى العاملين السابقين عامل آخر يتمثل بتلك الخصائص والمقومات التي تمتاز بها المنطقة من وفرة المياه الجارية والأراضي الصالحة للزراعة وقيام حرف وصناعات محلية تلبي حاجات هذا المجتمع المتنامي، لذلك استطاع الانسان في هذه المنطقة استغلال حركة قوافل التجارة التي تتوقف في المنطقة وقام بتزويد هذه القوافل بما تحتاجه من مياه ومؤن وتبادل مع أفراد هذه القوافل منتجاته بأخرى يحتاج إليها، ومع مرور الوقت تطور دور دومة الجندل لتصبح واحدة من أهم أسواق العرب في الجاهلية.

خلال بداية الدعوة الإسلامية كانت منطقة الجوف خاضعة فعلياً لسلطة دولة الغساسنة التي كانت بدورها تحت هيمنة الامبراطورية

البيزنطية. وهذا ربما يكون الدافع الذي جعل بعض الجغرافيين المسلمين يعدون دومة الجندل شامية حيث نجد الواقدي يشير إلى غزوة الرسول {صلى الله عليه وسلم} لدومة الجندل على أنها أول محاولة للرسول {صلى الله عليه وسلم} والمسلمين لفتح الروم.

اهتمام الرسول {صلى الله عليه وسلم} بمنطقة الجوف جاء مبكراً حيث قاد بنفسه {صلى الله عليه وسلم} غزوة كانت موجهة ضد دومة الجندل وخرج الرسول {صلى الله عليه وسلم} وصحبه في الخامس والعشرين من ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة وعاد من دومة الجندل إلى المدينة في العشرين من شهر ربيع الآخر من نفس السنة.

غزوة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} تعد أطول غزواته {صلى الله عليه وسلم} من حيث بُعْد المسافة وكان من أهداف هذه الغزوة كما أشار إليها الواقدي رغبة الرسول {صلى الله عليه وسلم} أن يقترب من حدود الشام لأن دومة الجندل تعد تابعة لبلاد الشام، هذا ربما يفزع الامبراطور البيزنطي. كذلك ذكر سبباً آخر لهذه الغزوة يتمثل في وجود جمع كبير من الناس في دومة الجندل وكان هؤلاء يعتدون على التجار المتجهين نحو المدينة. سار رسول الله {صلى الله عليه وسلم} نحو دومة الجندل وكان معه دليل من بني عذرة يسمى مذكور، ولما دنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} من دومة الجندل وأصبح على مسافة مسيرة يوم أو ليلة ذهب دليله مذكور يستطلع المنطقة المحيطة بدومة الجندل وعندما عاد أخبر الرسول {صلى الله عليه وسلم} بخبر القوم.. وعندما وصل رسول الله {صلى الله عليه وسلم} دومة الجندل ونزل بساحتهم لم يجد بها أحداً ومكث بها أياماً وعاد إلى المدينة، أحداث هذه الغزوة التي أوردها الواقدي بالتفصيل تؤكد أن الهدف الرئيسي لهذه الغزوة هو العمل على فتح الدولة البيزنطية، وقد تحقق هذا الهدف بوصول الرسول {صلى الله عليه وسلم} إلى دومة الجندل ، لذا يعتقد أن هذه الغزوة تمثل مقدمة لاحتكاك المسلمين المباشر مع الروم (البيزنطيين) في السنوات التالية في غزوة تبوك.

بعد سنة تماماً من غزوته {صلى الله عليه وسلم} إلي دومة الجندل أرسل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه على رأس سرية إلى دومة الجندل كان هدفها دعوة أهل دومة الجندل للاسلام، بعد وصول ابن عوف إلى دومة الجندل مكث ثلاثة أيام يدعوهم للاسلام وفي اليوم الثالث استجاب أحد شيوخهم الأصبغ بن عمرو الكلبي للاسلام وقد كان نصرانياً وأسلم معه نفر من قومه، كتب عبد الرحمن بن عوف إلى الرسول {صلى الله عليه وسلم} كتاباً يخبره بذلك ويستأذنه الزواج منهم، رد عليه الرسول {صلى الله عليه وسلم} كتاباً يأمره بالزواج من تماضر بنت الأصبغ، ففعل عبد الرحمن وأتى بها المدينة وولدت له أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، يتضح من سياق وأحداث هذه السرية أنها كانت موجهة إلى دعوة أهل دومة الجندل للاسلام ولم يكن لها أهداف سياسية أو عسكرية.

في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة وخلال غزوة تبوك بعث رسول الله {صلى الله عليه وسلم} خالد بن الوليد من تبوك على رأس أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك ملك دومة الجندل، كان هدف هذه السرية أكيدر صاحب دومة الجندل، وهذا اتضح من تعليمات الرسول {صلى الله عليه وسلم} التى وجه بها خالد بن الوليد للظفر بأكيدر حياً واحضاره إلى

رسول الله {صلى الله عليه وسلم} استطاع خالد أسر أكيدر بن عبد الملك وقدم به المدينة على رسول الله {صلى الله عليه وسلم} الذي صالحه على الجزية وكتب له ولأهل دومة كتاب صلح وأورد نصه الواقدي، هذه السَّرِيَّة حققت الهدف الذي بعثها الرسول {صلى الله عليه وسلم} من أجله وهو خضوع دومة الجندل تحت سلطة الدولة الإسلامية.

خلال خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه نقض أكيدر ملك دومة الجندل العهد ورفض دفع الجزية التي كان يؤديها لرسول الله {صلى الله عليه وسلم}، لذلك بعث أبو بكر الصديق عياض بن غنم على رأس سرية لفتح دومة الجندل، لكن هذه السرية لم تستطع تحقيق هدفها بسبب الأعداد الكبيرة من القبائل التي وفدت لنصرة دومة الجندل. ونظراً لهذا الوضع كتب أبو بكر الصديق كتاباً لخالد بن الوليد الذى كان بعين التمر يأمره بالتوجه صوب دومة الجندل لمساعدة عياض بن غنم، وباتجاه خالد نحو دومة أحدث خللا في تحالف القبائل العربية التي وفدت لنصره أهل دومة، لأن أكيدر عندما علم بمسيرة خالد حاول اقناع القبائل العربية بالتصالح بدلا من الحرب لخوفه من الهزيمة المحققة على يد خالد بن الوليد، وهذا ما حدث فعلا حيث استطاع خالد وعياض هزيمة الجمع، وفتح حصن دومة الجندل وقتل من فيه من الرجال، وبذلك طويت صفحة من تاريخ المنطقة ودخلت منذ تلك اللحظة تحت سلطة المدينة المنورة والدولة الإسلامية، وقد أحدث هذا الفتح تغيراً ملحوظاً في أوضاع المنطقة التي دانت بالإسلام وأصبحت جزءاً مهماً من أراضي الدولة الإسلامية، بعد هذا التاريخ سكتت المصادر الإسلامية عن ذكر دومة الجندل حتى سنة ثمان وثلاثين، وهى السنة التي اجتمع فيها الحكمان بدومة الجندل للنظر في قضية خلاف علي ومعاوية رضوان الله عليهم.

وقد اختلفت المصادر في مكان التحكيم ففي حين تذكر معظم المصادر أن دومة الجندل هي المكان الذي اجتمع فيه الحكمان ترى أخرى أن موقع أذرح في جنوب بلاد الشام هو موضع التحكيم، من خلال استعراض الآراء المطروحه خاصة تلك التي تتعلق بموقع دومة الجندل المتوسط الذي يقع على مسافات متساوية من دمشق والكوفة وبالنظر لموقع أذرح القريب جداً من دمشق فانه من غير المتوقع أن يرضى عليّ بارسال أصحابه إلى منطقة نفوذ معاوية، وبالتالي فان هذا يجعل دومة الجندل المكان المناسب من حيث موقعها الجغرافي المتوسط وكذلك حيادها السياسي.

بعد أحداث قضية التحكيم صمتت المصادر عن ذكر أية معلومات عن دومة الجندل وهذا الوضع ينطبق على عدد كبير من المستوطنات والمدن الواقعة في الجزيرة العربية وكان هذا محصلة لانتقال مركز السلطة السياسية من داخل الجزيرة العربية إلى خارجها وأصبح الاهتمام منصباً فقط على الحرمين الشريفين وما عدا ذلك لم يهتم الكتاب بتتبع التاريخ المحلي للمدن والمستوطنات الداخلية.

الآثار الاسلامية في المنطقة:

تمثل الآثار التي تعود للعصور الاسلامية المختلفة أبرز آثار المنطقة، حيث إن معظم الآثار البارزة فوق السطح تعود للعصور الاسلامية باستثناء قلعة مارد التي انشئت قبل الاسلام وظلت مستخدمه معظم العصور الاسلامية حتى وقت قريب جداً. كثافة الآثار الاسلامية وتنوعها جعلت المنطقة من أهم المناطق الأثرية الاسلامية

في المملكة العربية السعودية وأصبح لهذه المواقع الأثرية مكانة مميزة وبارزة في أوساط الدارسين والمهتمين في الآثار الاسلامية.

تتميز الآثار الاسلامية بعدة ميزات أهمها تنوع هذه الآثار حيث تحتوي المنطقة على عدد من المساجد الأثرية أبرزها مسجد عمر بن الخطاب الذي يعد من أقدم المساجد الأثرية وأهمها في المملكة العربية السعودية. كذلك هناك مدينة دومة الجندل القديمة التي تعتبر من أهم المدن العربية الاسلامية في المملكة نظراً لأنها حافظت على أبرز خصائص المدينة العربية القديمة وكذلك نظراً لطبيعة الجزء المتبقي من المدينة والذي لازال قائماً في وضع جيد يعكس لنا نمط تخطيط المدينة القديمة وعلاقة هذا التخطيط بالظروف البيئية والمناخية، أما في مدينة سكاكا فلا زالت أجزاء بسيطة من بقايا المدينة الاسلامية باقية وهذه تتمثل في قلعة زعبل المطلة على المدينة من الجهة الشمالية، يضاف إلى ذلك قصر صغير يقع إلى الغرب مباشرة من قارا وهو قصر القدير الذي يعود بناؤه إلى سنة ٥١٨هـ.

أما الآثار الخطية التي تعود للعصر الاسلامي فتتمثل بعدد كبير من النقوش العربية التي يفوق عددها المئة، هذه النقوش تنتشر في مواقع مختلفة من المنطقة ويؤرخ أقدمها لسنة ١٢١هـ.

مدينة دومة الجندل الاسلامية:

قبل أن نتطرق للآثار الاسلامية في دومة الجندل لابد أن نشير إلى نقطة مهمة جداً يغفلها كثير من الدارسين للمدن الاسلامية في الجزيرة العربية ، هذه النقطة تتمثل بمدى تأثر المدن الاسلامية في الجزيرة العربية بالمدن القديمة خاصة في حالة استمرار المدينة في كلا العصرين كما هو وضع دومة الجندل، نشأت المدن العربية القديمة وتطورت عبر قرون عديدة استطاع الانسان خلالها التكيف مع الظروف المختلفة المحيطة به، هذه الظروف انعكست على وضع المدن من الناحية التخطيطية والمعمارية، حيث استطاع الانسان أن يطور نماذج تخطيطية تتلاءم مع ظروف المكان وبالتالي فان تطور المدن مع تلك الظروف ساعد على الوصول إلى نمط لتخطيط المدينة العربية القديمة تغلب فيه الانسان على ظروف المناخ الصعبة، هذا التخطيط لم يتغير كثيراً خلال العصر الاسلامي بل إن كثيراً من مقومات ذلك التخطيط ظهرت في تخطيط المدينة الاسلامية مع اضافة بعض التعديلات فيما يتعلق بعلاقة المسجد بالتكوينات المعمارية الأخرى ونمط تخطيط المنازل الذي تأثر بتعاليم الدين الاسلامي الذي حدد علاقة الجوار واستقلالية المسكن وحماية أسراره. هذا الوضع ينطبق على تخطيط مدينة دومة الجندل في عصورها المختلفة.

يعتمد تخطيط مدينة دومة الجندل على منطقة مركزية يتوسطها مسجد عمر بن الخطاب وتحف بها قلعة مارد من الجهة الجنوبية، أما المنطقة السكنية الرئيسة فتقع إلى الشمال والغرب من المسجد ويمثلها حي الدرع، الذي لازالت أجزاء كبيرة منه قائمة، أما الجزء الآخر من المنطقة السكنية فيقع إلى الشرق من قلعة مارد في تلك المنطقة التي تتخللها تلول أثرية وآبار مياه هذا الجزء من المدينة مندثر ويظهر على السطح بقايا لمساكن تمتد لمسافة بعيدة باتجاه الشرق ويتوسط هذه المنطقة بقايا مسجد أثري صغير.

الأجزاء الأخرى من مدينة دومة الجندل تقع ضمن حدود سور دومة الجندل الذي يماثل وضع المدينة (يثرب) قبيل الهجرة النبوية، حيث كان نمط الاستيطان عبارة عن أحياء متفرقة صغيرة

الحجم، كان يتبعها مزارع النخيل التي تنتشر في الوقت الحاضر في الجهات الغربية والشمالية والشرقية.

قلعة مارد في العصر الإسلامي:

أثبتت المصادر التاريخية والأدلة الأثرية أن قلعة مارد التي يعود بناؤها إلى عصر ما قبل الاسلام استمر استخدامها خلال العصور الاسلامية المختلفة، وقد أشارت المصادر الاسلامية أن خالد بن الوليد خلال مرحلة فتح دومة الجندل قام بكسر باب القلعة بسيفه، وكان هذا الحدث نهاية للشرك والضلال وبداية لدخول منطقة الجوف في الدولة الاسلامية.

آثار القلعة المعمارية تشير إلى مراحل بنائية مختلفة مرت على القلعة كان آخرها الترميم الذي قام به ابن شعلان في حدود سنة ١٩٢٢م، وإن استخدام القلعة في العصور الاسلامية لم يغير كثيراً من وضع القلعة وتخطيطها وربما خضعت القلعة خلال تلك المراحل إلى الصيانة الدورية وإعادة الترميم وهذا يتضح من الأجزاء السفلية وبعض الجدران العلوية خاصة في الجهة الغربية التي تأكد أنها من بقايا عمارة عصر ما قبل الاسلام.

المساجد الأثرية في دومة الجندل:

تحوي دومة الجندل مسجدين قديمين الأول مسجد عمر بن الخطاب والثاني مسجد أثرى مهدم يقع إلى الشرق من قلعة مارد في وسط المنطقة السكنية المندثرة، يضاف إلى هذين المسجدين مسجد ثالث متأخر يقع داخل المبنى الملحق بقلعة مارد ويحمل كثيراً من السمات التخطيطية والمعمارية لمسجد عمر بن الخطاب، إلا أن هذا المسجد متأخر جداً.

مسجد عمر بن الخطاب:

يقع مسجد عمر بن الخطاب في وسط مدينة دومة الجندل القديمة ملاصقاً لحي الدرع من الجهة الجنوبية، ويعد من المساجد الأثرية المهمة إن لم يكن من أهمها على مستوى المملكة، وتنبع أهمية المسجد من عدة نقاط، الأولى تخطيط المسجد الذي يمثل استمرارية لنمط تخطيط المساجد الأولى، حيث إن هذا التخطيط يذكرنا بتخطيط مسجد الرسول {صلى الله عليه وسلم} في المدينة في مراحله الأولى وكذلك يشبه تخطيط المساجد الأولى التي بنيت في مدن الأمصار في كل من البصرة والكوفة والفسطاط، كذلك تبرز أهمية هذا المسجد من محافظته على نمط تخطيطه بالاضافة إلى أن المسجد لم يتعرض لإعادة بناء أو توسعة كبيرة كما حدث لكثير من المساجد في العالم الاسلامي، تخطيط مسجد عمر يعتمد على مسقط مستطيل الشكل تقريباً أطواله ٣٢٫٥ × ١٨م، يتكون المسجد من رواق القبلة الذي يحتل حوالي ثلثي مساحة المسجد، حيث تبلغ المساحة المغطاة من المسجد ٣٢٫٥ × ١٠٫٢م ويتخلل هذا الرواق ثلاثة صفوف من الدعامات الحجرية موازية لجدار القبلة، يتكون الصف الأول القريب من جدار القبلة من عشر دعامات بينما يتكون الصف الثاني والثالث من تسع داعامات.

يتوسط جدار القبلة حنيتان متشابهتان تمثلان المحراب والمنبر والمحراب الواقع على يسار المنبر أكبر حجماً من المنبر، اتساع فتحته ٨٠ سم وعمقه ١٫١٥م، بينما المنبر اتساعه ٦٥ سم وعمقه ١م ، يعلو المحراب والمنبر عقد مثلث مكوّن من كمرتين حجريتين مستندتين على بعضهما البعض بزاوية ٦٠ درجة، يتكون المنبر من درجتين وجلسة ويتصل بالمحراب عن طريق فتحة مستطيلة في الجدار الفاصل بينهما.

تنتشر علي طول واجهة جدار القبلة تجاويف

مربعة استخدمت لحفظ المصاحف والكتب الدينية. الواجهات الداخلية لجدران رواق القبلة غطيت بطبقة من اللياسة الطينية والأجزاء السفلية من هذه اللياسة طليت بطبقة من الجص.

استخدم في تغطيات المسجد سقف مستو يتكون من خشب الأثل الذي يعلوه سعف النخيل المغطى بطبقة طينية خضراء اللون.

تقع مئذنة المسجد في الركن الجنوبي الغربي للمسجد وتبرز عن مستوى جدار القبلة، قاعدة المئذنة مربعة الشكل طول ضلعها ٣م وجدرانها الحجرية تضيق إلي الداخل كلما ارتفعت إلى الأعلى حتى تنتهي بقمة شبه مخروطية، يبلغ ارتفاع المئذنة الحالي ١٢٫٧م. وقد شيدت المئذنة بكاملها من الحجارة. وتتكون المئذنة من خمسة مستويات، المستوى الأرضي والذي يمثل قاعدة المئذنة ويتكون من بناء حجري مصمت يخترقه من المنتصف ممر ضيق يؤدي إلى مدخل المنطقة السكنية، يعلو هذا المستوى أربعة مستويات أخرى يتخللها سلم حجري داخلي يتكون من ألواح حجرية محمولة على طنف حجرية تبرز عن مستوى المئذنة الداخلي. يتوقف السلم الحجري عند المستوى الثاني. أما المستويان العلويان فالوصول إليهما عن طريق سلسلة من الأحجار التي تبرز عن مستوى الجدار الداخلي. يمكن تحديد المستويات عن طريق فتحات النوافذ التي تتخلل جسم المئذنه في الاتجاهات الأربع.

تاريخ بناء المسجد ونسبته إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من القضايا التي لم تحسم لأننا لا نملك الدليل القطعي على ذلك.

دخول الجندل تحت لواء الدولة الاسلامية الناشئة في وقت مبكر واسلام عدد كبير من سكانها يجعل وجود مسجد ضرورة ملحة وبالتالي فان نسبة المسجد إلى الخليفة عمر بن الخطاب ربما لم تأت من فراغ، إلا أن المصادر الاسلامية لم تذكر شيئا عن ذلك، وبالتالي سوف تظل هذه القضية تثير المزيد من الأسئلة حتى يتسنى قيام أعمال حفر داخل المسجد قد تمدنا بأدلة مادية تحدد تاريخ بناء المسجد ومراحل استخدامه خلال العصور الاسلامية.

مسجد أثري يقع إلى الشرق من قلعة مارد:

يقع هذا المسجد إلى الشرق مباشرة من قلعة مارد في منتصف ساحة مكشوفة تتخللها تلول أثرية وبقايا مبان مهدمة، لاحظ كاتب هذا المقال في إحدى زياراته لدومة الجندل وجود بقايا كتله معمارية تمثل جزءاً من مبنى تهدمت أجزاؤه الأخرى وعند مشاهدة هذه الكتله المعمارية من جهتها الشمالية اتضح أنها تمثل جزءاً من جدار قبلة لمسجد، يتوسط هذا الجدار محراب ومنبر مشابه تماماً لمحراب ومنبر مسجد عمر.

بقية جدار القبلة وتفاصيل المسجد الأخرى مهدمة بالكامل ولم يبق منها إلا بئر قديمة يظهر أنها كانت تقع ضمن جدران المسجد وربما في احدى زوايا صحنه، إن طبيعة الجزء المتبقي من المسجد تؤكد بما لا يدع مجالا للشك قدم هذا المسجد الذي كان يخدم المنطقة السكنية المهدمة المحيطة به من جميع الجهات.

تحديد تاريخ بناء هذا المسجد لن يكون ممكناً حتى يتم حفر المسجد والمنطقة المحيطة به.

بقايا المدينة القديمة (حي الدرع):

الجزء المتبقي من المنطقة السكنية لمدينة دومة الجندل الاسلامية يتمثل الآن في حي الدرع الواقع إلى الشمال من قلعة مارد والملاصق لمسجد عمر بن الخطاب. يقع حي الدرع في وسط دومة الجندل القديمة وتحيط بالحي من الجهتين الشمالية والشرقية مزارع النخيل، بينما

تقع سوق المدينة القديمة إلى الجنوب الغربي من المباني القائمة، هدم سوق المدينة من أجزاء من حي الدرع الغربية والجنوبية قبل أكثر من عشرين عاماً ومساحة الأجزاء التي هدمت من المدينة القديمة تمثلها الساحة المكشوفة الواقعة إلى الجنوب الغربي من مسجد عمر، لذلك فمساحة الحي الحالي صغيرة قياساً الى وضع الحي قبل عملية الهدم.

منشآت الحي المعمارية القائمة تعود للعصر الاسلامي الوسيط لكنها في الوقت نفسه تقوم فوق طبقات أثرية وأساسات مبان مبكرة يعود بعضها لمنتصف الألف الأول قبل الميلاد، والحفريات الأثرية التي تمت داخل هذا الحي أكدت وجود أدلة أثرية تحت مستوى أساسات المباني الحالية تعود لعصور ما قبل الاسلام، وهذا يؤكد استمرار سُكْنَى المدينة خلال العصور التاريخية المختلفة وما هذه المباني القائمة الا استمرار لمدينة دومة الجندل المبكرة.

في هذه الدراسة المختصرة سوف نركز فقط على الخصائص التخطيطية والمعمارية لما تبقى من مدينة دومة الجندل الاسلامية حيث تشير الأدلة الأثرية إلى أن نمط التخطيط وعناصر العمارة المتمثلة في هذا الحي هي الصفة الغالبة على وضع مدينة دومة الجندل بكاملها كما تظهر بوادر ذلك في بقايا منشآت معمارية تقع إلى الشرق من قلعة مارد وتحمل سمات تشابه تلك التي نراها في حي الدرع.

مداخل الحي:

مساحة حي الدرع وتوسطه تفرض وجود عدد من المداخل التي تسهل حركة السكان باتجاهات مختلفة، لذلك ربطت المنطقة الوسطى من الحي بعدد من المداخل التي تؤدي إلى أجزاء المدينة المختلفة.

من خلال وضع الحي القائم هناك ثلاثة مداخل:

الأول: يقع في الجهة الجنوبية بالقرب من مئذنة مسجد عمر، وهو المدخل الرئيسي للحي الذي يربط مساكن الحي بمنطقة السوق والمسجد والقلعة، كان هذا المدخل يمر عبر جسم مئذنة المسجد باتجاه مدخل ذي عقد دائري لازال قائماً في الوقت الحاضر.

المدخل الثاني: يقع في منتصف الواجهة الشرقية للحي في نهاية ممر ضيق يتجه من الميدان الأوسط باتجاه الشرق ويؤدي إلى مزارع النخيل الواقعة شرق الحي.

المدخل الثالث: يقع في نهاية ممر ضيق يتجه من الميدان الأوسط شمالا ويؤدي إلى مزارع النخيل الواقعة شمال الحي.

الشوارع الضيقة والأزقة:

تمثل الشوارع والأزقة الملتوية والضيقة أهم ملامح مدينة دومة الجندل القديمة، هذه الخاصية تشترك فيها معظم المدن القديمة في الجزيرة العربية وكانت إحدى المؤثرات التي فرضتها الظروف المناخية على تخطيط المدينة.

جميع شوارع وأزقة حي الدرع ملتوية وضيقة ويتراوح عرضها بين ٥ر١ - ٥ر٢م تقريباً تزيد وتنقص في بعض الأماكن ، الممر الرئيسي في الحي هو الممر الذي يربط المدخل الجنوبي (الأول) بالميدان الأوسط ذي العقود، الميدان الأوسط مثل النقطة المركزية في الحي الذي ربط بأربعة أزقة ضيقة تربط أجزاء الحي المختلفة بالمنطقة المركزية. تصميم هذه الممرات والأزقة بهذا الوضع له ميزات بيئية واجتماعية وأمنية.

الميدان الأوسط :

يقع الميدان الأوسط في قلب حي الدرع ويمثل القلب بالنسبة للحي مساحة هذا الميدان ليست كبيرة، الجزء المغطى من الميدان بمجموعة من

العقود نصف دائرية مدببة تبلغ مساحته ١٢ × ٦م. تعلو هذا الميدان ثلاثة عقود متوازية باتجاه شمال جنوب، تحمل هذه العقود سقفاً مستوياً من خشب الأثل وسعف النخيل كما تصطف على جانبي هذا الميدان مصاطب حجرية استخدمت للجلوس كما يظهر من اسطحها الملساء، يرتبط بهذا الميدان أربعة ممرات تربط أجزاء الحي المختلفة.

منازل حي الدرع :

حي الدرع أهم الأحياء السكنية القديمة بدومة الجندل، ويتكون هذا الحي من مجموعة كبيرة من المنازل ذات أحجام مختلفة. يعتمد نمط تخطيط هذه المنازل على وجود فناء أوسط أو فناءين أمامي وخلفي تفتح عليهما وحدات المنزل المختلفة. تتكون منازل حي الدرع في غالبها من دورين وفي حالات محدودة من ثلاثة أدوار، الدور الأرضي يقسم إلى قسمين، غرفة الاستقبال الرئيسية (المجلس) خاصة بالرجال ويتقدمها عادة فناء صغير الحجم ويفتح هذا الفناء على أحد الممرات أو الأزقة التي تتخلل الحي القسم الثاني من الدور الأرضي خصص لأهل الدار، وغالباً ما يتكون هذا الجزء من غرفة أو غرفتين ومطبخ معزول ومستقل في معظم الحالات، تفتح غرف هذا الجزء على ساحة خلفية كبيرة، الدور العلوي يحتوي على عدد محدود من الغرف بعضها خصص للاستخدام الصيفي وهذا يظهر من عدد النوافذ واتساعها وكبر حجم الداخل. يتقدم هذه الغرف فناء علوي مكشوف محاط بجدران بارتفاع قامة الانسان.

مدينة سكاكا في العصر الاسلامي :

أكدت ألأدلة الأثرية التي وجدت في مدينة سكاكا وفي محيطها مراحل الاستيطان التي مرت بالمدينة والتي تبدأ من قرون عديدة تسبق الاسلام. عثر على بعض الأدلة الأثرية مثل وجود كسر من فخار فترة العصر الحديدي المتأخر (القرن الخامس قبل الميلاد) حول قلعة زعبل، اضافة إلى بئر سيسرا التي يعتقد أنها تعود للعصر النبطي (القرن الثالث قبل الميلاد - القرن الثاني الميلادي) يضاف إلى ذلك عدد كبير من النقوش الثمودية والنبطية التي تنتشر في مدينة سكاكا والمناطق القريبة منها. كل هذه الأدلة تؤكد أن مدينة سكاكا كانت مركزاً سكنياً مهماً في تلك المرحلة وتؤكد كذلك أن الاستيطان في المدينة لم ينقطع حتى العصر الحالي.. بقايا المدينة القديمة اختفت ولم يصل إلينا منها سوى قلعة زعبل وهذا كان محصلة لعدة أسباب منها الاستمرار السكني في المدينة الذي أدى إلى هدم المباني في عصور مختلفة وكان لضعف مادة البناء المستخدمة وهي اللبن والطين دور كبير في زوال المباني بعكس مدينة دومة الجندل التي حافظت على أجزاء من مبانيها التي شيدت من الحجارة.

أشار ياقوت الحموي الذي توفي سنة ٦٢٦هـ إلى مدينة سكاكا وذكر أنها احدى القرى التي منها دومة الجندل وذكر أنه كان يحيط بسكاكا سور كما لدومة الجندل لكن سور دومة الجندل أكثر تحصينا. هذه الاشارة تعد أقدم ما وصلنا عن سكاكا في العصر الاسلامي، ولا شك أن لهذه المعلومات أبعاداً كثيرة يمكن أن نبني عليها بعض الآراء حول وضع المدينة خلال العصور الاسلامية المبكرة. فالاشارة لوجود أسوار لمدينة سكاكا في نهاية القرن السادس الهجري تؤكد أن المدينة كانت مزدهرة معمارياً لأن الأسوار غالباً ما تنشأ في مرحلة ازدهار المدن وتوسعها عمرانياً مما يجعل حماية هذه المنشآت أمراً ملحاً. والآثار المعمارية فيها اختفت تماماً ربما

نتيجة لتلك الظروف التي أوردناها أعلاه.

قلعة زعبل :

تقع قلعة زعبل في الطرف الشمالي لمدينة سكاكا، وتقف فوق قمة مرتفع صخري معزول تطل على مدينة سكاكا الواقعة إلى الجنوب منها، يرتفع مستوى القلعة عن الأرض المحيطة بمقدار ٢٥ متراً، وهذا الارتفاع جعلها موقعاً مهماً حيث استخدمت القلعة للمراقبة والدفاع عن المدينة.

شيدت قلعة زعبل من الحجر الرملي والطوب اللبن بطريقة غير متقنه مقارنة مع عمارة قعلة مارد. ومخطط القلعة يأخذ شكلا غير منتظم حيث اتخذ مسقط القلعة شكل قمة المرتفع الصخري. طول القلعة ٥٠ متراً وعرضها يتراوح بين ١٧ ،٢٠ متراً. تحف بأركان المبنى أربعة أبراج دائرية أكبرها البرج الملاصق لمدخل القلعة الواقع في الواجهة الجنوبية. أما التكوين الداخلي للقلعة فيتكون من ساحة مكشوفة تحيط بها الأسوار والأبراج الأربعة. في منتصف الساحة من الجهة الشمالية توجد غرفة وحيدة منفصلة ذات مسقط شبه دائري، هذه الغرفة بنيت فوق مرتفع صخري صغير أعلى من أبراج القلعة إلى يسار المدخل وملاصقة للسور الداخلي توجد غرفة مستطيلة ذات مدخل يفتح باتجاه الشمال ويقع على جانبي هذا المدخل نافذتان.

القلعة محاطة بسور خارجي، يتصل بالأبراج. أساسات هذا السور والتي شيدت من الحجر الرملي حتى ارتفاع ١م ، أما الأجزاء العلوية من الأسوار فاستخدم في بنائها الطوب اللبن. ارتفاع أسوار القلعة ٢ ـ ٨٥ر٢م وسماكة جدرانها ٦٠ ـ ٧٠ سم.

يصعب تحديد تاريخ بناء القلعة بشكل دقيق في غياب دليل مادي أو نص كتابي يحدد بشكل قاطع تاريخ البناء. الأدلة الأثرية التي وجدت حول القلعة والتي يعود أقدمها للقرن الخامس قبل الميلاد، اضافة إلى عثور كاتب المقال على أنماط من الفخار العباسي في سفح المرتفع الصخري الذي تقوم عليه القلعة، هذه الأدلة تشير الى احتمالية إرجاع تاريخ القلعة ليس فقط للعصر الاسلامي المبكر بل ربما لعصر ما قبل الاسلام.

قصر القدير إلى الغرب من قارا :

يقع هذا القصر إلى الجنوب من سكاكا وإلى الغرب مباشرة من قارا بني القصر على الحافة الشرقية لسلسلة الجبال الواقعة غرب قارا. المبنى صغير جداً وغير منتظم مساحته حوالي ٧ × ٥ر٦م يتكون مخطط المبنى من برج كبير يقع في الجزء الشمالي الغربي وآخر صغير يقع في الركن الجنوبي الشرقي تنحصر بين البرجين مساحة مكشوفة يقسمها جدار أوسط إلى قسمين. بنيت جدران المبنى على سفح صخري، تبلغ سماكة هذه الجدران ٣٠ ـ ٤٠ سم وارتفاعها يتراوح بين ٨٠ر م ـ ٢م. المدخل الوحيد للمبنى يوجد في الواجهة الجنوبية الشرقية ويمكن الوصول إلى مدخل المبنى عن طريق درج شيد محاذياً لسطح الجبل. استخدم في بناء هذا القصر أحجار رملية مجلوبة من الجبال المحيطة وبني بطريقة بدائية غير متقنة.

أهمية هذا المبنى تنبع من وجود نقش كتابي يؤرخ لهذا البناء وجد على أرضية صخرية تقع مباشرة إلى شمال المبنى بمسافة حوالي أربعة أمتار. قراءة هذا النقش كالتالي:

١ ـ قام حماد بن كعب في عمارة هذا البيت.

٢ ـ سنة ثمنية عشر وخمسمائة.

٣ ـ وكتب بريك بن جبر غفر الله له ذنوبه.

٤ ـ أول يوم من المحرم.

يؤرخ هذا النقش بناء القصر لليوم الأول من شهر محرم سنة ٥١٨هـ وحدد الشخص الذي قام بانشاء هذا المبنى وهو حماد بن كعب.

المبنى مهم جداً لكونه يحمل نصاً تأسيسياً، وهو المبنى الوحيد في المنطقة الذي يؤرخ بشكل قاطع. وإلى الشمال من المبنى وعلى مسافة ٢٠٠م تقريباً لوحظت بئر قديمة وإلى الشمال منها توجد بعض الأساسات الحجرية التي تنتشر على مساحة محدودة، أما الفخار الملتقط من هذا الموقع يشير الى فترة القرن السادس - السابع الميلادي مع وجود بعض كسر الفخار الأموي. هذه الأدلة أقدم بكثير من البناء القائم.

الآثار الخطية (الكتابات الاسلامية) :

تنتشر في منطقة الجوف أعداد كبيرة من النقوش الاسلامية المبكرة في مواقع مختلفة من المنطقة، وقد تم تسجيل أكثر من ١٢٠ نقشاً معظمها يتركز في قارة النيصة غرب مويسن وجبل الحماميات، والقرعاء غرب سكاكا، وموقع القدير غرب قارا. معظم هذه الكتابات دونت بالخط الكوفي البسيط. تقسم هذه النقوش حسب مضامينها إلى أربع مجموعات. المجموعة الأولى تحوي مضامين ذات صبغة دينية مثل طلب المغفرة والرحمة واعلان الشهادة. المجموعة الثانية عبارة عن نصوص ذات صبغة تجديفية المجموعة الثالثة عبارة عن نقوش تذكارية. أما المجموعة الرابعة فهي عبارة عن نقوش تأسيسية تؤرخ لمبنى. وأقدم هذه النقوش وأهمها نقش مؤرخ لسنة ١٢١هـ وهذه النقوش مهمة في دراسة تطور الكتابة العربية خلال العصر الأموي.

نقش من قارة النيصة:

عثر على هذا النقش على الواجهة الصخرية الغربية لقارة النيصة إلى الغرب من قصر مويسن. يتكون هذا النقش من تسعة أسطر وكتب بخط كوفي بسيط ومؤرخ بسنة ١٢١هـ. يعد هذا النقش أقدم النقوش العربية المؤرخة التي وجدت في منطقة الجوف.

قراءة النقش :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم.
٢ - اللهم اغفر للاحارث.
٣ - بن صاغر ما تقدم من ذ.
٤ - نبه وما تأخر امين ثم ا.
٥ - مين رب محمد وا.
٦ - برهيم رب العلمين و.
٧ - كتب في وحدة و.
٨ - عشرين وماية سنة.
٩ - ان الحكم لله.

المصادر والمراجع:

البلاذري، الامام ابي الحسن.
فتوح البلدان، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ الحموي، ياقوت.
معجم البلدان، بيروت، دار صادر، دار بيروت ١٣٧٤م.
الجاسر ، حمد
في شمال غرب الجزيرة ، الرياض، دار اليمامة ١٣٩٠هـ
السديري، عبد الرحمن بن أحمد.
الجوف - وادي النفاخ، الجوف، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية.
ابن سعد.
الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، دار بيروت ١٣٧٦هـ .
الطبري ، أبي جعفر محمد بن جرير.
تاريخ الرسل والملوك، حققه م.ج. دي جوج، ليدن، ابريل، ١٩٦٤م.
المعيقل ، خليل بن ابراهيم.
«مسجد عمر بن الخطاب بدومة الجندل» مجلة جامعة الملك سعود (الآداب «١») المجلد السادس، ١٤١٤هـ، ص ١٩٥ - ٢١٦.
المعيقل ، خليل بن ابراهيم.
«نقشان عربيان مبكران من سكاكا «مجلة الدارة»، العدد الثالث، السنة التاسعة عشرة ١٤١٤هـ.
«الاستيطان الحضاري في منطقة الجوف منذ أقدم العصور» الجوبة، العدد الأول نوفمبر ١٩٩٠م.
ابن هشام، ابي عبد الملك بن هشام المعافري.
السيرة النبوية لابن هشام، قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبد الرءوف سعد، القاهرة، مكتبة ومطبعة الحاج عبد السلام بن محمد بن شقرون، ن.د.
الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد.
كتاب المغازي حققه مارسدن جونس، لندن، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦م.

King, G.R.A Mosque Attributed to UMar b. al-Khattab in Dumat Al - Jandal inal - gawf, Saudi Arabia, Gras" 2, (1978) 109 - 23.
The Historical Mosques cf Saudi Arabia, London and Now York , Longman, 1986.
Al - Muaikal, K.i.
Study of The Arachacology of The Jawf Region, Riyadh, King Fahd National Library Publications, 1994
Wallin, G.A.,
Travel in Arabia (1845 and 1848) Cambridge Falcon Oleander, 1979.



٩٩

في البلدان والعمران ..
في التقاليد والأعراف
في تقاطع وجوه الناس
السائح يستقريء الملامح ويرسم اللوحة



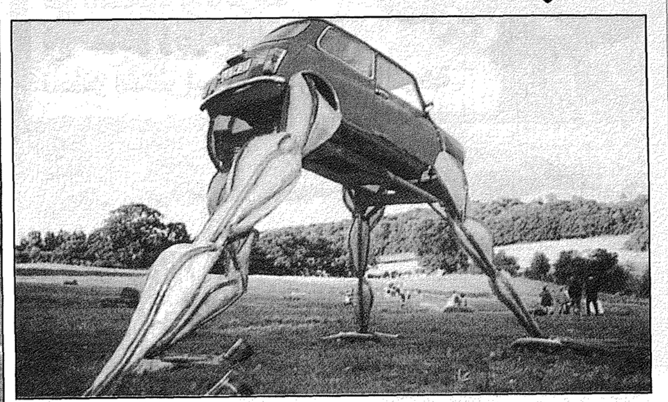
مشاهدات من فيتنام

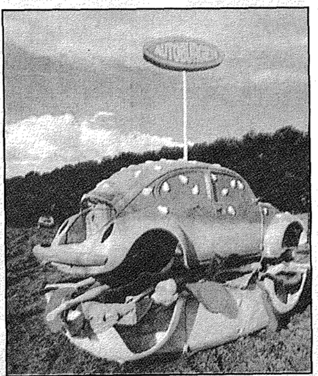


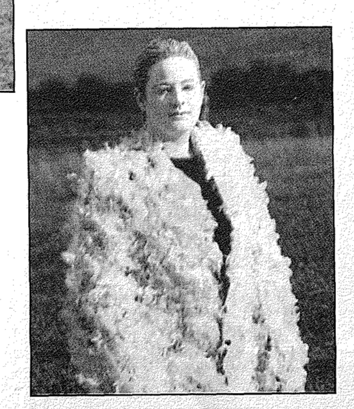


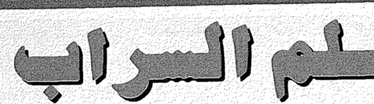
في هذا العدد من السائح

البيئة .. الحـ









حلم السراب

في المدن الكبرى في كل أنحاء العالم أصبح الناس يحلمون باستنشاق هواء نقي غير ملوث بعوادم السيارات، وأدخنة المصانع.

الهواء النقي، والجو الهادىء الخالي من الضجيج، والانوار الساطعة.. إنه الحلم الاكبر الآن .. وما فتيء الإنسان يأسف علي شيء صنعه بيده أسفه على صناعة الضجيج والتلوث.

وفي محاولة لتقريب (حلمه) الجميل هذا إلى نفسه صنع الانسان صنعاً (موازياً) أسماه (أصدقاء البيئة).

إنها محاولة لإصلاح ما أفسده الانسان نفسه.. ولعله ينجح.. وإلا ـ على أقل تقدير ـ لينام في ظل هذا الحلم الجميل.

هذا الذي نراه، معرض فني لـ (أصدقاء البيئة) استخدموا فيه كل ابداعاتهم الفنية للتعبير عن مدى سخطهم على تعديات الانسان على البيئة.

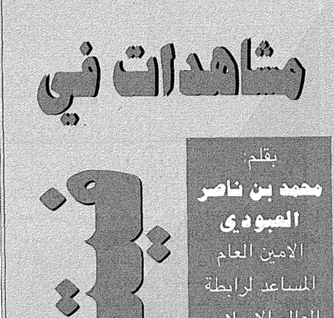
والمناسبة هي أن إحدى الوكالات البريطانية كانت قد بدأت في انشاء المرحلة الثانية لاحدى الطرق السريعة، فكان هذا المعرض لتذكير الناس بأخطار السيارات.

ولعل أطرف ما في هذا المعرض هذا (البيت الزجاجي) الذي يقيم في داخله أناس وزهور وسيارة، في تعبير صريح لهروب الانسان من هذا الجو القاتل ليحتمي في هذا البيت الزجاجي.

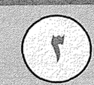
الهدوء .. الراحة .. الصحة.. هل ستبقى كل هذه مجرد حلم في بيئة نظيفة .. انه الحلم السراب.

**** السياحة، قراءة ذكية الشعوب ، عاداتهم ، أعرافهم ، تقاليدهم ، في المسكن والملبس والمأكل.. في السلوك والمعاملات .. في الجماعات والافراد. في أديانهم وعقائدهم وطقوسهم .. كل ذلك يعطي صورة حقيقية عن طبائع البشر ومعطيات حياتهم.**

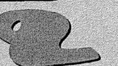
هذه حلقات متتالية للأستاذ العبودي، مشاهدات وقراءات وتأملات في شعب فيتنام.



بقلم:
محمد بن ناصر العبودي
الامين العام المساعد لرابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة







إلى المسجد المبارك :

انتقلنا في وسط المدينة مع شوارع واسعة ذات أشجار باسقة وسوق - جمع ساق - غليظة، ومع الزحام المعتاد من الدراجات ومن الأناسي.

ووسط المدينة مُعتنى به، فالزفت جيد في أرض شوارعه وإن كانت الأرصفة فيها ليست بذاك، ومررنا فوق جسر كبير على نهر (بن دونغ) والنهر نفسه ضخم، ومع ذلك فهو ليس بالنهر الذي أسست عليه المدينة ذاك نهر أكبر منه اسمه (نهر سايقون) سوف يأتي الكلام عليه عندما نصل إليه بإذن الله.

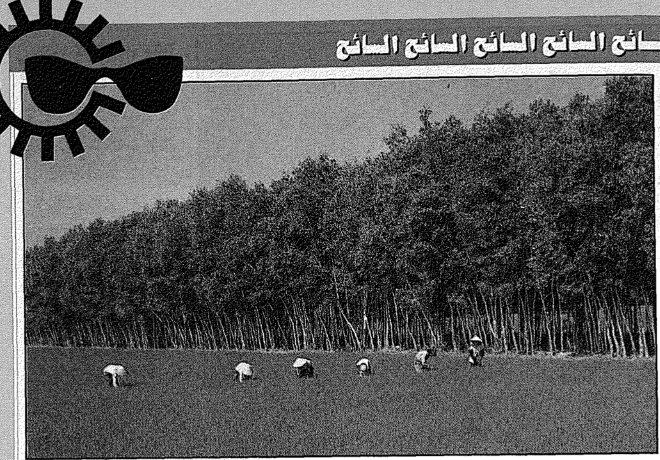
ومع وجود هذا النهر الضخم الذي يشعر بالغنى ووفرة المياه، فإن البيوت التي على ضفافه على عكس ذلك فهي بيوت من الخشب الذي اسود من القدم ومن الصفيح الذي احمر على الدهر حتى صار اللون غير البهيج هو الغالب على الجميع.

وأما البيوت التي خلف هذه البيوت الواقعة على ضفافه فإنها مبنية من الإسمنت أكثرها من طابق أو طابقين، ولكنها غير بهيجة أيضاً فأكثرها قد بهت طلاؤه وذهب رونقه.

نزلنا بعد تجاوز النهر فدخلنا في حي بيوته اسمنتية صغيرة وشوارعه أزقة ضيقة فأوقفنا السيارة ودخلنا نسير على أقدامنا في زقاق من تلك الأزقة حتى وصلنا في رأسه إلى المسجد المبارك وقد كتبوا عليه اسمه بلغة تشامبا ذات الحروف العربية (سوراو مبارك) وبالملايوية بني عام ١٩٦٧م.

وسوراو: عندهم تعني المسجد الصغير مثلما أن الجامع يعني المسجد الكبير الذي تقام فيه الجمعة أو يصلح لأن تقام فيه الجمعة.

ومع ذلك لم ندخل إلى (المسجد المبارك)



- الزراعة والخضرة.

مباشرة، وإنما ذهبنا إلى بيت غير بعيد منه وهو لأحد الإخوة المسلمين واسمه (سليمان محيي الدين) وهو نائب رئيس جمعية المسجد.

جلسنا لعدة دقائق ننتظر صاحب المنزل فرأيت في منزله لوحات تشهد على أنه منزل مسلم متدين من ذلك الشهادتان بالعربية بخط جميل، وصورة لمسجدين، وقد ذكروا أن الأخ (سليمان محيي الدين) يشتغل بالتجارة، ثم حضر رئيس جمعية المسجد وهو الأخ (عمر بن محمود) والإمام الحاج يعقوب بن عبد الله وهو متفرغ للإمامة في هذا المسجد وليس له عمل آخر.

بحثنا معهم بعض شؤون المسجد فذكروا أنهم لم يتسلموا أية مساعدة من الخارج إلا ما كانوا يتلقونه من أبناء وطنهم المسلمين المهاجرين في أوروبا وأمريكا، وكلهم من تشامبا.

ثم انتقلنا لرؤية المسجد فوجدناه في غاية الضيق لا يكاد يتسع لعشرين من المصلين، ومع ذلك ذكروا لنا أنه يصلي فيه الجمعة ما بين ٣٠ إلى ٤٠ ولا أراه يتسع لذلك.

وهو في الطابق الثاني من بناء ضيق له درج من الخشب الواقف يشفق من يصعد منه من الإنزلاق أو عدم استطاعته الصعود لا سيما بالنسبة لكبار السن الذين هم المواظبون على الصلاة في العادة، وهذا من العجب. ومن العجب فيه أيضاً أن الإمام كانت في يده لفافة من التبغ وهو يدخن داخل المسجد وفي حضورنا، ونحن ضيوف من مكة المكرمة لم يمنعه ذلك من التدخين، فطلبت منهم بوساطة المترجم الإمام الشيخ محمد يوسف أن لا يدخن أحد في المسجد، لأن الدخان له رائحة كريهة

عندما لا يتعاطاه مثلنا، كما ينبغي أن ينزه المسجد عنه.

وعلى ذكر الدخان لاحظت أن كثيراً من المسلمين مثل غيرهم من سائر الناس هنا يدخنون كثيراً، وقد أثر الدخان في أفواههم لوناً رمادياً غير محبب، وفي صدورهم التي غدت لها فحيح، وفيها سعال شديد، وربما رجع ذلك إلى سوء التغذية مع الدخان الى جانب ما قد يكون في الدخان الذي تنتجه بلادهم من رداءة أو عدم تنقية مما يزيد من ضرره.



ـ من الحدائق العامة في سايقون.

قالوا وهم يأسفون لضيق المسجد: إن بجانبه بيتاً لأحد المسلمين يريد أن يبيعه ونحن في حاجة إليه لتوسعة المسجد ولكن ثمنه غال إنه يطلب ١٥ مليون دونغ. وقد استعظموا ذلك مع أنه لا يزيد على ألف ومائة دولار، فوعدتهم خيراً، ونزلت لأرى هذا البيت فوجدته ضيقاً، ولكن ثمنه بخس فهو لا يتجاوز أربعة آلاف ومائتي ريال سعودية ومساحة البيت ٢٦ متراً مربعاً.

ثم عدنا إلى حيث أوقفنا سيارتنا في الشارع الرئيسي خارج الحي ويسمى هذا الشارع (فام تاهي) ، أما الحي فاسمه (رات أن).

وقد ودعنا الإخوة المسلمون الذين تجمهروا علينا لأنهم عرفوا بقدومنا بسرعة بسبب ضيق الحي وقلة من يأتي إليهم من الأجانب.

ولم أرد الإنصراف عن هذه المنطقة إلا بعد الوقوف على ضفة هذا النهر التي يقع الحي فيها على سوء حالته وحالة أهله من الناحية الاقتصادية.

فذهبنا نسير على أقدامنا حتى ضفة النهر لأن السيارة لا تصل إليها لضيق الطريق بين البيوت وعدم وجود الزفت فيه. فوجدته كما رأيته من فوق الجسر عريضاً ضخماً جمّ المياه ووجدت مجاري المياه الخبيثة الخارجة من البيوت تصب فيه.

وقال لي الشيخ محمد يوسف: إننا لا نشرب منه، إن مياه الشرب تأتي من نهر (داون تاي) خارج المدينة، وأهم ما هو ظاهر فيه هو أن البيوت التي تقع على ضفافه مرفوعة عن الماء بخشب وبعضها نصفها فوق الماء، ونصفها فوق اليابسة، ولكنها كلها مرفوعة بأخشاب عن

الأرض أو عن الماء.

ولمناسبة اعجابي بهذا النهر وغزارة مياهه مع أنه ليس النهر الرئيسي في المدينة قال لي الشيخ محمد يوسف: إنه توجد في منطقة (هوشي منه) عشرة أنهار.

ووقفنا بعد ذلك في شارع اسمه (يان باناك) واقع في حي (تي بانغ) من أجل التصوير وملاحظة الناس، ولأنهم أخبرونا أن أكثر سكان هذا الحي هم من المسلمين.

ولم يضف هذا إلى معلوماتنا إلا تأكيد كون مدينة (هوشي منه) مدينة واسعة، وأنها لو قدر لها أن تخلع عنها قيود الشيوعية فإنها سيكون لها مستقبل اقتصادي باهر.

جامع الأنور :

كان الذهاب بعد ذلك إلى (جامع الأنور)، حيث وقفت سيارتنا في شارع رئيسي غير واسع، دخلنا منه إلى زقاق ضيق لا يتسع لمرور السيارة، ومع ذلك هو في غاية السوء من حيث عدم النظافة والعناية، وتقع عليه بيوت صغيرة من الخشب الرديء سقوفها من القش، وقد تكون لبعضها أساسات من لبن الإسمنت، ومع ذلك كله فهي مهملة إهمالا ظاهرا يظهر ذلك من عدم ترميمها أو إصلاحها مما يدل على الفقر وضيق ذات اليد.

ونفذنا من ذلك الزقاق الضيق إلى زقاق آخر أقل منه ضيقاً. ولكن رأينا فيه ما يدل على أن سكانه من الفقراء وإن لم نكن في حاجة إلى دليل وهي مقادير من قشور جوز الهند التي هي ثمار النارجيل قد نشروها على الأرض لتجف ثم يستعملونها للوقود، وكذلك رأينا فيه حزماً من سعف النارجيل معدة للوقود.

ثم وصلنا الجامع (جامع الأنور) فوجدنا طلبة المدرسة الملحقة به، بل الواقعة في جانب منه وهم يخرجون من المسجد بعد أن أدوا صلاة الظهر وهم بمظاهرهم الإسلامية التى من أهمها عندهم أن يكون على الرأس غطاء من قلنسوة (طاقية) أو نحوها وعلى أساتذتهم قمص عربية طويلة كالقمص التي نلبسها نحن في بلادنا.

واحتجت إلى وضوء فأخذوني إلى مضخة أرضية يدفع الماء منها باليد يرفعها رجل منهم ويخفضها فيصب منها الماء، فصلينا الظهر والعصر جمعاً في المسجد وحدنا.

ثم تأملته بعد الصلاة وهو مستطيل إلا أنه بجميع مساحته لا يعد كبيراً، والمراد بذلك المصلى خاصة، وإلا فإن المسجد كله ليس صغيراً، إذ له أروقة محيطة به، منها رواق تشغله مقاعد للمدرسة الإسلامية، وقد كتبوا على محرابه بخط عربي جيد، (بسم الله الرحمن الرحيم، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا).

أما سبورة المدرسة فإن عليها كتابة بالحروف العربية قال بعضهم: إنها باللغة الملايوية ولا أدري معنى هذا إلا أن تكون بلغة تشامبا التي يقول بعضهم بوحدة أصلها مع شعب الملايو على اختلاف بين الناس فيما إذا كان أهل تشامبا قد جاؤوا إلى هذه المنطقة الواقعة بين ما يعرف الآن بأنه الحدود بين فيتنام وكمبوديا في أزمان قديمة، أم أن أهل الملايو كانوا طائفة منهم من أهل تلك المنطقة في الأصل، وانتقلوا إلى الملايو بعد ذلك، وقد سبق ذكر ذلك.

علمنا أن عدد المصلين في هذا الجامع يوم الجمعة يتراوح ما بين ٦٠ إلى ٧٠ مصلياً وفي

الأوقات المعتادة ٣٠ مصلياً. والواقع إننا رأينا تصديق ذلك في عدد المصلين الذين حضروا الصلاة بعد الظهر هذا اليوم.

التف علينا طائفة من الإخوة المسلمين وحدثونا أن (الجامع الأنور) هذا بُنيَ بناؤه الحالي في عام ١٩٨٥م وأنه كان في مكانه قبل زمن مسجد صغير، وأنه كان قد جدد في عام ١٩٦٤م. وأخبرونا بشيء مهم هو أنه قبل ٤٥ سنة لم يكن في هذا الحي ولا منطقته أحد من المسلمين من مواطني فيتنام ويقصدون بذلك بالدرجة الأولى المسلمين من أصل (تشامبي) وإنما كان هناك مسلمون من أهل الهند ولكنهم رحلوا عن البلاد.

ثم انتقل المسلمون هؤلاء وسكنوا هذا الحي وعدداً من الأحياء وأمثاله في مدينة (هوشي منه) جاؤوا إليها من منطقة الحدود بين كمبوديا وفيتنام التي هي منطقة تشامبا.

وقد عزموا علينا أن نبقى قليلا عندهم وفرشوا حصيراً على الأرض جلسنا عليه معهم وانتهزت هذه الفرصة للحديث معهم في أمور دينهم وفضل من تمسك به مثلهم رغم الصعاب من قلة الأنصار، ونقص الأموال وضعف الوسائل. وقلت لهم: إنني أرجو أن يكتب لكم أجر القابض على دينه في آخر الزمان الذي قال فيه رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: سيأتي على الناس زمان الصابر فيه على دينه كالقابض على الجمر، له أجر خمسين، قال الصحابة: منا أم منهم؟ قال: بل منكم. أي له أجر خمسين من صحابة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وكفى بذلك أجراً، بل فخراً وقدراً.

وقد شددت على وجوب تربية أولادهم تربية إسلامية لأنهم عماد المستقبل ولأن ذلك أمانة في أعناقهم.

ثم حدثونا عن المدرسة الإسلامية هذه الملحقة بالمسجد فذكروا أن عدد طلابها ٦٠ طالباً وأنهم يدرسون فيها خمسة أيام في الأسبوع.

وبينما كانوا يتحدثون كان بعضهم يحضرون الشراب المثلج الغالي بالنسبة إليهم وهو الميرندا لأنهم يستوردونه استيراداً كما كانوا يحضرون نوعاً من أنواع الكعك المستدير وهو خاص ببلادهم وسألتهم عن حاجاتهم العاجلة الملحة مما يتعلق بأمور دينهم، فقالوا: إن سكان الحي من الفقراء ولدينا أرض للمسجد نريد أن نبني عليها بناء مستقلا للمدرسة. ولكن المبلغ الذي يحتاجه البناء ضخم جداً، إنه عشرة آلاف دولار!

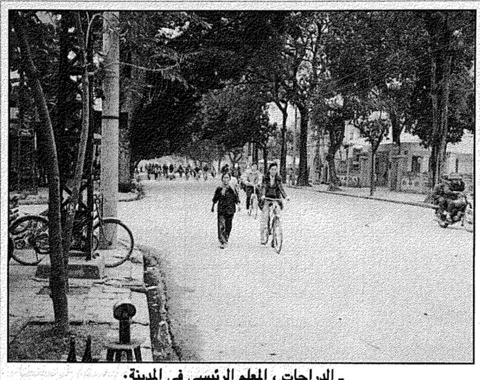
فأخبرتهم بأننا في رابطة العالم الإسلامي مستعدون لمساعدتهم بالمبلغ كله شرط أن يكتبوا طلبا بذلك مصدقاً من الجمعية الإسلامية في هوشي منه أو يسلموه إلينا الى جانب ذكر الأشخاص المخولين بقبض النقود وانفاقها على البناء، ويجب أن تزكيهم الجمعية الإسلامية لهذا الغرض.

وكنت أنظر إلى موقع المسجد فأجده يقع في ظل ظليل من أشجار باسقة أعلاها أشجار النارجيل وأقصرها أشجار الموز والباباي والعمبة (المانغو).

جامع الاسلامية:

هكذا اسمه، وربما صح تخريج ذلك بكونه جامع الأمة الإسلامية أو الطائفة الإسلامية، ويقع على شارع (تراون هون داو) من حي (نان تن) الذي هو في القلب التجاري من مدينة هوشي منه. تحيط به الحوانيت التجارية الكبيرة

التي تحولت بعد الشيوعية إلى محلات تبيع البضائع التي توزعها الحكومة أو تبيع أشياء صغيرة لا يؤبه لها، لأن التجارة الخاصة التي تعتمد على التصدير والاستيراد غير موجودة وإنما تقوم بذلك الحكومة. أول ما استرعى انتباهنا عندما دخلناه أن محرابه منحرف عن القبلة قليلا لخطأ في تحديد القبلة عند بنائه، وقد فرشوا سجادة صغيرة تبين الاتجاه الصحيح للقبلة الذي ينحرف قليلا عن اتجاه المحراب إلى جهة اليسار، ومثل هذا الأمر وقع في عدة بلدان وأماكن من العالم لا أراني بحاجة إلى تحديدها وإنما أذكر بهذه المناسبة أن الإخوة المسلمين من أهل سورينام، وهم من أهل إندونيسيا في الأصل قد ظلوا لسنوات طويلة يصلون إلى جهة الغرب لأن قبلتهم في بلادهم إندونيسيا هي الى جهة الغرب، فظنوا وهم من العوام الذين جلبهم المستعمرون الهولنديون إلى سورينام من أجل زراعة السكر وغيره. أن قبلة سورينام كقبلة إندونيسيا وبنوا مساجدهم على هذا الأساس، وبعد أن وصل إليهم عدد من علماء إندونيسيا في الأزمان الأخيرة نبهوهم إلى أن القبلة في سورينام هي إلى جهة الشرق وليست إلى جهة الغرب، فحولوا مساجدهم إلى الاتجاه الصحيح للقبلة، ورأيت حين زرت سورينام أحد المساجد



ـ الدراجات ، المعلم الرئيسي في المدينة.

بمحرابين: الأول يتجه إلى الغرب وقد تركوه وهو القديم والثاني يتجه إلى الشرق وهو الحديث، وقد ذكرت ذلك في كتاب (رحلات في أمريكا الجنوبية).

وفيما يتعلق ببناء هذا المسجد كان قد بني في عام ١٩٤٨م ولكنه دمر إبان الحرب التي وقعت في فيتنام الجنوبية آنذاك بين حكومتها وبين عصابات الفيت كونج الشيوعية، ولم يكن تدميره مقصوداً من الطرفين، وإنما وقعت عليه قنبلة فدمرته.

وبناؤه الحالي تم من تبرعات أهل هذه المدينة ومن الإخوة في ماليزيا، وذكروا أنهم يرغبون في بناء طابق ثان فوقه لأنه الآن يضيق بالمصلين لكونه في سوق البيع والشراء وحوله كثير من المسلمين.

وتقع شرقاً منه مدرسة إسلامية أغلقت بسبب قصور النفقة.

مسجد الرحيم :

حان موعد الغداء بعد زيارة (جامع الإسلامية) فذهبنا إلى الغداء في المطعم الإسلامي المعتاد وكان معنا ثلاثة من الإخوة المسلمين أحدهم الشيخ محمد يوسف الذي كان ملازماً لنا للترجمة جزاه الله خيراً.

وكانت قيمة الوجبة لخمسة أشخاص ٥٠ ألف دونج، وذلك أقل من ٤ دولارات أمريكية، وسبب كونه أرخص من الوجبات السابقة أننا لم نطلب فيه شراباً غازيا كالكوكا كولا والميرندا الذي هو غال لكونه مستورداً.



- بعض المسلمين في واجهة مسجد نور الايمان.

وبعد الغداء توجهنا إلى (مسجد الرحيم) ويقع في ناحية مهمة من قلب المدينة تحيط به الأبنية المتعددة الطوابق، له بوابة خارجية على الشارع تفضي إلى فناء مكشوف ويصعد منه إلى المصلى الرئيسي بدرج قصير فيصل الداخل إلى رواق بعده المصلى. وقد كتبوا عليه اسمه بالعربية (مسجد الرحيم) وتحته بالإنكليزية (مسجد رحيم أسو سيشن مسك ١٨٨٥).

العرب في هوشي منه :

نوهوا بأنه مسجد للعرب والإندونيسيين والماليزيين وهذا أول مسجد بل أول موضع إسلامي يذكر فيه العرب.

وذلك أن العرب كانوا جالية ذات عدد لا بأس به جاء أغلبهم من جيبوتي حيث الاستعمار الفرنسي إلى فيتنام هذه عندما كانت مستعمرة فرنسية فاشتغلوا بالتجارة وأسس كثير منهم أعمالا تجارية وهم في أغلبهم من أهل اليمن، ولكن عندما استولى الشيوعيون على الحكم في فيتنام وأمموا التجارة هجرها العرب كما هجرها غيرهم من التجار الأجانب.

وقد ذكروا لنا أن عدد العرب في هذه المنطقة من المدينة كان حوالي ٢٠٠ شخص وهم

كانوا غالبية العرب في المدينة.

وقد جاء إلى المسجد مصادفة ودون ترتيب سابق شاب عربي اسمه (منصور بن أحمد صالح) وهو لا يعرف العربية، ولكن كان الحديث معه بوساطة المترجم، قال الشاب العربي: والدي موجود الآن في صنعاء وأمي إندونيسية الأصل، فيتنامية الجنسية تقيم الآن في الولايات المتحدة الأمريكية وتعمل هناك، تعرف عليها والدي ورزق بي منها وكلاهما غادر (هوشي منه) وبقيت فيها وحدي، وأنا الآن أعمل بائعاً متجولا لا يزيد ما أكسبه على لقمة العيش الضرورية.

قال الحاضرون وهو معهم: لم يبق من العرب الآن في (هوشي منه) إلا خمسة أو ستة أشخاص، بسبب صعوبات المعيشة في هذه البلاد.

تجولنا في المسجد مع رئيس الجمعية التي تشرف عليه وهو الأخ (حيدر بن سنون) أصله من الملاينو والإمام علي بن أحمد ماليزي الأصل أيضاً. فوجدناهم قد تأنقوا في زخرفة المسجد وتزيينه، بخلاف المساجد الأخرى ومن ذلك أن أبوابه الداخلية من الزجاج الذي كتبوا عليه بالعربية لفظ الجلالة (الله) واسم الرسول {صلى الله عليه وسلم} (محمد) والشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، كما علقوا بداخله لوحات عربية عديدة.

ويقع على شارع (تام كي كوي) من المنطقة الأولى في هوشي منه (سايقون سابقاً) سألتهم عما إذا كانوا قد تسلموا مساعدة على استمرار تسيير أمور المسجد من الخارج فنفوا ذلك، إلا مساعدة قدمت إليهم من رجل مولود في هذه البلاد أبوه عربي وأمه من تشامبا، وذكروا أنه يعمل الآن في جدة في المملكة العربية السعودية.

ورأيت العمال يعملون في ترميم جانب من المسجد، وكل العمال ليس على أجسادهم إلا (تبان) وهو السروال القصير المعروف الآن باسم (شورت) وليسوا من المسلمين.

وقد أخبرونا أن عدد الذين يصلون الجمعة في المسجد (٥٠) مصلياً وفي الصلوات اليومية ٢٢. وذلك لكون المسلمين الذين كانوا يسكنون قريباً من المسجد في هذا الحي المهم من المدينة وهو حي (رقم١) قد تركوها إلى الخارج، وفي جانب منه مدرسة إسلامية لتعليم الأطفال مبادىء القراءة والكتابة بالعربية فيها ٢٥ طفلا وطفلة. وتفتح بعض البيوت على فناء المسجد الخارجي ذكروا أنها كلها من بيوت المسلمين.

على نهر سايقون :

ذهبنا ظهراً لرؤية النهر الذي سميت المدينة قديماً على اسمه وهو نهر سايقون وهو كبير في عرض النيل، ومع ذلك ليس هو بالنهر الوحيد في هذه المدينة، بل إن منطقتها تحفل بعشرة أنهار كما سبق نقل ذلك.

وتقع أبنية فاخرة متعددة الطبقات على ضفته بينها وبينه شارع الشاطىء الذي لم يكن فاخراً ولا معتنى به، ومن تلك الأبنية فندق ماجستك - أي العدالة - والعدالة في البلدان الشيوعية كالحرية هي اسم بلا مسمى، أو هي موجودة بالنسبة للشيوعيين الحكام محرمة على غيرهم.

أما الضفة الجنوبية فإنها مناطق شعبية ذات منازل من الخشب الرديء.

وقد تناولنا الغداء اليوم في المطعم الإسلامي الوحيد في المدينة وعجبنا لرؤية سياح أجانب مع

أدلائهم من المواطنين قد حضروا إلى هذا المطعم وهم يأكلون ومعهم مصوراتهم، وذلك رغم كون أثاث المطعم ومظهره لا يغري بذلك، فذكر الإخوة المسلمون أن بعض السياح من غير المسلمين يأتون للأكل في هذا المطعم الإسلامي لنكهة في طعامه متميزة لذيذة ولنظافة الطعام نفسه الذي لا يدخله لحوم لا يأكلها الغربيون مثل لحوم الكلاب التي اشتهر الفيتناميون بأكلها.

ميدان الحرية :

عدنا إلى القلب الفاخر السكني القديم من المدينة، الواقع إلي الشمال من نهر سايقون والجو صحو والشمس حارة رغم كوننا في فصل الشتاء الآن فسرنا مع الشوارع الواسعة المعتادة التي ضاقت على سعتها بآلاف الدراجات.

ويحفل هذا القلب الفاخر أو الذي كان فاخراً من مدينة (سايقون) كما كانت تسمى بالأبنية العالية ذات الطوابق المرتفعة، وبالمحلات التي كان يؤمها المترفون الذين كان الرواج الاقتصادي الموجود في المدينة يغذي ترفهم حتى وصلنا ميداناً واسعاً قد غرس جزء كبير منه بأشجار باسقة ويقع عليه قصر رئيس جمهورية فيتنام الجنوبية في القديم قبل اتحادها مع فيتنام الشمالية ويسمى (جندي كلوب) أي ميدان الحرية.

وكان آخر رئيس للجمهورية سكن في هذا القصر هو انقوين ون تيو، ولا يزال حياً يعيش الآن في كندا.

سوراو نور الاسلام :

وسوراو: تعني المسجد الصغير باصطلاحهم كما سبق أن أوضحنا ذلك، أول ما رأيناه منه اسمه مكتوباً بالعربية (سوراو نور الإسلام).

وجدنا في الاستقبال الإمام حاجي هارون بن علي والمعلم (زكريا بن أبي بكر)، والمراد بذلك معلم الدين الإسلامي بالمدرسة الملحقة بالمسجد ومعلماً آخر اسمه (حاجي محمد أشعري).

وهو مسجد صغير مؤلف من طابقين يقع المصلى الرئيسي في الطابق الثاني، بني المسجد أول ما بني في عام ١٩٦٠م ثم جدد في عام ١٩٧٠م، ويصلي الجمعة فيه - على ضيقه - ٤٠ مصلياً والمغرب والعشاء ١٠ مصلين.

وقد أخبرونا أن المسلمين وصلوا إلى هذا المكان قبيل عام ١٩٦٠م، جاؤوا من منطقة تشامبا الواقعة على حدود كمبوديا بسبب حرب الاستقلال بين الوطنيين الفيتناميين والفرنسيين. ويشتغل أكثرهم بالتجارة. وذكروا أن عدد الأسر التي يمكنها أن تصل إليه يعني أنها تسكن غير بعيدة منه ٢٦٥ أسرة مسلمة، وفيه مدرسة في الطابق الثاني أو السطح، حيث سقفوا جزءاً منه فصار غرفة طولها ٤ أمتار في ٣ أمتار يدرس فيها ٢٥ صبياً و١٤ بنتاً.

ومن طريف ما كتبوه على السبورة بالعربية ما هذا نصه:

«سبت باولى جمادا الأولى ١٤١٢هـ.

الحديث من سفر على البر والبحر فيقرأ هذه الآيات: لا يمسه إلا مطهرون، آمنه الله من موت الفجعة» وتحت ذلك تفسيرها باللغة التشامبية ذات الحروف العربية.

وواضح أن فيه لحناً أفظعه ما وقع في الآية الكريمة: «لا يمسه إلا مطهرون» حيث الصحيح



ـ مدرسة سلوك المتقين.

{إلا المطهرون} بالتعريف.

وقد التف علينا طائفة من الإخـــوة المسلمين أهل الحي واحـضـروا الشـاي المـزوج بالحليب وهـم أول من رأيتـــهم يفـــعلون ذلك إذ الشــــاي الفيتنامي لا يشرب بالحليب في العادة، وإنما يفعل ذلك الهنود حـيث اعــتــادوا ألا يشــربوا الشاي إلا بالحليب لأن شايهم يكون أسود ثقيلا.

ويقع المسجد على شارع تان ون يو من حي في المنطقة الثــالثــة من هوشي منه التي تقسم الي اثنتي عشرة منطقة.

مسجد حياة الاسلام :

ذكروا لنا أننا سنذهب إلى مسجد (حياة الإسـلام) ولكننا وجـدنا اسـمـه مكتـوباً عليـه بالعربية (مسجد الحياة الإسلامية).

وكان الذهاب إليه وسط خضم من الدراجات التي أخذت سيارتنا تشق عبابها، ورأينا بعضها عليها الفتيات بالقبعات الفيتنامية العريضة التي تختلف عن القبعات الصينية الشهيرة، إلا أن الملاحظ أن القبعة التي تكون على رأس الفتاة في مدن الصين وبخاصة في الجنوب يصحبها غالباً وجود مظلة واقية في اليد أما هنا فإن المظلات قليلة، ولا شك في أن القبعات العريضة تقوم مقام المظلة في الوقاية من الشمس ومن المطر الخفيف أيضاً.

وعندما رأيت كثرة الدراجات في شوارع هوشي منه هذه تذكرت ما رأيته منذ أيام في شوارع تيرانا عاصمة البانيا حين كنت في زيارتها من قلة الدراجات ومن انعدام السيارات عند المواطنين حتى إن الذي يركب دراجة هوائية يعد من ذوي الحظ العظيم، ولذلك انتشرت عندهم سرقة الدراجات. مثلما انتشرت في لبنان وقت الحرب الأهلية سرقة السيارات.

والمسجد طابقان: الأرضي غرفتان ضيقتان إحداهما اتخذت مستودعاً، والثانية اتخذت مكاناً لفصل دراسي، وجدنا فيه أختاً مسلمة اسمها عائشة بنت حاجي عثمان وهي تدرس ١٧ تلميذاً صغيراً من الجنسين وبجانب ذلك مطبخ ذكروا أنه مكان لإطعام التلاميذ.

وقد وصلنا إلى المسجد مع زقاق ضيق فوجدنا المصلى في الطابق الثاني يصعد إليه مع درج واقف من الخشب ينهض من الشارع وليس من داخل المسجد لأن المسجد أضيق من أن

يتسع له، كما أنه ليس له فناء مكشوف بل هو جميعه ضيق جداً، ولقد عجبت وأنا أحاول أن أحفظ توازني عند صعود الدرج الواقف الذي يبدأ من الزقاق كيف يستطيع كبار السن من الشيوخ والعجائز الصعود للمسجد مع هذا الدرج.

ومع ذلك وجدنا ما كاد يعرقل سيرنا في أعلاه وهو أحذية المصلين التي وضعوها في أعلى هذا الدرج لأنه لا يوجد في المسجد مكان يتسع لها.

ـ من أسواق عطلة نهاية الاسبوع.

وجدنا القوم يصلون العصر، وتصلي بعض النساء خلفهم في مكان مفصول بين الرجال والنساء بستارة خفيفة من القماش.

ذكر لنا الإمام حاجي طيب أن عدد المصلين يوم الجمعة يبلغ أربعين وفي الأوقات المعتادة ١٠ وقليل من النساء، وقد رأينا ذلك وأعتقد أن الذين صلوا خلفه هم أكثر من عشرة. وَشَكَوْا من أن سقف المسجد يحتاج إلى إصلاح بقيمة ١٥٠٠ دولار وذلك ما لا يستطيعونه. وهو يقع في الحي ١٢ من هوشي منه وهو حي ذو بيوت من الإسمنت أكثرها مسطحة السقوف رغم كون البلاد مطيرة، يقتضي القياس أن تكون البيوت فيها ذات سقوف مسنمة، إلا أنني لاحظت أنه لا يوجد فيها أي بيت قد جدد بناؤه أو طلاؤه.

ولا شك في أن حالة هذا المسجد وأمثاله في هذه البلاد تدل على مدى تقصيرنا نحن المسلمين القادرين في الحواضر الإسلامية على مساعدة إخواننا المسلمين في بلاد الأقليات، وإلا فإنهم قد بذلوا كل ما يستطيعونه وذلك جهد المقل أثابهم الله.

وقد قيدت ذلك وقيدت ما تحتاج إليه المساجد في هذه البلاد من تعمير وتوسعة وتأثيث وسوف ندفع ذلك كاملا بإذن الله من رابطة العالم الإسلامي.

ترى الرجل النحيف فتزدريه :

عندما أرى هذا الشعب النحيف القوام، الضعيف الوسائل، المهلهل الثياب، الذي ليس على وجوه أفراده شيء من الوجاهة من جمال أو حتى بياض مع حسن تقاسيم، أكاد أهون من شأنه في نفسي، بل أكاد أزدريه وأحكم بأنه من هذه الشعوب المهملة ـ بكسر الميم ـ المهملة ـ بفتحها ـ التي تسمى نامية ـ وهي لا تنمو ـ وقد تسمى من شعوب العالم الثالث وهي من شعوب العالم التالف، لكنني ما أن أذكر تاريخه القريب وكيف ناضل وصابر حتى هزم دولة كانت عظمى

وهي فرنسا المستعمرة، ثم قارع وقاتل أعظم قوة حربية مالية متفننة في اختراع أدوات القتل والخراب وهي الولايات المتحدة الأمريكية التي لم تذق ذل الهزيمة وعار الانكسار إلا على يد هذا الشعب الفيتنامي الشجاع الذي كان الأمريكيون يعدونه قزماً يعتقدون أنه يكفي لهزيمته أن يهز العملاق الأمريكي سلاحه في وجهه فينهزم دون قتال.

ما أن أذكر ذلك حتى يكبر في عيني ويكبر حتى تطول قامته القصيرة فتطاول عنان السماء، وتقوى أجسامه النحيلة حتى تصير في قوة أبطال المصارعة، وتنقلب ثيابه المهلهلة حتى تصير دروعاً من حديد قشيب، وحتى دراجاته هذه التي يركبها بديلة من السيارات التي يركبها الأمريكيون تكبر في عيني حتى تصبح أعظم وأجل، بل وأكثر راحة وأناقة من سيارات (الكاديلاك) والروز رويس التي يركبها قوم مهزومون لم يشعروا حتى بعار الهزيمة فتراهم يفخرون بما يركبون وما يلبسون فهم من العز والمجد عارون. لقد ذكرت مراراً وأنا أرى هذا الشعب النحيل، الذي لا يملك إلا القليل قول الشاعر العربي الحكيم:

ترى الرجل النحيف فتزدريه
وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتزدهيه
فيخلف ظنك الرجل الطرير

والطرير: الجميل من الرجال، ويزدهيك: يعجبك منظره.

ورغم ما لاقاه الشعب الفيتنامي الشجاع من حروب وكروب منها كرب لا يزال يأخذ بتلابيبه وهو الحكم الشيوعي.. فإنه لا تزال في شفاه هذا الشعب بقايا من ابتسامات استوائية - نسبة إلى سكان خط الإستواء وما قرب منه - عرفنا منها أكثر ما عرفنا ابتسامات الملايين في ماليزيا وإندونيسيا وهي ابتسامات عفوية غير متكلفة.

والشيء الوحيد الذي ينغص من المتعة في السير في هذه المدينة هو كثرة السائلين الملحفين (الشحاذين)، وبخاصة إذا كانوا من الأطفال الذين مرنوا على هذه الأعمال، وما أجدر بهذا الشعب الشجاع، أن ينهى هؤلاء الرعاع عن مثل هذه الطباع.

التحف الرخيصة :

رخص الأسعار في هذه البلاد عام وليس مقتصراً على الطعام والشراب، بل أن ذلك يشمل كل المصنوعات والمنتجات الفيتنامية.

وذلك لرخص الأجور، وضعف الدخول حتى إن المرء ليعجب من ضآلة الأجور، ولا يصدق أنها يمكن أن تكفي لما يسد الرمق فمثلا العامل الماهر يتقاضى راتباً شهرياً متوسطه مائتا ألف دونغ ويساوي هذا ١٤ دولاراً في الشهر. فكيف يعيش هو وأسرته من هذا ا لمبلغ؟

ذكروا لنا أن الغذاء الأساسي للشعب وهو الأرز رخيص جداً، لأنه متوفر لديهم ويصدرون منه مقادير كبيرة وهو محدد السعر لأن الحكومة تبيعه لمن يطلبه بذلك السعر فيباع على المستهلك بسعر ٢٥٠٠ دونغ للكيلو أي أن الدولار الذي صرفناه اليوم بأربعة عشر ألف دونغ فيه خمسة كيلوات ونصف من الأرز، قالوا: وعامة الشعب الذين هم من البوذيين الفقراء يأدمون الأرز بشحم الخنزير، وهو رخيص عندهم لسهولة تربية الخنازير وكونها تأكل القمائم وأوراق الشجر الموجودة بكثرة في هذه البلاد المطيرة، وكذلك السمك رخيص جداً عندهم، لذلك يستطيع

العامل أن يعيش بمثل هذا المرتب الضئيل هو وأسرته عيشة الكفاف. وهذا القول في العمال الذين يؤلفون نسبة كبيرة من الشعب، وأما اخوتنا أئمة المساجد فإن رواتبهم أقل من ذلك بكثير، بل أكثر ضآلة، من ذلك مثلا راتب الشيخ محمد يوسف وهو إمام الجامع الكبير والمرافق المترجم لنا في هذه البلاد هو أقل من دولارين في الشهر إذ يتقاضى من جمعية المسجد ٢٥ ألف دونغ وذلك يساوي أقل من دولارين اثنين، وأكثر أئمة المساجد لا يتسلمون أية رواتب.

ونعود إلى رخص التحف والمصنوعات الوطنية مع التنويه بأن هذا الرخص إنما هو بالنسبة إلى الأسعار العالمية، وبالنسبة الينا نحن الذين نملك أموالا كافية بالعملة العالمية الصعبة ولله الحمد، أما بالنسبة إلى أهل البلاد فإنها غالية لا تصل طاقتهم إلى التفكير في شرائها.

وجدنا محلا كبيراً للتحف تعمل فيه عدة بائعات وبينهن امرأة مسلمة اسمها فاطمة، عرفنا إسلامها من كونها تعرض في متجرها من بين ما تعرضه لوحات إسلامية، منها آيات قرآنية كريمة مكتوبة بالصدف الأبيض، ومناظر لمساجد منقوشة بالصدف أيضاً.

إلى جانب علب وقلائد وسبح بديعة الصنع، رخيصة الثمن مما تنتجه بلادهم، ولديها أيضاً أشياء رخيصة كسبح الكهرمان النقي الأصيل كانوا قد استوردوه من الاتحاد السوفييتي وهو الذي يسميه بعض الناس بالعنبر ويستخرج من بحر البلطيق فالسبحة الواحدة منه بعشرة دولارات أمريكية وكنت اشتريت نظيرتها من متجر حكومي في موسكو بخمسين دولاراً وهي في أوروبا الغربية تباع أغلى من ذلك بكثير، أما اللوحات المطعمة بالصدف فإن الواحدة منها بثلاثة دولارات إلى أربعة حسب حجمها، والعلب الخشبية الصغيرة المطعمة بالصدف بأربعة دولارات إلى خمسة وهكذا.

ومن الطريف في أمر هذا المتجر الكبير الذي هو حانوت معتاد في بلادنا ذو باب واحد أنه ليس خاصاً بشخص واحد وإنما هو مؤلف من زوايا أو أركان لا يفصل بينها أي حاجز، كل ركن أو زاوية فيه لأحد البائعين وهم مختلطون إلا أن لكل واحد منهم بضاعته وخزانته وقد كان في الأصل حانوتاً واحداً كبيراً غير أن الحوانيت الكبيرة التي يملكها أرباب الأموال الكبيرة والشركات قد ذهبت مع مجيء الشيوعية. ولا أشك في أن هذه الأسعار الرخيصة سوف تتغير بعد الانفتاح الاقتصادي على العالم الذي بدأ الآن.

اللغة الفيتنامية :

عاودنا الجولة على الأقدام في شوارع (هوشي منه) وأزقتها القريبة من الفندق فكان أن تكرر عجبي من لغتهم الفيتنامية التي هي لغة فريدة لا ترتبط بلغات المنطقة التي حولها مثلما أن الشعب الفيتنامي شعب فريد في أصله لا يرتبط - عنصرياً - بالمجموعات البشرية المجاورة له كالصينيين والماليزيين.

صرف الاعانات المالية :

كان موعد الاجتماع ثانية بجمعية مسلمي هوشي منه في الساعة الثالثة ظهراً وذلك لإعطائهم بعض النقود التي خصصناها للمساجد والمدارس في هذه المدينة، وكان الاجتماع بهم الذي مر ذكره اجتماع تعارف وتباحث، وقد رأينا أن نصرف المساعدات المالية للجميع بوساطتها مع تعيين مصارفها، وذلك لكونها جمعية إسلامية معترفاً بها من الحكومة ومن المسلمين وأعضاؤها من العاملين الموثوق بهم.

وقد عقد الاجتماع في مقرهم في الشارع الرئيسي المؤدي إلى المطار فقدمت لهم في البداية هدايا شخصية فيها سجاد للصلاة وسبح - جمع سبحة - ومناظر وصور مكبرة للحرمين الشريفين.

ثم أعطيناهم بحضور الجميع وبعض أئمة المساجد المبالغ المالية بالدولار مقسمة إلى مصارف ثلاثة:

أولها: اعانة للجمعية على تسيير أمورها.

وثانيها: اعانة للأئمة والمدرسين الذين هم المدرسون في المدارس الإسلامية وهي الكتاتيب القرآنية ونحوها.

وثالثها: مبلغ مخصص للإعانة على إجراء الترميمات والإصلاحات العاجلة للمساجد في هذه المدينة.

وقد أخبرتهم أن هذه إعانات رمزية أولية أقدمها من رابطة العالم الإسلامي على أن تتبعها مبالغ كافية وذلك بعد أن نشاهد الأمور على الطبيعة، ونقرر ما تحتاجه المساجد والمدارس والأئمة من مبالغ محددة بإذن الله.

كما أعطيتهم سجاداً صغيراً للمساجد، لأنني لاحظت أن بعضها ليس في محاريبها سجاد.

وكانت جلسة مباركة سُرّ بها إخواننا المسلمون، وطلبوا المزيد من الزيارات ما بينهم وبين اخوتهم المسلمين في الحواضر الإسلامية لأن إمكاناتهم محدودة في الوقت الحاضر.

وقد اتفقنا معهم أثناء الجلسة على الاستجابة لبعض مطالبهم، ومن ذلك استضافة بعض كبارهم في الحج ودعوة عدد من زعمائهم لزيارة الرابطة، والتعرف على المسؤولين في



- صناعة القبعات عندهم فن رائع.

المملكة العربية السعودية ودعوة جمعيتهم لحضور المؤتمرات والاجتماعات الإسلامية.

وانفقنا ما قبل النوم من الوقت في الجلوس في ميدان ركس الذي يقع عليه فندقنا وهو حديقة فيها المقاعد الحجرية إلا أنها لم تكن كافية للجميع، لذلك رأيت أناساً كثراً منهم يجلسون على ظهور دراجاتهم النارية ومنهم بعض الأسر الذين جاؤوا مع أطفالهم لتمضية جزء من الأمسية في هذا المكان الجميل.

ومن المنغصات فيه كثرة الأطفال وبخاصة من البنات اللائي يعرضن عليك بضائعهن من الطوابع والتذكارات والعملات القديمة من ورقية ومعدنية، ولكنهم يلحون في العرض، ولا ينصرفون عنك إلا بعد أن تبذل مجهوداً كافياً في إقناعهم بعدم رغبتك في الشراء وبأنك لن تستجيب لتوسلاتهم في ذلك، ولابد من أن يشترك في افهامهم عدد من أعضاء جسمك منها رأسك بهزه يمنة ويسرة ويداك بإيماءات تدل على النفي لأن النفي بلسانك لا يغني شيئاً.

«للرحلة صلة»

الحرية وقيودها

بقلم:
محمد العربي الخطابي
- الرباط -

حينما تهمس في سرك أو تجهر قائلا بلسانك: «أنا حرّ!» فأنت إنما تعرب عن رغبة خفية تتلجلج في وجدانك ولا تكاد تخرج إلى عالم النور إلا بجهد جهيد. فالحرية تولد معك وتمتزج بفطرتك، ثم تتوارى في ثنايا نفسك؛ وما تزال صورتها ترافق أحلامك ، وتحثك على الانطلاق ، وتدعوك الى الصمود أمام التجارب كلما أثقلتك قيود الحياة، فإذا ما أسعفتك الأقدار المتربصة بك، وتنبهت حواسك الباطنة، وعقدت العزم على فك الحبال المشدودة حول بدنك لتبدأ مسيرتك البطيئة في دروب المجهول، فإنك ستواجه بمفردك أشباحاً مخيفة لابد لك من مقاومتها، وحينئذ ستدرك أن الإرادة هي مفتاح الحرية، بل هي عجلتها الدافعة.

أما إذا أفزعتك الأشباح التي تترصدُ لك في منعرجات الطريق، وراعك هولها فقد تتعطل إرادتك وتستسلم؛ فالحرية إنما تتحقق باختيارك، بخلاف العبودية التى ترْكبُك بإرادة غيرك.

ليس معنى الحرية أن تفعل ما تشاء كما تشاء وفي الوقت الذي تشاء، بل أن تفعل ما ينبغي لك فعله بالطريقة المناسبة وفي اللحظة المواتية؛ وآية ذلك أن تتصرف بأسلوب يوافق النهج الذي يرسمه لك العقلُ المُتزن والحس السليم، لأن الحكمة ربيبة الحرية، بل هي معيارُها ودليلها.

العدل قوام الحرية، فإذا اختل ميزانه وغاب حكمه، وحل الجور محله، انسدت منافذ الحرية، وانتكست ألوية الحق، وتداعت أعمدة المساواة، وانفتحت أبواب الاستبداد والقهر والتسلط.

ومبدأ العدل أن تبدأ بنفسك فتعرف ما لها وما عليها، وآية ذلك أن تأخذ بالحسنى ما هو لك ، وتعطي بالمعروف ما هو لغيرك، فإذا فعلت ذلك استبانت قدرتك على أن تعدل مع الآخرين؛ فإن أظلم الناس الظالم لنفسه الغافل عن حقها؛

ومن فرط في حقه كان أولى بالتفريط في حقوق غيره.

الحرية المثلى إنما تتجلى في قدرتك على التخلص من عبودية المادة، وطغيان الأهواء، وغلبة الشهوات التي تضعف النفس العاقلة، وتميتُ في الضمير أنسجته الحية.

العبودية ليست في كل الأحوال نقيضاً للحرية، فأنت إذا كنت عبداً للخالق وحده، لا تضل عن سبيله، ولا تغفل عن تدبر آياته، ولا تخشى غيره، ولا تلتمس العون والهداية إلا منه، فإنك تدرك بذلك أقصى غايات الحرية، فتتخلص من أسر المخلوقات، لا تعبد صنماً، ولا تنقاد لهوى، ولا

يقوى على استعبادك إنسان.

أما إذا غلبتك أهواء نفسك، وملت معها في كل اتجاه فإنك تشرف على الهاوية دون أمل في أن ينقذك من الوقوع فيها شيء؛ يقول الحق سبحانه: {أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا} (الفرقان/٤٣).

الطبيعة تعلمك كيف تكون حراً، إذ فيها ألف آية تنير الآفاق أمامك، وتدلك على الطريق؛ فإذا كانت بصيرتك مفتحة، ووجدانك حياً تشربت نفسك معاني الآيات الماثلة بين يديك، وغمرك نور كاشف تمشي به بين الناس.

فأنت ترى النهر كيف تتدفق مياهه وتنساب مندفعة في مجراها لا يثنيها عن تدفقها عائق حتى تدرك غايتها وتبلغ مستقرها.

ثم إنك تنظر إلى البذرة المتناهية في الصِّغر، تراها تُطرح في أحشاء التربة الهامدة، فتنبعث في صلبها حياة بازغة، وتتحول البذرة إلى نبت يشق الأرض ليظهر فوقها ويرتمي في أحضان الهواء والشمس لا يصده عن النمو والانتشار شيء.

فإذا أنت وجهت بصرك نحو السماء وما فيها من نجوم وكواكب، وما يتعاقب عليها من سنن وظواهر، ثم تأملت عوالم النحل والنمل والطيور والحيتان وجواهر الأرض وسائر ما خلقه الله من شيء مما يقع تحت بصرك أو تدرك وجوده بعقلك أو حواسك فإنك ستجد فى ذلك كله حركة منتظمة ودائبة فيها من الإبداع والتجديد والتسبيح مالا يقدر أحد على وصفه، ولا يقوى عقل على استيعاب كلياته، وبالأحرى جزئياته. {وترى الجبال تحسبُها جامدة وهي تمرُّ مَرّ السّحاب} (النمل/٨٨).

إذا ضاق من حولك فضاء الدنيا فالتمس السعة في رحاب قلبك، وانفذ ببصيرتك في عمق الأشياء لا في مظاهرها الخارجية وحينئذ ستبدو لك الحقائق الكبرى ناصعة جلية لا يعلق بها غبار الشك، ولا يحجبها ظلام الغموض؛ فإذا استقرّ اليقين في قلبك لازمتك السكينة، وواصلت الصعود إلى قمة الحرية لتحلق في أجوائها العالية طليقاً خفيفاً لا يثقلك قيد ولا يصيبك وهن.

الحرية شفافة كالماء الطهور لا حُمرة فيها ولا بياض ولا سواد، وهي إنما تستشف لون الوعاء الذي يحويها وتملأ فراغه.

كل شيء خالص وخال من الشوائب فهو حُرٌّ، فكيف يكون حرّاً مَنْ ركبَه الغلُّ والغرور والضغينة والعُجب والعَمَه وبلادة الحس وانغلاق الفؤاد؟ فهذه كلها قيود تثقل النفس وتميت الضمير فلا يتأتى معها انطلاق ولا انبساط ولا صعود.

الحرية أنشودة الحياة، ونايها المحبة، وأنغامها البِشْر والطمأنينة وانسجام الأضداد؛ فاصنع لنفسك منها لحناً يَصْقل ذوقك، ويُريح سمعك، ويُهَذِّب شعورك، ويرتفع بك في سُلّم الأحرار الأبرار

من المناقشة ينبثق النور:

مع الدكتور عبد المحسن القحطاني في كتيبه بين معيارية العروض وإيقاعية الشعر (٤-٥)

بعد أن انتهى الدكتور من مناقشة قصيدة امرىء القيس اللامية ومطلعها:

عيناك دمعهما سجال

كأن شأنيهما أوشال

كما ذكرت ذلك في الحلقة السابقة تناول مقطوعتين للشاعر علقمة بن ذي جدن الحميري إحداهما حائية تتكون من ثلاثة أبيات والأخرى نونية وعدد أبياتها خمسة أبيات ولقد أشاد الدكتور عبد المحسن إنصافا للحق وأهله بعلقمة بن ذي جَدَن الحميري واعتبره من أوائل من نظم مخلع البسيط، وذلك بعد قيامه بتقطيع أبيات المقطوعتين الشعريتين الحائية والنونية وتأكد من مطابقتها لتفعيلات مخلع البسيط.

كما اعترف الدكتور القحطاني لأبي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري بالفضل حيث فسح مجالا لقصيدة «سلْمي ّبن ربيعة»[١] وحكم على وزنها بالجواز في حين رفضها ابن السراج الشنتمري[٢] صاحب المعيار، ويوسف بن أبى بكر السكاكي صاحب كتاب «مفتاح العلوم، وبدر الدين محمد الدمامينى صاحب كتاب «العيون الغامزة على خبايا الرامزة».

وقصيدة سلْميّ بن ربيعة التي فتح لها الجوهري باب الجواز المطلق تتألف من ثمانية أبيات ومطلعها:

إنَّ شواء ونشوة

وخبب البازل الأمون

قال عنها الدكتور في نهاية الصفحة الثامنة والأربعين: «إذن فقصيدة سلْميّ من مخلع البسيط، عروضه محذوفة السبب «لن» وعلى هذا تكون إحدى صور المخلع» والصحيح أن أعاريض أبيات قصيدة سلْميّ الثمانية مقطوعة مخبونة محذوفة فالحذف جاء بعد القطع والخبن لأن أصل تفعيلة «العروض» مستفعلن فقطعت أي حذف ساكن الوتد المجموع «ن» وتسكين المتحرك قبله وهو اللام فأصبحت مفعولنْ ثم خُبنتْ أى حذف الحرف الثاني الساكن وهو هنا الفاء فأصبحت فعولن مكونة من وتد مجموع وسبب خفيف ولكي



بقلم:
أحمد سالم باعطب
- جدة -

تتحول فعولن إلي «فعل» يجب علينا أن نجري عليها عملية الحذف وهي اسقاط السبب وهو «لن»، وهكذا فإن العروض «فعل» في مخلع البسيط لم تأت إلا بعد اجراء ثلاث عمليات هي القطع والخبن والحذف.

وتعرض الباحث لمقطوعة الأسود بن يعفر وهي خمسة أبيات من مجزوء البسيط، البيت الأول عروضه سالمة والضرب مطوي مذال، والبيت الثاني عروضه مطوية والضرب مطوي مذال، والبيت الثالث عروضه سالمة والضرب سالم مذال، والبيت الرابع عروضه مخبونة والضرب مطوي مذال، والبيت الخامس عروضه حذاءمطوية والضرب سالم مذال، وعروض هذا البيت نادرة وغريبة.

قصيدة طرفة بن العبد:

ثم تحدث الدكتور من بداية الصفحة الحادية والستين عن قصيدة الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد وأبياتها خمسة عشر بيتا فقال: «وتطالعنا قصيدة لطرفة بن العبد لم يلتفت إليها أغلب العروضيين وهي تمثل مرحلة من مراحل المزاوجة أو الجمع في الضرب بين «فَعِلُنْ» و«فَعْلُنْ» وقد أجاز الزجاج تلك المزاوجة أو الجمع».

ولقد تولى الدكتور تقطيع أبيات القصيدة تقطيعا عروضيا ثم أعلن نتيجة ذلك فقال: «جاءت الأبيات كما في الديوان من بحر السريع الذي جمع في ضربه بين «فَعِلُنْ» و «فَعْلُنْ»، فقد جاء الضرب في الأبيات: ١، ٢، ٤، ٦، ٩، ١٥ على وزن «فَعْلُنْ» وجاء الضرب في الأبيات: ٣، ٥، ٧، ٨، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، على وزن «فَعِلُنْ» ، أما من حيث الأعاريض، فكل الأبيات جاءت أعاريضها على وزن «فَعِلُنْ» باستثناء البيت الرابع عشر فقد جاءت عروضه على وزن «فَعْلُنْ».

ومن يقرأ القصيدة وتقطيعها عروضيا يجد أن جميع أعاريضها مخبولة مكشوفة إلا عروض البيت الرابع عشر فهي صلماء والصلم هو: حذف الوتد المفروق من «مفعولات» ويمثله هنا «لات».

وإذا كان هناك عيب في قافية القصيدة فهو عيب سناد التأسيس في البيت التاسع إذ جاء مؤسسا بينما بقية أبيات القصيدة غير مؤسسة، كما يلاحظ سناد التوجيه في كثير من أبياتها، وسناد التوجيه هو اختلاف حركة ما قبل الروي المقيد بين الضم والفتح والكسر، على أن قليلا من النقاد يجيزون ذلك.

قصيدة المرقش الأكبر:

تناول الدكتور عبد المحسن بعد ما فرغ من معالجة قصيدة طرفة معالجة قصيدة أخرى لشاعر جاهلي آخر هو المرقش الأكبر وقال: «لو اطلع العروضيون على قصيدة المرقش كاملة لحملوها على بحر الكامل لوجود «متفاعلن» في أكثر من بيت من القصيدة» جاء هذا القول في الصفحة الخامسة والسبعين من الكتاب بالسطر الحادي عشر، ثم أكد ذلك في الصفحة السادسة والسبعين حيث قال: «وأنا على يقين لو أنهم - أي العروضيين - اطلعوا على القصيدة كاملة لحملوها على الكامل».

ورأي الدكتور بل حكمه هنا صحيح، ففي عجز البيت السابع تفعيلة سالمة من تفعيلات

بحر الكامل «متفاعلن» وكذلك في عجز البيت الثامن تفعيلة أخرى من نفس الوزن مما يحقق الشرط الذي وضعه العروضيون للتمييز بين السريع والكامل المضمر والشرط كما ذكره الدكتور في كتابه وهو «عند تنازع بحرين تفعيلات أبيات قصيدة ما كبحر السريع والكامل المضمر، فان الفيصل في ذلك هو وجود تفعيلة واحدة من بحر الكامل التام «متفاعلن» فتعد من الكامل وإلا فالقصيدة من السريع.

ومطلع قصيدة المرقش هو:

هل بالديار أن تجيب صمم
لو أنَّ حيًا ناطقاً كلَّمْ

ـ والمرقش هنا هو المرقش الأكبر واسمه ربيعة بن سعد وقيل عمرو بن سعد وسمي المرقش لقوله:

الدار قفر والرسوم كما
رقَّش في ظهر الأديم قلمْ

ـ ومطلع القصيدة أورده الدكتور القحطاني في كتابه بأربع صيغ مختلفة.

الأولى: بالصفحة ٢٣ بالسطر الرابع على النحو التالي:

هل بالديار إن تجيب صمم
لو كان رسم ناطقاً كلَّم

الثانية: بالصفحة ٧٥ بالسطر الثالث بالصيغة التالية:

هل للديار أن تجيب صمم
لو أنَّ حيا ناطقا كلَّم

ـ وهذه تكاد تطابق المطلع لولا أن طابع الآلة أبدل حرف الجر (ب) في كلمة «بالديار» بحرف الجر (ل) فصارت «للديار».

الثالثة: ورد البيت بالصفحة السادسة والسبعين بالسطر الثاني بهذه الصيغة:

هل بالديار أن تجيب صمم
لو كان رسما ناطقا كلَّم

ـ وهنا طابق صدر البيت صدر المطلع لكن العجز في هذا البيت اختلف مع عجز المطلع حيث أبدلت كلمة «أنَّ» في العجز إلى «كان» وكلمة «حيًا» إلى كلمة «رسما».

الرابعة: ورد البيت بالصفحة ٧٧ بالسطر الأول كما يلي:

هل بالديار أن تجيب صمم
لو كان رسمٌ ناطقا كلَّم

ـ وهنا مازال صدر هذا البيت يساوي صدر المطلع لكن «أنَّ» في عجز المطلع أبدلت «كان» و«حيا» أبدلت إلى كلمة «رَسْمٌ».

وهذه الملاحظة قد لاحظتها عند قراءتي للكتيب في طبعته الأولى وكنت أتوقع عندما علمت بطبعته الجديدة أن يكون الدكتور قد وجه نظر المسئولين بالمطبعة إلى مراجعة ذلك وتصحيح الأخطاء، وأعتقد أن الدكتور ربما وجه نظرهم إلى ذلك ولكن كما يقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيًا
ولكن لا حياة لمن تنادي

عودة إلى الخلف :

ثم عاد الدكتور برحلتنا معه إلى القهقري فبعد أن تركنا مرحلة الأبيات الأحادية والثنائية والثلاثية وتجاوزنا مرحلة المقطوعات وبدأنا نجابه القصائد وجها لوجه ونسبر أغوارها مع الدكتور ونتعرف على مكامن الدر، ومخابيء السر الذى يفتح لنا الأبواب المغلقة، ويسهل السير على الدروب

المستعصية حتى أصبحنا على مقربة من شاطيء النجاح فإذا به يلوي مقود سيارته ويعود إلى الوراء مسرعا كأنما تذكر شيئا قد نسيه، وخشي أن يأخذ طريقه إلى النسيان التام فعاد بنا إليه فإذا بنا أمام مقطوعات شعرية منها قطعتان لعدي العبادي إحداهما ٦ أبيات والأخرى ٣ أبيات، ولعلقمة خمسة أبيات، ولأمية بن الصلت مقطوعة ذات سبعة أبيات وقد شخَّص الدكتور المقطوعات وتمكن من إدراجها في البحور التي تحمل سماتها، وعالج ما بها من زيادات حتى استقامت واستوت ودخلت مدينة الشعر من أوسع أبوابها.

قصيدة أم السليك :

وردت قصيدة أم السليك في كثير من كتب العروض والقوافي وتناولها النقاد والعروضيون بالتحليل والمناقشة واختلفوا في المسمى العروضي الذي يجب أن تنسب إليه هذه القصيدة فمنهم من يرى أنها من مجزوء الرمل ومنهم من يعدُّها من مشطور المديد وبعضهم عدَّها من مربع المديد، وقبل أن أستعرض لكم الآراء المختلفة في هذه القصيدة التي نسبها الدكتور لأم السليك بينما نسبها ابن القطاع لأخت تأبط شرا أما صاحب الجامع أبو الحسن أحمد بن محمد العروضي فقد نسبها لأم تأبط شرا، أما صاحب كتاب القسطاس جار الله الزمخشري فقال: «إن البيت (أي مطلع القصيدة) لأم السليك أو لأم تأبط شرا» - أما صاحب العقد الفريد أحمد بن عبد ربه فقد قال في الجزء السادس في الصفحة ١٩٣ ثم كرر القول في الصفحة ٢٦١: «إن اعرابيا خرج هاربا من الطاعون فلدغته أفعى في طريقه فمات فقال أخوه يرثيه:

طاف يبغي نجوة
من هلاك فهلك

- وهذا هو مطلع القصيدة كما أورده الدكتور عبد المحسن في كتابه موضع المناقشة، وهو نفس المطلع الذي أورده صاحب القسطاس بالصفحة ٧٨ لكن مطلع القصيدة عند الجوهري صاحب عروض الورقة بالصفحة ٦٠ جاء هكذا:

ليت شعري ضلة
أيُّ شيء قتلك

- وكذلك ذكره صاحب البارع بالصفحة ١٠٧ على أساس أن كل بيت يساوي شطر المديد المثمن

ليت شعري ضلة أي شيء قتلك
أمريض لم تعُد أم عدوٌّ ختلك

- وبذلك قال صاحب الجامع أيضا:

ليت شعري ضلة
أي شيء قتلك
أمريض لم تعُد
أم عدو ختلك

- ولعموم الفائدة نذكر القصيدة كاملة كما أثبتها الدكتور في كتابه الذي سعدت بقراءته:

طاف يبغي نجوة
من هلاك فهلك
ليت شعري ضلَّة
أيُّ شيء قتلك
أمريض لم تعد
أم عدوٌّ خَتَلَك

أم تــولّى بـك مـــــــا
غـــــال في الدهـر السَّلَكْ
والمــــنـــــايــــا رُصَّدٌ
للفــــتى حـــيث سلكْ
أيُّ شــيء حـــــســن
للفــــــتى لمْ يكُ لكْ
كـل شـيء قـــــاتـل
حـين تـلــقـــى أجـلــكْ
طـال مـــا قـــد نلت في
غـــــيــــر كــــد أمَلَكْ
ســــأعـــزٍّ النفس إذ
لم يجبْ من ســــألكْ
ليت قلبي ســـاعــــة
صــــبــــرُهُ عنك ملك
ليت نفـــسي قـــدّمتْ
لـــلـــمـــنـــايـــا بَدَلَــكْ

- هذه هي القصيدة التي اختلفت فيها آراء النقاد فالجوهري في كتابه «عروض الورقة» أصرَّ على أنه مربع المديد ويرى أن مسدس المديد هو القديم وأن المثمن محدث وقد أخذ بهذا الرأي كثير، وبهذا الرأي قال جار الله الزمخشري وهو يقول في كتابه عن مربع المديد «جاء لأهل الجاهلية عليه غير شعر - أي شعر كثير -» ثم يقول: وهو عند الزجاج من مجزوء الرمل المحذوف العروض والضرب»٠

وأما العروضي فيقول في جامعه: «فهذا من المديد التام ولكنه جاء مصرعا كله ونسبه بعض المشايخ إلى الرمل وهو من الضرب الأخير منه» انظر الجامع صفحة ٦٥٠

أما ابن القطاع فيقول في كتابه البارع صفحة ١٠٧ «وقد شذ تام المديد كقول أخت تأبط شرا» فاعتبر كل بيت شطرا من تام المديدة٠

هذه آراء بعض النقاد فما رأي الدكتور صاحب البحث؟

يقول الدكتور القحطاني في الصفحة الثالثة والتسعين من كتابه موضع البحث: «حينما لم يجد علماء العروض نصوصا مطردة لمجزوءات بعض البحور لم يدخل ذلك في تقسيمهم، فالمديد أصله:

فـاعـلاتن فـاعلن فـاعـلاتن
فـاعـلاتن فـاعلن فـاعـلاتن

وأصله في الدائرة «فاعلاتن فاعلن فاعلاتن/ مرتين» ٠ وهنا نسأل الدكتور ما هو الفرق إذن بين العبارتين «فالمديد أصله» و«أصله في الدائرة» إذا كان كل منهما يمثل ست تفعيلات٠ إن صحة العبارة الثانية يجب أن تكون «وأصله في الدائرة تفعيلات ثمان هي فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن مرتين»٠

ثم يتابع الدكتور رأيه فيقول: «ولم يأت له شاهد في الشعر العربي إلا إذا جعل كل بيتين من هذا النص بيتا واحدا كأن يكون:

طاف يبغي نجوة من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة أيُّ شيء قتلك

وتكون كل الأبيات مصرعة، وهذا النص يحقق تمام البحر أو سلامة التفاعيل فيه، غير أن المديد لم يرد إلا سداسي التفاعيل»٠

وهذا اعتراف ضمني من الدكتور بأن مثمَّن المديد على الدائرة لا يمثل إلا وزنا وهميا ليس له على أرض الواقع ما يثبت وجوده، وأن العروضيين يرددون في مؤلفاتهم أن العرب لم يقولوا قصيدة تنطبق عليها

تفعيلات مثمن المديد، وكل ما عرف عنهم هو أن المديد سداسي، وما دام الأمر كذلك فلكل سداسي مجزوء رباعي وهذا ما ذهب إليه أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري وحكم على هذا النص بأنه من مربع المديد.

خاتمة الفصل الأول :

ينتهى الفصل الأول من كتيب الدكتور عبد المحسن فراج القحطاني الموسوم بـ «بين معيارية العروض وايقاعية الشعر» بعرض سريع، أو بملخص لما بذله الدكتور من جهد مشكور في اعداد هذا البحث، واخراجه، وما توصل إليه من نتائج حيث يقول: «وبعد فإنَّ النصوص الشعرية التي وردت في هذا البحث، وتطرق إليها القدامى والمحدثون من العروضيين والنقاد إنما كانت تبحث عن سمة خاصة بها».

فهل استطاع الدكتور أن يحل كل الرموز التي وقف الكثير أمامها في حيرة كبيرة حتى وصموها بالاضطراب والخلل الوزني؟ يجيبنا على هذا السؤال قول الدكتور «فمنها ما استطاع أن يستقر في مكان موسيقي وُضع له اسم كمخلع البسيط، ومنها ما كان في منطقة ضيقة - كما سبق - ادعاها أكثر من بحر، ومنها ما كان بيتا أو شطرا من بيت لم تستطع الدراسة أن تصنفه في ميزان معروف أو مستقل باسم ثابت له».

وفي رأيي أن عدم استطاعة الدكتور تصنيف البيت أو الشطر في بحر معين ليس عجزا أو جهلا ولكنه يرى أن ذلك لا يعطي النتائج الصادقة كما تعطيها أبيات القصيدة بأكملها كما أن هناك سببا آخر أوضحه الدكتور في نهاية الخاتمة حيث يقول: «وعلى الدرس العروضي أن لا ينظر لبيت أو شطر مستقلا عن كامل النص، لأن هذا سيؤول بالدرس إلى وجود بحور كثيرة، أو أعاريض وأضرب متعددة في نص واحد، والذي يهم، أن يبحث عن القاسم المشترك في كل نص، لأن المناقشة ستدور حوله».

«**للبحث صلة**»

الهوامش:

(١) ورد اسم سُلّميُّ بن ربيعة في أمالي القالي الجزء الأول صفحة ١١١ وفي كتاب «التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه» لأبي عبيد البكري بالصفحة الثالثة والأربعين قوله «هكذا روي عن أبي علي رحمه الله - سَلّمَى بفتح السين والميم، ولم تختلف الرواة ان اسم هذا الشاعر: سُلّمي بضم السين وكسر الميم وتشديد الياء وهو سلميٌّ بن ربيعة بن زبان بن عامر الضبيّ ، غير أنه في هامش الصفحة أورد الجملة التالية: قال سلمان بن ربيعة الضُبيُّ.

وفي الاعلام للزركلى المجلد الثالث صفحة ١١٥ ذكر اسمه سُلمي بن ربيعة الضبي ثم عقب على ذلك بقوله: وفي ضبط اسمه خلاف.

والدكتور القحطاني أورد اسمه في كتيبه بعدة اسماء فتارة كتبه سلمي بن ربيعة - بدون تشكيل - بالياء المعجمة وتارة سلمى (بالألف المقصورة) بن ابي ربيعه كما ورد في السطر السابع من الصفحة السادسة والأربعين وفي نفس الصفحة في السطر الأخير منها أورد اسمه سلمى بالألف المقصورة كما كرر ذكر سلمي بن أبي ربيعة في صفحة ١٧٥ من كتيبه. أما ابن القباع في كتابه «البارع» فقد ذكر اسمه في الصفحة ١١٧ بالهامش «سلمى بن ربيعة» بالالف المقصورة.

(٢) ورد ذكر الشنتريني في كتيب الدكتور عبد المحسن القحطاني عدة مرات نذكر منها صفحة ٧٤، ٧٥، ٨٧ ويقصد بذلك مؤلف كتاب «المعيار في وزن الأشعار والكافى في علم القوافى» غير أن اسمه الصحيح كما أورده مؤلف كتاب نفح الطيب في الجزء الثاني ص ٢٣٨ وهو أبو بكر ابن السرّاج، النحوي - بتشديد الراء - وهو محمد بن عبد الملك بن محمد بن السراج الشنتمري، أحد أئمة العربية المبرزين فيها، ويكفيه فخراً أنه أستاذ أبي محمد عبد الله بن بري المصري اللغوي النحوي، له تواليف منها «تنبيه الألباب في فضل الإعراب» وكتاب في العروض، وكتاب «مختصر العمدة» لابن رشيق وتنبيه أغلاطه.

رجال في ذاكرتي ٣٢

الدكتور عبد العزيز الدسوقي

يمثل عبد العزيز الدسوقي قلة من ذوي الرأى الحر، فهو لا يكتب إلا عن اعتقاد جازم، ويقين سديد، لذلك تجد مقالاته النقدية والسياسية جياشة موارة، تحسّ فيها وهج الدم، ونبض العروق، وقد تخالفه أو توافقه، ولكنك تعرف أنه صادق مخلص، لا يستملي غير ضميره، ولا يستمع إلى غير هتاف وجدانه، ومثل هذا الكاتب يعاني أزمة من أصدقائه قبل أن يعانى أزمات خصومه، لأنه حين يندفع إلى معارضة أستاذ عزيز عليه، أو صديق يثق بإنسانيته، يكابد حرجا بينه وبين نفسه، ولكنه يحسم الصراع سريعا بكتابة ما يعتقد، وفي يقينى أن أصدقاءه يعرفون معدنه الحر فيقابلون اعتراضاته بالترحيب، أما معارضوه فيحارون في أمره، لأنهم يحبون المعارض السياسيّ الذي يلجأ إلى الدروب والمنحنيات، ويتثعلب ويتذاءب، أما الشجاع الذي يقف فى الميدان ليقول ما يعتقد فهذا مالا يطيقون دفعه، لأن فيهم خفافيش لا تحب غير الظلام.

نشأ عبد العزيز صاحب رأي وهو في عهد الطلب، وقد فهم في عمره الباكر أن الأدب رسالة لا حرفة، لذلك كان أول كتاب ألفه وهو تلميذ في المعهد الأزهرى عن حياة البطل المفترى عليه أحمد عرابي، إذ آمن بزعامته وعشق بطولته، وقد ساءه ما لقى حينئذ من اضطهاد ظالم، حيث لم ينصفه إلا أفراد معدودون في طليعتهم الأستاذ الأديب محمود الخفيف، فرأى أن يكتب عن هذا البطل الخالد كتابا كان تنفيسا عن أوار حبيس في صدره، وقد جال ببصره في مجتمع ما قبل الثورة حين أصدر كتابه الأول فرأى أن الزعيم أحمد حسين أقرب الزعماء إلى قلبه فآثره بحبه، وظل وفيا لمبادئه، وكتب مؤلفه الثانى في عهد الطلب عنه أيضا، وقد جدت أحوال وتغيرت ظروف، واضطر الزعيم الفدائي إلى الانزواء قانعا ببحوثه الإسلامية، وقصصه الأدبية وتباعد عنه من رأوا الخطوة في هذا التباعد زلفى لمن بأيديهم الائتلاق والذيوع، ولكن عبد العزيز آثر الالتصاق الحميم بأستاذه، فكان يستحثه أن يكتب، ثم إذا ظهر مؤلفه إلى النور سارع بالحديث عنه محللا مدققا، وقد قرأت في مجلة الأديب اللبنانية مقالات تحليلية لآثار أحمد حسين كادت تكون منفردة في ميدانها، لأن المرتزقين لم يجدوا عنه نفعا في اعتزاله، فابتعدوا عن التنويه بآثاره، وقد نهض عنهم عبد العزيز بعبء يرونه ثقيلا ويراه أخف من النسيم.

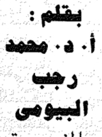
(صلة وثيقة)

قام الدكتور عبد العزيز على تحرير مجلة الثقافة، فكنت أقرؤها بشغف، ثم رأيت بعد عدة

سنوات من صدورها قصيدة تحت عنوان (رحيل مفاجيء) منشورة باسم شاعرة أخذ اسمها يتردد في ندوات القاهرة، فعجبت أكثر العجب، لأن القصيدة من قصائدى التي نشرتها بمجلتي العربي والأديب في رثاء زوجتي الراحلة، ولم تزد الشاعرة عن أن جعلت ضمير المؤنث مذكراً، وكان مصدر العجب أن القصيدة المسروقة نُشرت في العدد السنوي الممتاز من مجلة العربي وهو عدد يُطبع منه أكثر من مليون نسخة فهو ذائع مشتهر، فكيف يقع هذا السطو دون مبالاة ، ثم جاءني اعتذار من الشاعرة تعلن فيه أسفها، وتدعونى إلى السكوت دون تعليق حرصا على اسمها، وكتبت للدكتور عبد العزيز أعلمه بما كان، فردّ عليّ بخطاب أعتز به غاية الاعتزاز ، لأنه حدثنى عن نفسى كثيرا بما أجهله عنها، ويعرفه هو بذكائه، وفراسته، ثم دعانى إلى المشاركة في تحرير الثقافة إذ لا يجوز أن تنشر أكثر مقالاتى خارج مصر، ثم لا تظهر في مجلة يقوم على تحريرها! وقد استجبت لدعوته سعيدا مرتاحا، ولكن الدسوقي أصرّ على أن يعلن عن جريمة السرقة إذ أن من حق القراء أن يعرفوا النسبة الصحيحة لأثر أدبي طالعوه، كما أن واجب الردع للسارقين والسارقات جزاء طبيعى، وليس في المسألة هنا قطع يد جزاء بما كسبت، نكالا منه، ولكنه إعلان يحذر من تُسَوِّلُ له نفسه أن يعيد الكرّة غير عابئ بجريرته! وجاء في خطاب تال من الشاعرة يستعطف ويرجو أن أحول دون الإعلان فكتبت ثانية أرجو الدكتور عبد العزيز أن يهمل هذه المسألة فاستجاب على ضيق، وجاءته قصائد أخرى من الشاعرة فواجهها مواجهة قاسية، وأصرّ على أن تكون بمنأى من مجلة الثقافة وهذا حقه الطبيعى فلا نكران.

(مجلة الثقافة)

ظهرت مجلة الثقافة تحمل اسمها الدال على هدفها، فهي استمرار لمجلة سالفة قام على إصدارها فريق من أعلام الفكر الأصلاء، وهم بعد نخبة من كتّاب الرسالة آثروا الانفراد في مجلة خاصة بهم، والرسالة والثقافة معا مجلتان رائدتان تؤصلان تراث العرب وتستقبلان النافع السديد من فكر الغرب، لذلك حرص الدسوقي على أن يكون من محرري الثقافة من بقى من أعلام المجلتين مثل الأساتذة محمود شاكر وطه الحاجرى وعبد الغنى حسن ومحمود البدوى وعباس خضر، وكانت رئاسة التحرير إلهاما صائبا من القدر، لأن الدعوة إلى الحرية في ظل الأصالة والمعاصرة تحتاج إلى مكافح قوي الشكيمة يعيد ما طمسه الانتهازيون على مدى عشرين عاما أو تزيد حين اندست الألغام الناسفة لتدمر الحياة الروحية والسمو الأدبي على أيدى من يسمون أنفسهم بالماركسيين أو الناصريين أو المكافحين ادعاء فقط عن حقوق العمال والفلاحين، وقد احتلوا منابر الإذاعة والصحافة ودور النشر والطباعة ليحاربوا كل اتجاه إسلامى، وليشنوا الحرب على الدين باسم الفن الحر، داعين إلى الانحدار الخلقي مباهين بالإلحاد والزندقة، وقد حصروا حرية الفن في تصوير العلاقات الجنسية، وتهوين الرذائل الخلقية، فإذا عرفوا قلما مؤمنا لفّقوا له التهم ووصموه بالرجعية والعمالة، ومن ورائهم ما يسمى بمراكز القوى تشد الأزر، وتمهد السبيل، لأن أصحاب هذه المراكز في حاجة إلى مأجورين يزيفون، وانتهازيين يباركون! كان العبء ثقيلا لا يطيقه غير كاهل قويّ، ولا ينهض به إنسان مجامل يحذر المواجهة الصريحة، فهيأت الأقدار عبد العزيز



بقلم : أ. د. محمد رجب البيومى
- المنصورة -

الدسوقي ليجابه كل هؤلاء بصراحته الرنانة، وأقول الرنانة عن قصد، لأنه لا يعرف الهمس العاتب، أو التورية ذات الوجهين. وقد تتبع هؤلاء في كتاباتهم المنتشرة على مدى العالم العربي، فكان يعقب على كل مقال يخالف منهج الثقافة، واصطدم بمن يحملون الأسماء المدوية ذات الطبل الناهق، ولهم مكاناتهم العلمية، ومراكزهم الجامعية، وأشياعهم المغرورون، اصطدم بكل هؤلاء وفيهم من بلغ أرزل العمر سنا دون أن يفكر في غده القريب، وقد ارتاع هؤلاء إذ تعودوا على مدى ربع قرن أن يقولوا دون معارضة، وأن يتهموا البرءاء فى أمن من أن يجابهوا بالنقد الهادم! كما أن من براعته الفائقة أن عمل على جذب الكبار من أصدقائه السياسيين ليسهموا معه في ميدان الكفاح، فكانت المجلة تحفل بمقالات أحمد حسين وفتحى رضوان وحافظ محمود، وهم أصحاب رسالة قبل أن يكونوا كُتَّابا في الصحف والمجلات! لقد جاء نصرالله والفتح فيما ناضل به الدسوقى على صفحات الثقافة! وهو جهد لن يضيع.

(**أساتذة الأدب**):

ذكر لي الأستاذ الدسوقي في بعض خطاباته، أنه يلمح توافقا كبيرا بين ما أكتبه ويكتبه، حتى إنه ليقرأ لي ما كان يود أن يقوله كثيرا، وقد أرجعت ذلك إلى اتحاد المنبع الثقافي الذي ارتشفنا منه معا، وقد ذكر فيما كتب عن نفسه أنه تأثر في مطلع حياته الأدبية بالدكتور طه حسين والدكتور زكي مبارك والأستاذ مصطفى عبد الرازق، فكانت آثارهم موضع اهتمامه إلى حد الكلف، ولعلى أكون قريبا منه حين أعلن أنى تأثرت أيضا بالدكتور زكى مبارك والدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين، وأحمد أمين قريب من مصطفى، لأن الذى يقرأ كتاب (تمهيد في تاريخ الفلسفة الاسلامية) للأستاذ مصطفى عبد الرازق يشعر بجو مشابه لجو فجر الاسلام وضحى الإسلام مع فارق لابد منه هو أن مصطفى عبد الرازق يكثر من النصوص، ويعيش في ظلها، أما أحمد أمين فيقرؤها ثم يأخذ منها ما يشاء فيصوغه بأسلوبه تارة، وينقل النص تارة أخرى! والأستاذان عالمان أزهريان نسير على نورهما المضيء، وقد فسح الدسوقى جانبا كبيرا من صفحات الثقافة لدراسة الأعلام الثلاثة، وكان صادقا كل الصدق مع نفسه حين دافع عنهم بإخلاص، دافع عن الدكتور طه معارضا ما كتبه أستاذاه الكبيران أحمد حسين ومحمود محمد شاكر حيث ألح الأول على الحديث عن اتجاه طه حسين المستغرب في شبابه الأول، وانطلق إلى أمور ذات حساسية رأى الدكتور الدسوقى أن أحمد حسين قد تجاوز بعض الحد في سردها، فأقر الحق في نصابه، وعقب عليه أستاذه بما يعد تقاربا والتئاما، لا بعدا وانفصاما! أما الاستاذ شاكر فقد شك في قدرة طه حسين على التذوق الأدبى للنص، وأبدى من الأدلة ما أقام به وجهة نظره، ولكن الدسوقي عارضه حين قرر أن كُتُب طه المختلفة إذا صرفنا النظر عن كتاب (المتنبي) تنطق بقدرة فائقة على تحليل النص الأدبي ترتفع بطه إلى الذروة، كما أذكر فى هذا المجال أنه عارض في رسالته الجامعية (تطور النقد الحديث في مصر) رأيا للأستاذ فتحى رضوان في اتجاه طه الاستشراقى، فأكد في لباقة أن الأستاذ فتحي رضوان لا يريد أن يطلق حكما عاما على أفكار طه حسين كلها. ولكنه يصف المرحلة الأولى من مراحل فكره، وهذا حق.

أما الدكتور زكى مبارك فقد حباه الدسوقى بمقالات جيدة تصوّر ما لقيه من العقوق والجحود، وتحلل مأساته تحليلا يردها إلى أسبابها الصحيحة، كما اختص كتاب وعبقرية الشريف الرضى، بدراسة كاشفة، وواصل الحديث عنه في مناسبات مختلفة، ولم يشأ أن يترك مصطفى عبد الرازق إذ خصه بفصل من رسالة الدكتوراه، وما كان مصطفى عبد الرازق نفسه يظن أنه سيحتل فصلا نابها فى مجال الدراسات النقدية، لولا أن فطن الدسوقى إلى كتاب (البهاء زهير) فحلله تحليلا منيرا يدل على يقظة واعية، وقال فيما قال

إن انشغال مصطفى عبد الرازق بتدريس الفلسفة والفقه وعلم الكلام وتوليه الوزارة ومشيخة الأزهر قد أضعف دوره المنتظر في النقد، وهذا حق، لأن كتاب (من آثار مصطفى عبد الرازق) يحمل من بوارق النقد المبكر ما يهيىء لمستقبل منتظر، وقد حللت هذا الكتاب في بعض أعداد مجلة الثقافة فراسلني الدسوقي مباركا، أما أسلوبه الأدبي فيسمو إلى مستوى بلغاء العصر كالزيات والبشري.

(مقالات الثقافة)

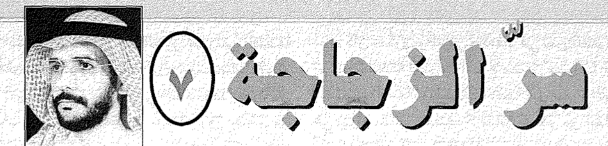
أخذت أتابع بحوثي الأدبية في مجلة الثقافة دون انقطاع، وقد اعتدت أن أرفق كل مقال أرسله للدكتور الدسوقي بخطاب شخصي أتحدث فيه عن مقالات العدد الأخير، وأكثر ما أتجه إليه وجهة النقد، إذ أنا في هذه الرسالة الشخصية أُمَثِّل كاتب السيئات عتيدا، لا كاتب الحسنات رقيبا، وكان ارتياح الدسوقي لهذه النقدات، وتعقيبه عليها في حديثه ومراسلاته دافعا لمواصلتها، ولكنها أصبحت لديه سلاحا ذا حدين؛ إذ أخذ يهددني بنشرها لو توانيت عن مقالات الثقافة، ولو نشرت لأغضبت فريقا أكثرهم في مرتبة أساتذتي، لأن الكاتب كائنا من كان لا يبدع في كل ما يكتب، بل ينحدر حينا وفقا لحالته الخاصة حين كتابة المقال، وربما تعجل فساق الكلام دون أناة فوقع فيما يوجب النقد.

على أن عبد العزيز كان يدعوني لنقده شخصيا، وما كنت أسكت عما أراه موضع نقد، إلا أني كثيرا ما أحترم وجهة النظر المخالفة فلا أشتط في المعارضة، أذكر أني قرأت له في رسالته الجامعية عن حركة أبولو الشعرية رأيا في تجديد مطران الشعري لم يرجح لديّ إذ ذهب إلى أنه ليس بقائد حركة التجديد في الشعر المعاصر تلك الحركة التي تبلورت في ما يسمى بجماعة الديوان ثم ما وليها من الشعر المهجري، وشعر جماعة أبولو، مع أن التاريخ المؤكد يحقق سبق مطران، إذ واصل النشر في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، حين كان شكرى والمازنى والعقاد في سن الطفولة، ثم شب الثلاثة ليقرءوا إبداع مطران متواليا في الصحف الذائعة، والمجلات الأدبية قبل الجزء الأول في ديوان خاص، فكيف لا يتأثر به نفر من أيفاع المتطلعين إلى السبق الشعري وهم يطالعونه دون انقطاع، قرأت رأى الدسوقي في سبق مطران، فلم أشأ أن أناقشه في مقال جديد، ولكنى أخبرته في محادثة عابرة بإدارة مجلة الثقافة أن لي بحثا خاصا بتجديد مطران نشرته منذ عشر سنوات في مجلة (الأدب) ولعلّه فطن إلى ما أريد.

(متابعات)

كان الدسوقي يكتب المقال الافتتاحي بالثقافة، ومعه بحث أدبي مبسوط ينشره في وسط المجلة، ثم يختمها بباب المتابعات، حيث يترصد ما يشذ من الآراء في مجلات العالم العربي، ليعقب بتصحيح قوي، قد ترتفع حرارته فيصبح نقضاً هادما، إذا كان المجال يتطلب الهدم المكتسح، وله في هذه الجولات فروسية ممتازة، لأنه ثبت كالطود في مهب الأعاصير الجارفة، مع احترام مؤكد لأساتذة كبار كالدكتور زكي نجيب محمود، والدكتور/ لويس عوض، والدكتور فؤاد زكريا قد اضطر الى مخالفتهم بالمنطق الملزم، والحُجّة الدامغة، وأذكر أني حاولت أن أكون ذا تعقيبات متواضعة أكتبها بتوقيع (أبو حسام - المنصورة) ففسح لي الدكتور الدسوقي مجالا طيبا، وكان من المصادفات أن تابعت أستاذنا محمد عبد الغني حسن في تحقيق مسألة عروضية تتعلق بشعره، فرد الأستاذ ردًّا كريما، ولكن الأستاذ الدكتور الدسوقي رجح ما ذهبت إليه، فكان طريفا من الأستاذ محمد عبد الغني حسن أن يعقب على ذلك بقوله: «ماذا أصنع وقد وقعت بين شيخي طريقتين صوفيتين، يريد الطريقة الدسوقية، والطريقة البيومية؟! وأنا وأخي عبد العزيز لا نعرف شيوخ هاتين الطريقتين ، ولكن الاسم نمّام.

إن لعبد العزيز محلّه الكريم لدى من يتبعون أحسن القول، ومن يقدرون معارك الرأي النزيه.



بقلم: د . عبد الرزاق فراج الصاعدي
الجامعة الاسلامية - المدينة المنورة -

٢٦ - الجدّ والهزل :

تلقيتُ رسالة من قارىء يقول فيها: أنت تخلط في هذه الزاوية الجد بالهزل ، نراك محتشما جاداً رصيناً في فقرة من فقراتها، ثم لا تلبث أن تتحول إلى الهزل في فقرة أخرى.

فهل تتعمد ذلك؟ ولماذا؟

فأقول للقارىء الكريم: أشكرك أولا على ما جاء في الرسالة من إطراء لا استحقه، وأشكرك على ملحوظاتك القيمة.

وأجيب عن سؤالك بالإيجاب، نعم، أتعمد ذلك؛ لأن المداومة على الجد ثقيلة على النفوس والأبدان، والنفس تحتاج إلى الاسترواح والتفريج عن الهموم وضغوط الحياة المتزايدة.

ومن القراء من يقرأ ليزيح عن نفسه الأكدار، ويتسلى بلذيذ القول وطريفه وغريبه، مما هو في باب الكلام المباح الذي يدخل في فن الأدب.

ومنهم من هو جاد يبحث عن الفوائد العلمية الرصينة.

فأحببت أن أرضي هؤلاء وهؤلاء.

ومن القراء من يقرأ ليزيح عن نفسه الأكدار، ويتسلى بلذيذ القول وطريفه وغريبه، مما هو في باب الكلام المباح الذي يدخل في فن الأدب، ومنهم من هو جاد يبحث عن الفوائد العلمية الرصينة. فأحببت أن أرضي هؤلاء وهؤلاء.

على أنني لا أكتب هذه الزاوية لأحد، فأنا أكتبها لنفسي، ويقرؤها معي أولادي في بيتي، والرجل في بيته كالطفل، يمزح ويمرح، ويلقي عن كاهله إزار الجد، وقد كان سلفنا الصالح يفعل ذلك، فيخلطون الجد بالهزل المباح، ولا سيما في بيوتهم، و(سر الزجاجة) جزء من بيتي، بل جزء من أملاكي الخاصة فأنا أعرف حدودها من جهاتها الأربع، وأعرف شوارعها وأعرف جيراني، فقد أحييتها إحياء شرعياً، ولهذا قطعت عليها «صكاً» دون أن تعلم مجلة المنهل، فهذه الزاوية تخرج بيضاء ناصعة إن تأخرت عن الكتابة في شهر ما.

نعم، هي ملكي أنا وحدي، يقرؤها معي أهل بيتي ولا أريد أن يقرءها أحد غيرنا، ومن قرءها فليستغفر الله، وليعلم أن ذلك من باب التعدي على أملاك الناس وحقوقهم الخاصة!! إلا من أطل إطلالة عابر السبيل، أو أجبره طول السفر أن يستريح فيها.

٢٧ - الرد على النحاة:

ظهر ابن مضاء القرطبي (٥١٣ - ٥٩٢هـ) في عهد دولة الموحدين في الأندلس، التي كانت تتزعم الثورة على المشرق العربي في الفقه وفروعه، وتدعو للمذهب الظاهري كما يقول المراكشي في (المعجب ٣٥٤) والتي دعا خليفتها الثالث إلى حرق كتب المذاهب الأربعة، فأحرق منها جملة في سائر بلاد الأندلس، كمدونه سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي

زيد، ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها كما يقول صاحب (نفح الطيب ٢/٧٢).

وقد تأثر ابن مضاء القرطبي بهذه النزعة، فغدى ظاهرياً في النحو والفقه، وردّ على النحاة جميعا في نظرية العامل وأنكر العامل، ودعا إلى تخليص النحو منه، وما جرّ إليه من ركام الأقيسة والعلل مما يسمى بالعلل الثواني والثوالث.

وهو يتهم النحاة بأنهم لا يعقلون، إذ يقول: «وأما العوامل النحوية فلم يقل بها عاقل، لا ألفاظها ولا معانيها، لأنها لا تفعل بإرادة ولا بطبع» ولهذا فلا حاجة إلى العوامل النحوية في النحو في نظره، فدعا إلى حذفها والاستغناء عنها.

وقد صادف كتابه قبولا لدى كثير من المعاصرين في زماننا عند اطلاعهم على مطبوعته التي أخرجها الدكتور شوقي ضيف سنة ١٩٤٧م، فأقبلوا عليه يدرسونه، ويكتبون عنه الأبحاث والمقالات، واتخذه غير طالب في الجامعات العربية موضوعاً لأطروحة علمية عالية.

وأرى أن كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء ليس جديراً بذلك التقدير، فقد جانبه الصواب في إنكاره نظرية العامل، ولم يستطع أن يقدم بديلا لتلك النظرية الفريدة التي قام عليها بنيان النحو العربي عدّة قرون.

وابن مضاء شاذ فيما ذهب إليه كما يقول صاحب (إشارة التعيين ٣٣) دفعه مذهبه إلى ارتكاب ذلك الشذوذ، وتقبله منه من يسعون إلى كل جديد لأنه جديد، وينكرون القديم لأنه قديم، فكتب الدكتور شوقي ضيف كتابا بعنوان «تجديد النحو» لا قيمة له في نظري، وفيه أخطاء جلية في بابي الاشتغال والتنازع وهما البابان اللذان قرأتهما فيه لأنهما عمدة ابن مضاء والأنموذج الذي قدمه في كتابه، ومن أراد أن يتثبت من هذا الكلام فليعد إلى الكتاب، وينظر فيه نظرة الفاحص المدقق، فإن رآني أخطأت الحكم والتقدير فلينبهني مشكوراً.

٢٨ ـ لهجة قديمة:

قطّعه قطّاعا، وكسَّره كسّاراً.

هذه لهجة سمعتها مراراً من بعض أهل الجنوب في بلادنا في نواحي جيزان، وظننتها لحناً، لأنهم يأتون بالمصدر من (فَعَّلَ) الثلاثي المضعّف العين، فيجعلونه على وزن (فِعّال) بكسر الفاء وتضعيف العين، فيقولون: قطع الشيء قِطّاعا وكسّره كِسّاراً. والقياس أن يجعلوه على وزن (التفعيل) فيقولوا: قطعه تقطيعاً وكسّره تكسيراً.

ثم تذكرت أنها لغة وقعت في القرآن الكريم في قوله عز وجل: {وكذّبوا بآياتنا كذّابا} وقوله: {لا يسمعون فيها لغوا ولا كذّابا}.

قال الفراء: خفّفها علي بن أبي طالب رضي الله عنه «كِذَابا» وثقّلها عاصم والأعمش وأهل المدينة والحسن البصري.

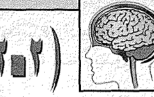
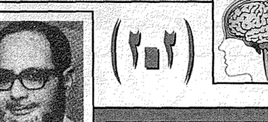
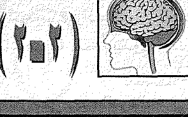
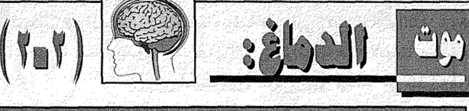
قال: وهي لغة يمانية فصيحة يقولون: كذّبت به كذّابا، وخرّقت القميص خرّاقا، وكل فعّلت فمصدره فعّال في لغتهم مشدد العين (ينظر: معاني القرآن ٣/٢٢٩).

٢٩ ـ قرأت لك:

قال الشاعر العربي بعد أن فارق أرض الأحبة:

وتلفتت عيني فمذ خفيت
عني الطلول تلفّت القلبُ



بقلم:
د. محمد على البار
- مستشار الطب الاسلامي
- عضو مجمع الفقه الإسلامي
- أخصائى الامراض الباطنة
- جدة -



الموت بين الاكلنيكي والشرعي

في أيامنا هذه كثر الحديث عن تعريف الموت، ذلك لأن أجهزة ومعدات العناية المركزة الموصلة بجسم مريض الغيبوبة المستديمة قد أحدثت وضعاً جديداً لهؤلاء المرضى جعلتهم في حالة بين حالتين كما يقولون بين (الحياة والموت) فلا هو حي ينتفع بحياته ولا هو ميت.

وهنا ، تدور مجموعة من علامات الاستفهام حول حقيقة الموت.

هل هو موت الدماغ، أم موت القلب، أم موتهما معاً، أم هو شيء آخر..؟.

لكل هذا نسعد بنشر هذه الدراسة القيمة المقدمة من قبل الاستاذ الدكتور محمد على البار، وهو الى جانب تخصصه العلمي في الطب فهو ايضاً عضو في مجمع الفقه الإسلامي في جدة، ومستشار الطب الاسلامي وله مشاركاته العلمية الجادة في مجال الدراسات الفقهية المتعلقة بجانب الطب. ـ المنهل ـ

علامات الموت وتشخيصه عند الفقهاء:

لقد قرر علماء الشرع أن الموت هو مفارقة الروح الجسد الى ما أعدّ لها من نعيم أو عذاب حسب عملها في هذه الدنيا وأن الموت هو انتقال من دار الى دار وليس عدما محضا فالروح باقية لكنها لم تعد تستطيع التصرف في هذا الجسد.

والروح أمر غيبي لا نستطيع أن ندرك كنهه قال تعالى: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} (الاسراء/٨٥).

قال الامام الغزالي: «الروح هي اللطيفة العالمة المدركة في الانسان. وهو أمر رباني عجيب تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته»(٣١).

وقد جاء في تفسير الامام الشوكاني في تفسير قوله تعالى {ويسألونك عن الروح} الآية.

وقد اختلف الناس عن المسئول عنه فقيل هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته وبهذا قال اكثر المفسرين قال الفراء، الروح الذي يعيش به الانسان لم يخبر الله سبحانه به أحدا من خلقه ولم يعط علمه أحداً من عباده.

وانتهى الامام الشوكاني الى أن الروح من جنس ما استأثر الله بعلمه.

وقال الجنيد رحمه الله: «إن الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا يجوز لأحد البحث عنه (أي ماهيته وكنهه) أكثر من انه موجود».

وقال الشعراني: «لم يبلغنا أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} تكلم عن حقيقة الروح مع أنه سئل عنه فنمسك عن الحديث عنها أدبا».

لهذا كله بحث الفقهاء عن العلامات التي تمكنهم من معرفة الموت. وقد استدل الفقهاء على الموت ببعض الامارات وببعض الأحاديث النبوية نذكرها كما جاءت في بحث فضيلة الدكتور بكر ابو زيد رئيس مجمع الفقه الاسلامي بشيء من الاختصار[٣٢].

١ - عن أم سلمه رضي الله عنها أن رسول {صلى الله عليه وسلم} قال: إن الروح إذا قبض أتبعه البصر (أخرجه مسلم).

٢ - عن شداد بن أوس أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر فإن البصر يتبع الروح. وقولوا خيرا فإنه يؤمن على ما يقول أهل الميت (أخرجه أحمد في مسنده).

وعلامات الموت هي: انقطاع النفس، واسترخاء القدمين وعدم انتصابهما، وانفصال الكفين، وميل الأنف، وامتداد جلدة الوجه، وانخساف الصدغين، وتقلص خصيتيه الى فوق مع تدلي الجلدة وبرودة البدن. فإن حدث شك أو مات الشخص فجأة فعلى الشخص الانتظار حتى تتبين العلامات، قال الامام النووي في روضة الطالبين[٣٣] فإن شك بأن لا يكون به علّة، واحتمل أن يكون به سكتة، أو ظهرت أمارات فزع أخّر الى اليقين بتغير الرائحة أو غيره».

«وفي حالات الموت بالسكتة والصعقة والخوف والسقوط ونحوها مما قد ينتج عنه الموت المفاجيء يطلب الفقهاء أن ينتظر بالميت احتياطيا حتى تظهر به العلامات المعتبره في غير هذه الأحوال من استرخاء الرجلين وانخساف الصدغين الى أخره ليتحقق الموت»[٣٤].

ولا شك أن هذه العلامات ليست يقينية ما عدا توقف النفس توقفا نهائيا لا رجعة فيه. ولذا اعترف الفقهاء أنفسهم أنهم كانوا يشخصون الموت في حالات لم تمت بعد حتى قال ابن عابدين في ا لحاشية: «إن أكثر الذين يموتون بالسكتة يدفنون وهم أحياء، لأنه يعسر ادراك الموت الحقيقي إلا على أفاضل الاطباء»[٣٥].

وقد نقلنا كلام فضيلة مفتي تونس العلامة الشيخ محمد المختار السلامي في حكم الفقهاء على الجنين الذي لم يستهل صارخا. وكيف انهم اعتبروه ميتا. وكم من ملايين الاطفال عبر ألف عام أو تزيد حكم عليهم الفقهاء بالموت لأنهم لم يستهلوا حياتهم صارخين. بل أن بعضهم لم يعترف بالتنفس ولا بالعطاس ولا بالرضاع!! وإليك ما قال مرة أخرى:

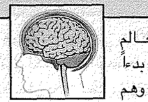
يقول خليل: «ولا سقط ما لم يستهل صارخا ولو تحرك أو بال أو رضع »!!؟!!

وزعم ابن القاسم أن عمر رضي الله عنه عندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي كان معدوداً في الأموات رغم أنه كان يتكلم ويعهد ويدرك ويحسّ الالام... الخ.

ولا شك أن علامات الفقهاء للموت ستؤدي الى كارثة حقيقية إذا أخذنا بها. ولا شك أن الآلاف سيحكم عليهم بالموت وهم أحياء حسب هذه التعريفات الفقهيه للموت.. وقد أدت تعريفات الموت عند الفقهاء إلى دفن آلاف بل ملايين الاطفال الذين لم يستهلوا صارخين وهم أحياء كما أدت الى دفن آلاف ومئات الآلاف من الاشخاص الذين أصيبوا بالسكتة وكما قال الفقيه ابن عابدين فإن اكثر الذين يموتون بالسكتة يدفنون وهم أحياء.

ولهذا فإن تشخيص الموت لا يترك للفقهاء ولعامة

الناس وقد تنبهت الحكومات في العالم أجمع الى ذلك، فأوكلت تحديد الحياة بدءاً وانتهاء إلى أهل الذكر في هذا المجال وهم الأطباء. وقد قال الله تعالى {فاسألوا أهل الذِّكر إن كنتم لا تعلمون}.



ومن الخطورة بمكان أن نأخذ بهذه العلامات البسيطة التي كان الفقهاء يأخذون بها ويعتبرونها علامة للموت مثل استرخاء القدمين وانفصال الكفين وميل الأنف وامتداد جلدة الوجه وانخساف الصدغين، وتقلص الخصيتين الى فوق مع تدلي الجلدة وبرودة البدن. فهذه العلامات جميعا ليست علامة للموت.. بل إن توقف التنفس لديهم وهو علامة هامة للموت قد يكون عارضا ويمكن انقاذ المصاب به.. وقد لا يكون علامة للموت الا إذا استمر وقتا كافيا.

والغريب حقا أن الفقهاء لم يوضحوا كيفية الاستدلال على توقف التنفس كما انهم لم يعرفوا أهمية الدورة الدموية ونبض القلب، ولم يذكرها أحد منهم في تعريفهم لعلامات الموت سوى ما ذكره فضيلة القاضي بمحكمة قطر الشرعية الأولى الشيخ عبد القادر العمارى في بحثه نهاية الحياة من أن بعض الفقهاء المتأخرين اعتبر جسّ العرق الذي بين الكعب والعرقوب وجسّ العرق في الدبر»[٣٦].

وحتى هذه العلامات لا تعتبر علامة على الموت إذ أن المصاب ببعض أمراض الدورة الدموية يفقد النبض من الشريان الموجود بين الكعب والعرقوب (الشريان القصبي الخلفي) (Posterior Tibial artery).

ولم يكتف الفقهاء بذلك كله بل تحدثوا عن الموت حكما والموت تقديرا. وقسموا الموت الى حقيقي وهو انعدام الحياة إما بالمعاينة (وهو ما تحدثنا عنه فيما سبق) أو بالسماع أو بالبيّنه، والى حكمي وهو أن يحكم القاضي بموت شخص مع احتمال حياته ومثاله المفقود، أو مع تيقن حياته ومثاله المرتد الذي فرّ الى أرض الكفار أهل الحرب. فهؤلاء جميعا تعتد زوجاتهم عدة الموت ويجوز لهن الزواج وتقسم التركة بالنسبة للمفقود أما المرتد فلا يرثه أهله بل تأخذ الدولة ماله[٣٧].

«والموت التقديري هو إلحاق الشخص بالموتى تقديرا، وذلك في الجنين الذي انفصل بجناية على أمه وهي التي توجب الغُرَّة (تقدر بخمسة في المائة من دية الانسان أو ٥٠ دينار ذهب) بأن يضرب الشخص امرأة حاملا فتُلقي جنينا فتجب الغُرَّة وهي عبد أو أمه، وتقدر بنصف عشر الدية الكاملة[٣٨].

أنواع حركة المذبوح:

وقد فرق الفقهاء بين من وصل الى حركة المذبوح نتيجة عدوان أو افتراس وحش، فإن هذا يحكم بموته وتسرى عليه أحكام الموت وتعتد زوجته وتقسم تركته. ولو اعتدى عليه شخص آخر فذفّف عليه وأجهز فلا يعتبر الثاني قاتلا بل الأول، وانما يحكم على الثاني بالتعزير لامتهانه كرامة الميت.

فرق الفقهاء بين من وصل الى حركة المذبوح نتيجة عدوان أو افتراس وبين من وصل اليها نتيجة مرض. فإن من وصل الى حركة المذبوح نتيجة مرض لا تسري عليه أحكام الموت ولا تقسم تركته ولا تنكح زوجته ويلزم قاتله القصاص.

قال النووي في المنهاج: «ولو قتل مريضا في النزع وعيشه عيش مذبوح وجب بقتله القصاص»[٣٩] قال الشارح لأنه قد يعيش بخلاف من وصل بالجناية الى حركة المذبوح.

قال العلامة عميره في حاشيته على منهاج الطالبين: «وعبارة الامام (أي النووي) لو انتهى الى سكرات الموت وبدت أمارته وتغيرت أنفاسه لا يحكم له بالموت بل يلزم قاتله القصاص»[٤٠].

وقال الزركشي في المنثور في القواعد: «إن المريض لو انتهى الى سكرات الموت، وبدت مخايله لا يحكم له بالموت، حتى يجب القصاص على قاتله»[٤١].

تعليل الاختلاف في الحكم:

ويقول الدكتور محمد نعيم ياسين في تعليل هذا الاختلاف في الحكم بين حالتين متماثلتين: «والذي

يظهر أن هذا الفرق الذي ذكره الزركشي بين الصورتين غير مؤثر في اختلاف الحكم ويدل على ذلك ما صرّح به نفسه وصرّح به غيره من علماء الشافعية، فيما نقلناه سابقا، أن صاحب الفعل الأول لو كان حيوانا مفترسا وأخرج حشوة المقتول وأبانها فإن القتل لا يضاف الى أي صاحب فعل لاحق، مهما كان. واضافة الفعل الاول الى حيوان مفترس لا يختلف من حيث النتيجة عن اضافته الى أي حادث سماوي يوصل الشخص الى النتيجة نفسها كانهيار بيت عليه مثلا ونحو ذلك.

«ولكن المعنى المعقول الذي يمكن أن يفرّق بين الصورتين هو مدى التحقق من وصول الشخص الى الحياة غير المستقرة التي يتيقن من عدم امكان انعكاسها إلى حياة مستقرة. ومظاهر النزع في عهد أولئك الفقهاء لم تكن كافية لتغليب الظن، فضلا عن التيقن، على أن المريض قد انتقل فعلا الى مرحلة عيش المذبوح، كما سمّوه بدليل أن حالات كثيرة يوصف فيها الشخص بأنه وصل الى حالة النزع الأخير ثم يتجاوزها ويعيش الى ما شاء الله.

«وإذا كان هذا هو الفرق الحقيقي بين الصورتين السابقتين، فإنه لا يؤثر على فهمنا السابق لموقف الفقهاء من تحديد زمن الوفاة في مسألة الاشتراك على التتابع في جريمة القتل بل يؤيده»[٤٢].

«ومقتضى كلام الدكتور محمد نعيم ياسين أنه لا فرق بين من وصل الى حركة المذبوح نتيجة افتراس وحش أو اعتداء انسان أو حادث سيارة أو هدم أو غيرها من الحوادث أو نزف في الدماغ لأي سبب إذا أمكن التيقن من التشخيص وأن المصاب قد وصل فعلا الى حركة المذبوح وهو من فقد الادراك والنطق والاحساس والابصار ولم تعد له حياة مستقرة، وإن كان قلبه ينبض والدم يجول في عروقه وكثير من أعضائه لا يزال يعمل، بل لا يزال يتنفس بدون منفسه ولا آلة!!

فإذا كان الفقهاء قد حكموا على مثل هذا الشخص بالموت، وهو مالا يجرؤ الأطباء على فعله فإن تشخيص موت الدماغ بمواصفات الأطباء اليوم أشد بكثير من مواصفات الفقهاء في تعريف الحياة غير المستقرة وحركة المذبوح وما شاكل ذلك.

مفهوم الموت عند الأطباء:

لا شك أن الروح أمر من أمور الغيب. قال تعالى {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي. وما أوتيتم من العلم الا قليلا} (الاسراء/٨٥). وبما أن الأطباء مثل غيرهم من البشر لا يعرفون شيئا عن كنه الروح فإنهم بالتالي لا يستطيعون أن يفهموا حقيقة الموت. فإن الذي لا يعرف سر الحياة لا يعرف سر الموت كما أشار الى ذلك الامام الغزالي.

ويعرف الفقهاء كما أسلفنا الموت بأنه مفارقة الروح للجسد. وبما أن الاطباء لا يستطيعون أن يدركوا من أمر الروح شيئا سوى ما تدلهم عليه النصوص أو اجتهادات الفقهاء، فانهم مثل الفقهاء اتخذوا علامات تدل على الموت. ولا شك أن علامات الموت عند الاطباء أدق وأصدق من تلك العلامات التي اتخذها الفقهاء والتي وقفنا عندها طويلا، وأوضحنا مدى الاضطراب وعدم الوثوق فيها حيث يشخصون ويعتبرون الانسان ميتا وهو لا يزال حيا نتيجة قصور معلومات زمنهم في هذا الباب.

والموت عند الأطباء هو نهاية الحياة في البدن الانساني ولا يعني ذلك موت كل خلية فيه.

وقد جاء في تقرير الاجتماع العالمي الثاني والعشرين للاطباء المنعقد في سيدني في استراليا عام ١٩٦٨: إن الموت عملية متدرجة على مستوى الخلايا وأن الانسجة تختلف في مدى قدرتها على تحمل إنقطاع الاوكسجين (بحيث تموت خلايا الدماغ، بعد أربع دقائق فقط من انقطاع الترويه الدموية بينما يمكث الجلد والقرنية والعظام فترة تتراوح ما بين اثنتي عشرة وأربعة وعشرين ساعة بدون تبريد. كما يمكن تبريد الخلايا والانسجة

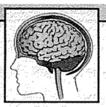
وابقاؤها حية لمدد طويلة. فيمكن مثلا تبريد الحيوانات المنوية وابقاؤها حية عشرات السنين وكذلك اللقيحة والخلايا المولدة للّيفين (Fibroblasts). ولكن الموت ليس مجرد موت خلايا أو الاحتفاظ بها حيّة في ظروف معينة وانما هو موت الانسان ككل، وبالتالي عدم القدرة على الاحتفاظ بخلايا جسمه حية.. وهي نقطة اللاعودة مهما بذل الاطباء من محاولات الانقاذ والاسعاف، وسير الجسم في طريق التحلل والانتهاء»[٤٣].

ويعرف قاموس اوكسفورد الموت بطريقتين: عملية الموت (الاحتضار) أو أن الشخص قد مات فعلا[٤٣].

ومن المعلوم أن كثيراً من خلايا الميت وأنسجته تبقى حية لفترة محدودة بعد موت الشخص ككل. وقد لاحظ الأوربيون منذ أزمنة طويلة نمو الشعر بعد الوفاة (يحلقون شعر الميت ويلبسونه أفضل ثيابه ويبقى أياما قبل دفنه) كما انهم قد لاحظوا استطالة اظافره بعد قلمها. كما أن العظم والاوعية الدموية يمكن زرعها في شخص آخر بعد موت الشخص بثمان وأربعين ساعة (دون تبريد) ويبقى الجلد والقرنية صالحة للزراعة لمدة ٢٤ ساعة (كذلك بدون تبريد). وهذا يعني ببساطة أنها لا تزال حية وتستطيع العمل[٤٤].

ويقول الدكتور عصام الشربيني في بحثه المقدم الى ندوة الحياة الانسانية: «إن الموت ليس نقطة واحدة أو خطاً رفيعا، ولكنه عملية لها امتداد يطول أو يقصر، والناس من قديم يعرفون أن فلانا دخل مرحلة الموت أو بدأ عملية الموت أو في حالة الاحتضار وتتحدث كتب السنّه عما يسنّ عند الاحتضار». وربما كان اللفظ مأخوذا مما في الكتاب الكريم {أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموتُ إذ قال لبنيه} (البقرة/ ١٣٣) وقوله تعالى: {كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين} (البقرة/ ١٨٠).

ثم يقول: «فالجسم مجموعة من الخلايا والأعضاء والاجهزة تقوم كل منها بوظيفتها، ولها



متطلبات لاداء هذه الوظائف من غذاء أو طاقة أو وسط يحيط بها في توازن دقيق، ويعتمد كل منها في ذلك على الآخر، فإذا اختلت وظيفة عضو أثر ذلك على اداء الأعضاء الأخرى لوظائفها بدرجات متفاوته كما في تشبيه الرسول {صلى الله عليه وسلم} للمؤمنين بالجسد: «إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» (أخرجه مسلم) والخلل اذا لم يتوقف تداعى اليه عضو بعد عضو حتى يحدث الموت»[٤٥].

والغريب حقا أن الفقهاء وعلماء الدين عندما حددوا الموت بخروج الروح من البدن ومفارقتها له جعلوا من صفات ذلك فقدان القدرة على الادراك والاحساس والنطق والحركة الذاتية، وإن بقي الشخص يتنفس أو يجول الدم في عروقه وينبض قلبه وذلك فيما أسموه حركة المذبوح، واعتبروا ذلك الشخص ميتا وتسري عليه أحكام الموت إذا كان سبب وصوله لحركة المذبوح اعتداء شخص على حياته أو افتراس وحش أو حادث (سماوي) مثل هدم أو سقوط في حفرة أو سقوط من حالق أو حادث مروري.

والعجيب حقا أن يقوم الاستاذ الدكتور (كريستوفر باليس) في كتابه أبجديات موت جذع الدماغ «بتعريف الموت بأنه: فقدان الادراك والاحساس والقدرة على الحركة الارادية بالاضافة الى فقدان تام لا رجعة فيه للقدرة على التنفس»[٤٦].

ولا شك أن تعريف الدكتور باليس أدق وأضبط في هذه الناحية من تعريفات فقهائنا الأجلاء. إذ أنهم أهملوا في هذه النقطه موضوع النفس والتنفس مع أنهم انتبهوا له في مواضع أخرى، حتى قال بعضهم أن النَفْس هي النَفَس وهي النسيم الداخل والخارج من الرئتين (ذكره ابن القيم في كتابه الروح).

ولا شك أن الجمع بين التعريفين هو الصواب وهو فقدان الادراك والاحساس والارادة والحركة الذاتية بالاضافة الى فقدان القدرة على التنفس..

وينبغي أن يكون كلاهما قد فقد الى غير رجعة.

علامات الموت عند الاطباء:

يعتبر توقف التنفس والقلب والدروة الدموية توقفا لا رجعة فيه علامة هامة وأساسية وفارقة بين الموت والحياة. وبما أن القلب يضخ الدم المحتوي على الاوكسجين (الذي سماه القدماء الروح الحيواني والبخار الذى تنضجه حرارة القلب)[٤٧] الى كل خلية في الجسم فإن توقف القلب والدورة الدموية يعني موت جميع خلايا الجسم ولا تموت هذه الخلايا دفعة واحدة بل بالتدريج وأولها موتا خلايا الدماغ التي تموت بعد انقطاع التروية الدموية عنها بأربع دقائق فقط. وتوقف القلب وحده دون توقف الدورة الدموية لا يعني الموت.

ولكي نزيد هذا المفهوم وضوحا فإن توقف القلب في العمليات الجراحية التي تجرى للقلب (عمليات القلب المفتوح) لا تعني أن هذا الشخص قد مات، رغم أن قلبه يُوقف أثناء العملية لمدة ساعتين أو أكثر، والسبب هو أن وظيفة القلب تقوم بها مضخة تضخ الدم الذي يتجمع من الوريد الأجوف السفلي والوريد الأجوف العلوي بعد أن يمر في جهاز يقوم بوظيفة الرئة ثم يعاد الى الشريان الأورطي الذي بدوره يوزع الدم على بقية أعضاء الجسم.

وفي هذه الحالات رغم أن القلب متوقف والتنفس متوقف الا أن الشخص حي بكل تأكيد.. وذلك لأن الدورة الدموية لم تتوقف ولو لثوان معدودة. والدماغ يتلقى التروية الدموية دون انقطاع.. ووظيفة الرئتين تقوم بها آله أخرى تأخذ ثاني اوكسيد الكربون من الدم وتعطيه الاوكسجين.

وهذا المثال يوضح أن القلب رغم أهميته البالغة للانسان الا أنه يمكن الاستغناء عنه لمدة ساعتين أو ثلاث بواسطة آلة تقوم مقامه.. وكذلك الرئتين.

ويمكن كذلك استبدال هذا القلب التالف بقلب شخص آخر (توفي دماغيا)، أو حتى بقلب حيوان آخر.. ولولا عمليات الرفض للجسم الغريب لأمكن استخدام القلوب من الحيوانات لزرعها في الانسان، ولكن عمليات الرفض الشديدة تجعل هذه العملية محفوفة بالمخاطر.. وهناك تجارب متعدده على قلوب الحيوانات (وبالذات الخنزير) ومحاولة تغيير جهازها المناعي بتطعيمها بجينات إنسانية.. وسيتضح مدى نجاح أو فشل هذه التجارب في خلال السنوات القليلة القادمة.

لهذا ينبغي أن ندرك أنه حتى في الحالات التي يُعلن فيها الموت بسبب توقف القلب والدورة الدموية والتنفس الا أن السبب الأول في الوفاة هو انقطاع التروية الدموية عن الدماغ، لهذا إذا أمكن مواصلة التروية الدموية للدماغ حتى مع توقف القلب فإن هذا الشخص يعتبر حيّا، ولكن العكس غير صحيح. أي إذا تهشم الدماغ وبالذات جذع الدماغ الذي فيه المراكز الحيوية (اليقظة، التنفس، التحكم في الدورة الدموية) ومات موتا لا رجعة فيه فإن الانسان يعتبر ميتا رغم أن قلبه لا يزال ينبض بمساعدة العقاقير وبعض الاجهزة، وتنفسه لا يزال مستمراً بواسطة المنفسة (الآلة)، وهذا هو بالضبط ما نعبّر عنه بموت الدماغ.

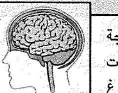
موت الدماغ:

إن موت الدماغ هو موت الدماغ بما فيه المراكز الحيوية الهامة جداً والواقعة في جذع الدماغ، فإذا ماتت هذه المناطق فإن الانسان يعتبر ميتاً، لأن تنفسه بواسطة الآلة (المنفسه) مهما استمر يعتبر لا قيمة له ولا يعطى الحياة للانسان. وكذلك استمرار النبض من القلب بل وتدفق الدم في الشرايين والأوردة (ما عدا الدماغ) لا يعتبر علامة على الحياة طالما أن الدماغ قد توقفت حياته ودورته الدموية توقفا تاما لا رجعة فيه.

وهذا يشبه تماما ما يحدث عندما تقوم الدولة بتنفيذ حكم الله في القصاص، أو قتل المفسدين في الأرض من مهربي وتجار المخدرات. في هذه الحالة يضرب السيّاف العنق فتتوقف الدورة الدموية عن الدماغ ويموت الدماغ خلال دقائق معدودة (ثلاث الى أربع دقائق). بينما يبقى القلب يضخ الدم لمدة ١٥ إلى ٢٠ دقيقة.. ويتحرك حركة

المذبوح وهو أمر نشاهده عند ذبح الدجاجة أو الخروف.. ولكن هذه الحركة ليست بذاتها دليلا على الحياة، طالما أن الدماغ قد مات.

والأمر ذاته يحدث في الشنق.. فعندما يشنق الانسان تتوقف الدورة الدموية عن الدماغ بينما يستمر القلب في الضخ لعدة دقائق قد تبلغ ربع ساعة الى ثلث ساعة.. وفي هذه الفترة لا شك أن هذا الشخص قد مات رغم أن قلبه لا يزال ينبض وذلك لأن الدورة الدموية قد انقطعت عن الدماغ، وقد مات الدماغ بالفعل.



أسباب موت الدماغ:

إن أهم أسباب موت الدماغ تتلخص في الآتي:

١ ـ إصابات الدماغ بسبب الحوادث وأهمها حوادث المرور. وهذه الحوادث تمثل خمسين بالمئة من جميع حالات موت الدماغ. وفي المملكة العربية السعودية تمثل حوادث المرور ٦٠ بالمئة من جميع وفيات الدماغ.

وتعتبر حوادث المرور في المملكة ومنطقة الخليج صاحبة الرقم الأعلى في العالم وتبلغ عشرة أضعاف ما هو موجود في الولايات المتحدة وأوربا بالنسبة لكل مائة الف من السكان وفي عام ١٩٩٤م وعام ١٩٩٥ توفي في كل واحدة منهما اكثر من ٣٧٠٠ (ثلاثة آلاف وسبعمائة شخص) أغلبيتهم المطلقة كانت تحت سن الأربعين (اكثر من ٧٥ بالمئة من جميع الحالات)، كما أصيب في حوادث المرور اصابات بالغة أدت الى دخول المستشفى أكثر من خمسة وثلاثين ألف شخص في كل عام.. وهذه أرقام مرعبة جدا جدا جدا وتسبب الاعاقة وإضاعة أثمن وأغلى ثروة لدى الأمة وهي الشباب.

إن هذه الاصابات المروعة ينبغى أن تواجه بحزم ومعالجة جذرية لأسباب هذه الاصابات وأهمها السرعة الجنونية، وعدم استخدام حزام الأمان، والاستهتار وقطع الاشارات الضوئية.. الخ.. ولابد من عقوبات زاجرة رادعة حتى يمكن أن نخفض هذا النزيف في قدرات الأمة وفي شبابها وفي ثروتها.

٢ ـ نزف داخلي بالدماغ بمختلف أسبابه. وهو يمثل حوالي ٢٠ بالمئة من جميع حالات موت الدماغ.

٣ ـ أورام الدماغ، والتهاب الدماغ وخراج الدماغ والسحايا.. وتمثل حوالي ٢٠ بالمئة من حالات موت الدماغ.

نكرر القول بأن أهم سبب لموت الدماغ هو حوادث السيارات وللأسف فإن أغلبية المصابين هم من الشباب زهرة هذه الأمة وأهم مصادر ثروتها.

تشخيص موت الدماغ:

يتم تشخيص موت الدماغ حسب الشروط الطبية المعتبرة وأهمها:

١ ـ وجود شخص مغمى عليه اغماء كاملا.

٢ ـ لا يتنفس الا بواسطة جهاز المنفسه.

٣ ـ تشخيص لسبب هذا الاغماء، يوضح وجود اصابة أو مرض في جذع الدماغ أو في كل الدماغ.

٤ ـ عدم وجود أسباب تؤدي الى الاغماء المؤقت مثل تعاطي العقاقير أو الكحول أو انخفاض شديد في درجة حرارة الجسم أو حالات سكر شديد أو انخفاض شديد في سكر الدم أو غير ذلك من الأسباب الطبية المعروفة التي يمكن معالجتها.

٥ ـ ثبوت الفحوصات الطبية التى تدل على موت جذع الدماغ وتتمثل:

(أ) عدم وجود الأفعال المنعكسة من جذع الدماغ.

(ب) عدم وجود تنفس بعد ايقاف المنفسه لمدة عشر دقائق بشروط معينة منها استمرار دخول الاوكسجين بواسطة انبوب يدخل الى القصبة الهوائية ومنها الى الرئتين، وارتفاع نسبة ثاني اوكسيد الكربون في الدم الى حد معين (اكثر من ٥٠مم من الزئبق في الشريان).

٦ ـ فحوصات تأكيدية مثل رسم المخ الكهربائي E E G وعدم وجود أي ذبذبة فيه، أو عدم وجود

دورة بالدماغ بعد تصوير شرايين الدماغ أو بفحص المواد المشعة.

ماذا بعد تشخيص موت الدماغ:

إذا تم التشخيص والتأكد منه بواسطة الفريق الطبي المختص يتم ابلاغ المركز الوطني لزرع الأعضاء كما يتم ابلاغ أهل المصاب.

يحاول فريق المركز الوطني التفاهم مع الأهل في أن يأذنوا باستقطاع بعض الأعضاء الحيوية من متوفاهم لينقذوا بذلك مرضى أوشكوا على حافة الخطر وأحدق بهم الموت. فإذا أذن الأهل بذلك يتم استقطاع الأعضاء الحيوية مثل القلب، الكلى، الكبد وتزرع كل واحدة منها في شخص معيّن يعانى من مرض خطير وفشل لوظيفة ذلك العضو.

وقد استطاعت المملكة العربية السعودية أن تكون سباقة في هذا المجال حيث تم حتى نهاية عام ١٩٩٥م زرع ٧٣١ كلية من متوفين دماغيا كما تم زرع ٦٤ قلبا و٨٤ صماما قلبيا و٩٤ كبدا وثلاث حالات زرع بنكرياس وحالتين زرع رئة.

اما إذا رفض الأهل الموافقة على التبرع فإن الاطباء يوقفون المنفسة وفي خلال دقائق معدودة يتوقف القلب. وقد أفتى مجمع الفقه الاسلامي في دورته الثالثة المنعقدة في عمّان الاردن ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م حيث قرر المجمع أن الشخص يعتبر ميتا إذا تبينت فيه احدى العلامتين التاليتين:

١ ـ إذا توقف قلبه وتنفسه توقفا تاما، وحكم الاطباء بأن هذا التوقف لا رجعة فيه.

٢ ـ إذا تعطلت جميع وظائف دماغه تعطلا نهائيا، وحكم الأطباء الإختصاصيون الخبراء بأن هذا التعطل لا رجعة فيه، وأخذ دماغه في التحلل.

وفي هذه الحالة يسوغ رفع أجهزة الانعاش المركبة على الشخص، وإن كان بعض الأعضاء لا يزال يعمل آليا بفعل الأجهزة المركبة.

وقد وافق المجمع الفقهي لرابطة العالم الاسلامي في دورته العاشرة المنعقدة بمكة المكرمة (١٤٠٨هـ) على رفع أجهزة الانعاش وايقافها متى تبين بالفحوصات الطبية المؤكدة من قبل المختصين بأن هذا الشخص قد مات دماغيا.

وبهذه الفتاوى ظهر عهد جديد في ميدان الطب. وهو تعريف موت الدماغ طبيا وقبول هذا المفهوم شرعيا. ومن ثمّ انفتح باب زراعة الأعضاء من المتوفين دماغيا، وأمكن انقاذ مئات المرضى الذين يعانون من فشل نهائي لأعضائهم الحيوية الهامة وبالتالى تم انقاذهم بإذن الله تعالى وبفضل التقدم الطبي من موت محقق.

الهوامش:

(٣١) الاحياء ج ٣/ ٤ .

(٣٢) الشيخ بكر ابو زيد أجهزة الانعاش وحقيقة الوفاة بين الفقهاء والاطباء، مجلة مجمع الفقه الاسلامي الدورة الثالثة مجلد ٣، ج٢/ ٥٢٩ ـ ٥٤١.

(٣٣) روضة الطالبين للامام النووي ج٢/٩٨.

(٣٤) د. محمد الأشقر: نهاية الحياة (ندوة الحياة الانسانية بدايتها ونهايتها) ومنشورة أيضا في مجلة مجمع الفقه الاسلامي مجلد ٣، ج٢: ٦٦١ ـ ٦٧١.

(٣٥) حاشية ابن عابدين ج١/ ٥٧٢.

(٣٦) ندوة الحياة الانسانية وهي منشورة في مجلة مجمع الفقه الاسلامي مجلد ٣/ ج٢: ٧١٩ ـ ٧٢١.

(٣٧) د. وهبة الزحيلي: الفقه الاسلامي وأدلته، دار الفكر، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٩ ج٨/ ٢٥٣.

(٣٨) المصدر السابق.

(٣٩) منهاج الطالبين للنووي ج٤/ ١٠٣ ، ١٠٤.

(٤٠) المصدر السابق.

(٤١) بدر الدين الزركشي: المنثور في القواعد ج٢/ ١٠٦.

(٤٢) د. محمد نعيم ياسين: نهاية الحياة الانسانية في اجتهادات الفقهاء، ندوة الحياة الانسانية والمنشورة ايضا في مجلة مجمع الفقه الاسلامي العدد الثالث ج٢/ ٦٣٥ ـ ٦٦٠.

(٤٣) Pallis C: Abc of Brain Stem death B M J, 1983

(٤٤) المصدر السابق.

(٤٥) د. عصام الشربيني: الموت والحياة بين الاطباء والفقهاء. ندوة الحياة الانسانية الكويت ومنشورة أيضا في مجلة مجمع الفقه الاسلامي ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م العدد ٣ ج٢/ ٥٧٣ ـ ٥٨٧.

(٤٦) Pallis c: ABC of Brain Stem Death Reappraisiny Death 1 - 4 (مصدر رقم ٤٣).

(٤٧) انظر تفاصيل ذلك في كتابي : موت القلب أو موت الدماغ الدار السعودية جدة ١٩٨٦ فصل الروح ٣٧ ـ ٥٧.

أغنية حب[*]

شعر : لطفي البشر عز الدين

- تونس -

الزّهْر أندى عــبــيــراً منه قلبــانا

والفــجــر ألطف روحــاً منه روحــانا

والطيــر مــا هتــفت في الروض ســاجـعــة

إلا لتــمــزج شكواها بشكوانا

* * *

يا حــبــيــبي مــا على الأرض ســوانا

فــادع للأيام أن ترعى صــبــانا

* * *

أيّ همس حــالم الإيقــاع نشــوان الصَّدى

طاف كالفرحة.. كالنجّوى .. كلألاء الندى

حين نــادتني وحــيّت وهي تلقي لي يدا

* * *

طافت على شــاطيء الأحــلام حــيــرتنا

وأوقــدت في ســمــاء الحبّ نيــرانا

فـــلا تسل عن أمــانينا وغــايتنا

فــقــد نرى من وراء الكون أكــوانا

* * *

أيّ دنيــا شــعــشــعت أنغــامنا

فــانطلقنا بـين عــشق وجنلي

* * *

ثمّ ســرنا بين لحن وقلوب شــاعــرة

نثــر الحبّ عليــهــا من رؤاه السّاحــرة

وسرى فــيــهــا سرى الحلم بعين ســاهرة

نحنُ الهــوى وهو منّا حــيــثُ نُنزله

يســري افــتضــاحــاً بعينينا وكتــمــانا

غَفَتْ على وتــر الإلهــام نشــوتنا

وأستــيــقظت من عــميق اللحن ذكرانا

قلتُ والكون شــبــاب حــولْنَا

«أيهــا العــشــاق دنيــانا هنُا»

* * *

وغــفــا اللحن فضــمــتنا الأمــاني الغــافــيــة

واحتــوتنا نشــوة سكرى .. ودنيــا شــادية

مــهــجــة تهــتف للحبّ .. وأخــرى حــانيــة

* * *

يا حــبــيــبي قــد ملكنا الزّمنا

وكــتــبنا خلفــه ليلتنا

فلنمــلأ الكون أشــعــاراً وألحــانا

حــتى نرى الكون كل الكون نشــوانا

(*) هذه القصيدة مزجت فيها - عن قصد - بين وزن بحر البسيط، ووزن بحر الرمل.

من خلف المشربية

العلم المعار

أوراق زوجية

ابو عواد / ام عمرو

رسالة الى السيدة الجميلة

مجلة شهرية ذات
أداء متخصص تخاطب
عقل المرأة ووجدانها

هن

مكتبات:

العلْمُ المعار

[إذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكتب لا ينفع] .

مما لا ريب فيه أن إعارة الكتب أمر مستحب محمود، شريطة أن يكون من يستعير الكتاب يبغي الاستفادة منه، ويحافظ عليه ثم يعيده على وجه السرعة، ولا يؤخره حتى يستفيد منه رواد المكتبة أو صاحبه إذا كان الكتاب أخذه المستعير من مكتبة خاصة.

ولأن الاستعارة فيها فائدة اعتبر السماح باستعارة الكتب من صفات العلماء المحمودة.

وهناك في تراثنا عالم يدعى/ الحافظ بن الخاضبة كان محبوباً إلى الناس كلهم، فاضلا، حسن الذكر، لا يأتيه مستعير لكتاب إلا أعطاه له، أو دله عليه.

وكان تيسير الاستعارة داعياً لأن يستغنى بها بعض العلماء، فلم يجدوا من الضرورى أن يشتروا الكتب، أو يبذلوا المال ثمناً لها، ومن هؤلاء أبو حيان الغرناطي الذى يقول: إذا أردت كتاباً استعرته من كتب الأوقاف وقضيت حاجتي.

[ابن حجر في الدرر الكامنه: ٤/٣٠٩]

ولم تكن الاستعاره على أية حال مطلقة تماما في المكتبات الإسلامية، بل وضعت عليها قيود لتنظيم العمل وسيره، ومن ذلك أنه كان من نظام مكتبة القاهرة الفاطمية أنها تعير كتباً للطلبة المقيمين في القاهرة فقط لا غير، كما يذكر محمد فريد وجدى: وهذا يذكرنا بالنظام الإنجليزى المعمول به في أغلب المكتبات البريطانية إن لم يكن كلها، والذى لا يسمح بإخراج الكتاب المستعار من الجزر البريطانية.

[دائرة معارف وجدى ج٤]

وفي مصر الآن يسمح باستعارة الكتاب مدة خمسة عشر يوماً فقط لا غير، إلا أنه يسمح للمستعير بتجديد استعارة الكتاب مرة ثانية، وثالثة حتى ينتهى المستعير من الاستفادة منه، وأن يقدم استمارة عضوية للمكتبة مرفقاً لها ضمانة يوقعها ضامن واحد يعمل في أى مصلحة حكومية يتعهد بسداد ثمن الكتاب إن فقد، وتصدق الضمانة بخاتم الدولة الرسمى.

وفي حالة عدم إعادة المستعير للكتاب تخطر الجهة التي يعمل بها الضامن، وتوقع عليه غرامة مالية مقدارها (٣ أضعاف) ثمن الكتاب، وذلك بعد إنذار المستعير.

ومن خبرتى في العمل بالمكتبات أقول أنه رغم هذا النظام (الروتيني) فإن المئات من الكتب تفقدها المكتبات المصرية سنويا، والمسألة لا تحتاج إلى قانون جديد رادع بقدر ما

اعداد:
اسماء أبو بكر محمد ـ مصر ـ

تحتاج إلى وعي مكتبي سليم، وحب حقيقي للكتاب، وإدراك فاهم لآداب الاستعارة.

وفي بعض المكتبات الاسلامية كان يطلب إلى المستعير أن يدفع ضماناً أو ما يطلق عليه الآن (تأمين) ولكن كان يعفى من ذلك بعض العلماء، وأفاضل الناس، لأن المسئولين في تلك الآونة كانوا يقدرون العلم والعلماء، وفي نفس الوقت كان العلماء يحترمون الكتاب، ويعرفون آداب الاستعارة، ويعيدون ما استعاروا إلى المكتبة مع خالص شكرهم وامتنانهم.

ولقد مدح ياقوت الحموى صاحب «معجم الأدباء» و«معجم البلدان» المشرفين على المكتبات ببلدة (مرو) لأنهم سمحوا له أن يستعير مائتي مجلد، دون أن يدفع ضماناً مالياً، وإن كنا نرى أن هذا الكم مبالغ فيه بعض الشيء.

وكثيراً ما كان يحدد وقت للمستعير بحيث يلزمه رد الكتاب دون أي تجاوز عن هذا الوقت المحدد.

وقد سجل العلامة عبد الرحمن بن خلدون في الوثيقة التى أهدى بها كتابه (العبر) إلى مكتبة (القيروان): أنه لا يجوز إعارة الكتاب إعارة خارجية إلا إذا كان المستعير له شخصاً موثوقاً به، وأميناً، على أن يدفع ضماناً مهماً، وأن يرد الكتاب في مدة لا تتجاوز شهرين.

[ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم: ص١٦٨ - ١٦٩ «بتصرف»]

ومن آداب الاستعارة المتعارف عليها في المكتبات الاسلامية: ينبغى للمستعير أن يحافظ على الكتاب تمام المحافظة، ولا يجوز أن يصلحه بدون إذن من صاحبه، ولا يحشى، ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه، أو خواتمه، أو هوامشه، إلا إذا علم رضا صاحبه عن ذلك تماماً، ولا يعيره لغيره، ولا يدفعه ضماناً لشيء.

وعلى المستعير ألا يطيل مقام الكتاب عنده من غير حاجة له، بل يرده إذا قضى حاجته منه، أو انتهت المدة الى تأذن له بها. ولا يصح أن يحبسه إذا طلبه المالك منه.

[المرجع السابق ذكره، وكذلك دائرة المعارف الإسلامية: ٢/١٠٤٧]

كل هذا ينطبق على الكتاب المستعار من شخص، أو من مكتبة خاصة، ولكن في حالة الكتاب المستعار من مكتبة عامة، لا بأس من إصلاحه ممن هو أهل لذلك. وينبغي على المستعير أن يشكر للمعير عونه، ويجزيه خيراً.

ومن أجلِّ صور الإعارات التي قرأت عنها ما رواه (الجبرتي) في كتابه: «عجائب الآثار»: يقول في عام ١١٧١هـ = ١٧٥٧م توفي الحاج/ أحمد بن محمد الشرايبي، وكان من أعيان التجار المشتهرين، وكان بيته في حي الأزبكية (وسط القاهرة) بيت المجد والفخر والعز.. كان في غاية من الغني والرفاهية والنظام ومكارم الأخلاق والإحساس الخاص والعام، ويتردد إلى منزله العلماء والفضلاء وكانت مجالسه مشحونة بكتب العلم النفيسة للإعارة والتغيير، وانتفاع الطلبه، ولا يكتب عليها وقفية، ولا يدخلها في مواريثه، ويرغب فيها، ويشتريها بأعلى الأثمان، ويضعها على الرفوف والخزائن، في مجالسه جميعاً، فكل من دخل بيته من أهل العلم إلى أي مكان يقصد الإعارة أو المراجعة وجد بغيته، ومطلبه في أي علم من العلوم، ولو لم يكن

الطالب معروفاً، ولا يمنع من يأخذ الكتاب بتمامه، فإن رده في مكانه رده، وإن لم يرده واختص به أو باعه لا يُسأل عنه، وربما بيع الكتاب عليه، واشتراه مراراً، ويعتذر عن الجاني بضرورة الإحتياج.

[الجبرتي في تاريخه: ١/ ٢٦٥ وما بعدها]

ويجدر بنا أن نذكر أنه وجد بالعالم الإسلامي مكتبات للإطلاع الداخلي فقط دون إعارة خارجية كما هو متبع في بعض مكتبات أوربا مثل المتحف البريطاني في لندن.

ومن الذين فعلوا ذلك في البلاد الإسلامية القاضي/ ابن حيان النيسابوري الذي أوقف كتبه على أهل العلم على شرط ألا يعار كتاب منها إعارة خارجية مهما كانت الظروف.

[المجلة الإسلامية: ٣/ ٢٣٥]

وفي كتابه «الخطط» يقول المقريزي أنه: قد اشترط هذا الشرط نفسه في مكتبة المدرسة المحمودية التى أنشأها/ جمال الدين محمود بن على الذي نص في وثيقة الوقفية على أنه لا يجوز إخراج أى كتاب خارج بناء المدرسة.

وعادة ما كانت بعض المكتبات الإسلامية تتشدد في مسألة إعارة الكتب، أو تمنع خروج كتب معينة، ولا تعيرها، وعلى سبيل المثال: مكتبة الحكمة في نيسابور، ومكتبات الأوقاف، وفي هذه الحالة فالإستفادة من الكتاب والإنتفاع به يقتصر على القيام بنسخ الكتاب داخل خزانة المكتبة.

وكذلك الحال عند بعض الأفراد، حيث يحرمها على المنتفعين دون سبب محدد، حتى إن أحدهم قال: «إذا عانيت الموت ألقيتها في البحر» (يقصد الكتب)!

[السخاوى في الضوء اللامع، بتصرف]

وأحب أن أؤكد هنا أن إحياء الكتب والتشجيع على الإستفادة منها كان من عوامله المهمة ما تعارف عليه المسلمون من استعارة الكتب فترة من الزمن من مالكها، وهذا يمكن المستعير من نقل نسخة من الكتاب لنفسه.

كما أن نظام الإستعارة شجع عليه علماء المسلمين في وقت باكر، قال القاضى وكيع: «أول بركة العلم إعارة الكتب». وعملية إعارة الكتب أو استعارتها كانت منذ القرن الثانى الهجري، فقد قال ابن شهاب الزهرى (ت:١٢٤هـ) ليوسف ابن زيد (تلميذه): «إياك وغلول الكتب، قال: وما غلول الكتب؟، قال: حبسها».

وربما تلطف أحدهم بشعر رقيق لطلب كتاب استعاره من صاحبه، وذلك مثل ما عمل منذر بن سعيد البلوطي، الذى كتب إلى أبي على القالى «صاحب الأمالى» (ت: ٣٥١هـ) يطلب في شعره كتاباً بعنوان: «الغريب المصنف».

وكان أصحاب الكتب المعارة يسمحون بنقل نسخ أخرى للمستعير من الكتاب الذى استعاره، ويعطيه لذلك مدة معلومة، فالقاضي

أبو الوليد الكناني، (كما جاء في الإلماع، ص ٢٢٤) إذا أعار كتاباً لأحد إنما يتركه عنده بعدد ورقاته أياما ثم لا يسامحه بعد ذلك ويقول: «إن كنت أخذته للدرس والقراءة فلن يغلب أحد حفظ ورقه كل يوم، وإن أردته للنسخ فكذلك، وإن لم يكن هذا فأنا أحوط بكتابي، وأولى برفعه منك».

وعن كتاب «الحضارة الإسلامية» للعلامه/ منز (٣٢٧/١) نعرف أن هناك من كان يضن بإعارة كتبه خوفاً عليها، كان يستنسخ من الكتاب المطلوب إعارته نسخة، ويعطيها للمستعير، ويحتفظ بالأصل عنده، ومثال ذلك القاضي أبو المطرف قاضي الجماعة في الأندلس، الذي كان لا يعير كتاباً من كتبه البتة، وإذا سأله أحد ذلك وألح عليه أعطى الكتاب للناسخ فنسخه، وقابله، ودفعه إلى المستعير. [المرجع السابق].

وظلت إعارة الكتب من الأمور التى يصف المستفيدون صاحبها بالسمات الحميدة، ففي ترجمة العلامة الحسين بن محمد الطيبي (ت: ٧٤٣هـ) وهو من الذين عرفوا بذلك، وقد وصفه ابن حجر العسقلاني في كتابه «الدرر الكامنه: ٦٩/٢» بقوله: (كان ملازماً لإشغال الطلبة في العلوم الإسلامية بغير طمع بل يجذبهم ويعينهم، ويعير الكتب النفيسة لأهل بلده وغيرهم من أهل البلدان، من يعرف، ومن لا يعرف).

وربما كانت الإعارة مهمة جداً لإحياء الكتب والتراث بطريقة غير مباشرة، فكثيراً ما كانت تصاب الكتب بنكبات كبيرة كالحرق والتلف للخزانة التى أعيرت منها، ولا يبق من كتب هذه الخزانة الا الكتب المعارة، فيحفظ بها، وتصبح خسارة الكتب غير كبيرة، إذا كان قد قام بنسخها المستعيرون لها من قبل.

فقد احترقت كتب ابراهيم بن أبي بكر المعروف بالفاشوشة، ولم يبق منها له غير الكتب التي كانت عند الناس في العرض أو العارية منها.

وكذلك العلامة عبد الوهاب بن جعفر الميداني (ت: ٤١٨هـ) الذي كتب بنحو مائة رطل من المداد حين احترقت كتبه وأعادها من جديد، والسبب أنه لا يبخل بإعارة كتبه، سوى كتاب واحد كان لا يسمح به، فاحترق، وقد استحدث نسخاً من الكتب التى نسخت من كتبه سوى ذلك الكتاب المضنون به.

[**لسان الميزان: ٨٦/٤**].

وأحب أن أحيل القارىء إلى دراسة الدكتور حسن محمد سليمان المعنونة بـ (التراث العربي الإسلامي - دراسة تاريخية مقارنة)، والصادرة في القاهرة سنة ١٩٨٧ (ص ١٧٢ وما بعدها)، وكذلك كتاب (التربية والتعليم في الفكر الإسلامي للدكتور أحمد شلبي) والصادر في القاهرة سنة ١٩٩٢ (الباب الخاص بالمكتبات). وسيجد القارىء المزيد من التفاصيل حول هذه الجزئية.

هذه أمثلة تبرهن بالدليل القاطع على أهمية الاستعارة في المكتبات الإسلامية، وتؤكد مدى معرفة المسلمين للإستعارة بأصولها وآدابها، وأهميتها في الإستفادة بالكتب، والانتفاع بها





نوال مهنى
ـ مصر ـ المنيا

أراك فـي ورق الشجـر
ويندى قـربك الزهرُ
وينبتُ في الثرى عشبٌ
ويهمى الغيثُ والقطرُ
ويكسو الكونَ اشراقٌ
فكل رياضه خضرُ
أراك تنير لي افقى
فيحدو نورك البدرُ
ففي عينيك أفراحي
اذا ما جئتَ تزدهرُ
وفيها المنبع الصافي
فيُشفى القلبُ والصدرُ
ومنها القلب في طرب
ومنها الروح تستعر
وفي جفنيك يا عمري
ينوبُ ويصدحُ الوترُ
وفي عينيك يا قدري
بريقٌ صاغهُ الفجرُ
وتشرق فيهما شمسي
ويسكن فيهما القمر
وتضحك فيهما الدنيا
وسيل الحب ينهمر
وفي عينيك أحلامي
تلوحُ فيكمنُ الخطرُ
فأخشى نظرة حيرى
كساها الوجدُ والحذرُ
أحس الشوق يجذبني
فادفعه وأنتصرُ
فحظى منك الهيامُ
رواه الشعرُ والنثرُ

من خلف المشربية

هيام محمد الكيلاني
- الرياض -

١ - نشيدي الوطني ..
هو كتاب وحب وعهد
هو معجزة الحرف المغزول بدم وعرق

٢ - المستحيل..
لا أترك المستحيل يغوى يقظتي
هل يترك الجندى .. سلاحه؟
لا اترك القهر يقتلع أشعارى
هل تهرب المرأة .. مع الطيف؟
الجندى .. المرأة .. توأمان .. يكفى.

٣ - المرأة .. والوليد.
الصمت .. خصام اعتصام .. امرأة.. الصمت عندما لا تتجمل المرأة.. حتى عندما تقف أمام اكثر من فستان ولا تختار.. أو عندما تستمع لقضية مصيرية.. أنثوية.. اهدار للقضية.. أن تبقى المرأة أمام المرآة.
من قال: أن المرأة كل النساء؟ لا .. توجد واحدة .. أو بضعة أخريات. غيرهن.. استثناء .. هن بالذات هن .. قرار نضال استشهاد..
المرأة .. ليست ضحكة ابتسامة .. فموعد..
المرأة .. جميلة، مريم، الخنساء..
المرأة .. الجولان .. فلسطين .. لبنان .. الخليل.

أوراق زوجية

أبو عواد / أم عمرو

٨٧٨ـ أبو عواد:

ربما كان الزوج أحوج من زوجته ليسمع منها أبجديات الرومانسية ويحياها والتي عادة ما تكون ثروة وافرة العطاء أيام الخطوبة وفي الأشهر أو السنوات الأولى من الزواج ثم بعد ذلك تتلاشى تدريجياً.. فتصبح أذن الزوج قبل عينه تطرب لها من مصادر خارجية فيشق طريقه في سكة التائهين الباحثين عن السعادة المفقودة في بيوتهم.

٨٧٨ـ أم عمرو:

الرومانسيه كالكهرباء تحتاج دائرة مغلقه فإذا توقف المسْتَقْبِلُ عن الرد تنقطع الدائرة ويتوقف الإرسال، وللتائهين من الأزواج نقول:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه ابداً لأول منزل

٨٧٩ـ أبو عواد:

اذا لم يترجم حبك الكبير إلى لفتات حانية وأحاسيس معبرة دافئه فماذا يهمني أن لديك كنزا مدفونا لا يكفكف عني دموع العوز والفاقه!؟

٨٧٩ـ أم عمرو:

الكنوز لا تخرج من الأرض بنفسها نحن الذين نبحث عنها ونخرجها وكنز الحب تكشف عنه الطمأنينة وتخرجه الثقة ويحفظ انسيابه وتدفقه التعزيز المستمر.

٨٨٠ـ أبو عواد:

فقط عندما يجوع الرجل يكون الطريق إلى قلبه من خلال الأطباق الشهية وعندما يستبد به الهيام والوجد أقصر الطرق إلى قلبه تحرير طاقاته وتفريغ صبابته المحمومه.. انما في كل الأوقات فإن الطريق الرئيسي إلى قلبه هو امرأة ناضجة تحاوره بعقلها بمدخلات تحسسه برجولته وتعبر عن أنوثتها.

٨٨٠ـ أم عمرو:

للحظة تصورت أن المرأة الناضجة في هذه الورقة تحاور بعقلها عقلاً آخر لأكتشف بسرعة أن الأنوثة تدور في فلك الرجولة كالعادة. فلنكتفي بالأطباق الشهية والوجد والصبابة فلا مكان للعقل هنا!

٨٨١ـ أبو عواد:

حب المتزوجين مرض وزوجاتهم يتحملن مسؤولية عدم تحصينهم ضده.

٨٨١ـ أم عمرو:

مرض حب المتزوجين من الرجال لغير زوجاتهم لا يمكن التحصين ضده لأنه ليس مرضاً عضوياً ولكنه مرض نفسي ينتج عن اصابة صاحبه بمزيج من النرجسية والطمع.

٨٨٢ـ أبو عواد:

كلّما بدت الزوجة أكثر استعداداً لأن تكون أمة مطيعة لزوجها كلما أوشكت أن تصبح سيدته المطاعة وأوشك أن يكون خادمها المخلص.

٨٨٢ـ أم عمرو:

ليس في الزواج سيادة ولا خدمة. الزواج مودة ورحمة تنشأ وتترعرع من الشراكة والتكامل والتكافؤ بين زوجين.

٨٨٣ـ أبو عواد:

الحب بين العاشقين نبش في الدواوين وبين المتزوجين سباق في الميادين.

٨٨٣ـ أم عمرو:

الحب هو نفس الشيء دائماً مهما تغيرت المرحلة والظروف، إنه العطاء والإيثار المتبادل بين طرفين.

٨٨٤ـ أبو عواد:

التجديد المستمر عند المرأة يكشف لزوجها عن ملكاتها الأخرى والروتين الدائم يحمله على السأم من عيونها الجميلة!

٨٨٤ـ أم عمرو:

التجديد مطلوب لكل افراد الأسرة وقديماً قالوا جدد نفسك كل يوم فالأشواك تنمو في الدروب التي لا نسير عليها دوماً، وهكذا حياتنا تحتاج منا دائما الرعاية والجهد لتظل مورقه مزدهرة.

٨٨٥ـ أبو عواد:

لاءات المرأة وعلو صوتها معاول هدم سعادتها أمام زوجها.

٨٨٥ـ أم عمرو:

الصراخ والرفض من طرف ما غالباً ما يشير إلى أن الطرف الآخر أصيب بالصم.

٨٨٦ـ أبو عواد:

جمال المرأة غير المدعوم بمضمون ثمين لا يختلف كثيراً عن أغلفة بعض المجلات التي تصدر أعدادها بوجه جميل ومضمون مقصر!!

٨٨٦ـ أم عمرو:

نعم ، جمال الشكل يغني ويبقى جمال النفس. اضافة إلى أن جمال الشكل نسبي بدرجة كبيرة.

٨٨٧ـ أبو عواد:

الكثير من الشعراء والفنانين والمطربين وأدعياء النسب إلى «قيس» و«جميل» و«عنترة» أسهموا بقدر وافر في نقل ثلثي عقل المرأة إلى حقيبة يدها ومرآتها وتركوها بثلثه الباقي تشقى وتشقي الأخرين.

٨٨٧ـ أم عمرو:

الشعر والفن لغة أناس أكثر شفافية وحساً. لذا فهم يرون ويشعرون بما لا يراه ويشعر به سواهم وبلغتهم نقول لمن ينتقص من عقل المرأة.

رب رام لي بأحجار الأذى ... لم أجد بداً من العطف عليه.

٨٨٨ـ أبو عواد:

رفع الكلفة بين الزوجين ينبغي أن يبقي على قدر من الرسمية الموجودة بين الأستاذ والطالب والرئيس والمرؤوس؛ وإلا جنت على نفسها براقش!!

٨٨٨ـ أم عمرو:

الرسمية بين الزوجين تفقد العلاقة الزوجية تلقائيتها وفطريتها التى تجعلها سكناً للنفس تكشف فيه عن نفسها وتسترخى، الرسمية تحرمنا من الصدق مع انفسنا ومع من نشاركهم حياتنا. إن قوس قزح لا يظهر إلا لمن يستطيعون تحمل المطر.

٨٨٩ـ أبو عواد:

إلى كل انسانة تحرص في الابقاء على زوجها محباً ومطيعاً لها: إياك أن تتوقفين عن العطاء واحاطته دائماً ببالغ الحفاوة والاحترام وإلا فثمن الغرور كبير.

٨٨٩ـ أم عمرو:

لا توجد زوجة عاقلة وناضجة تريد زوجاً «مطيعاً» ، الطاعة تطلب من الصغار فقط. الزوجة تريد زوجاً تحترمه لأنه يحترم نفسه ويحترمها ويحترم العلاقة التى تربطهما معاً.

رسالة إلى السيدة الجميلة

من ابن عبد ربه

محمد عبد الواحد حجازي

مصر

* هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب.
* ولد في مدينة قرطبة بالأندلس في ١٠ رمضان سنة ٢٤٦هـ.
* عاصر أربعة من ملوك قرطبة:

أ - محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨هـ).

ب - ثم ابنه المنذر (٢٧٣هـ).

جـ - ثم عبد الله (شقيق المنذر) (٢٧٥هـ).

د - ثم حفيد عبد الله، الأمير عبد الرحمن الناصر (٣٠٠هـ).

* أشهر كتبه: «العقد الفريد».. جمع فيه بين فنون الأدب وأخبار المجتمعات العربية.
* مختارات العقد جاءت معبرة عن شخصية ابن عبد ربه وعن قيمة ذوقه وأصالته الفنية.
* توفي في ١٨ جمادى الأولى سنة ٣٢٨هـ.

غادة الأندلس:

بلغتني رسالتك الرقيقة تحمل إليَّ أجمل الأمنيات وأخلص الدعوات في أن يهبني الله الصحة والعافية وطول العمر..

ولقد طلبت مني يا حسنائي أمراً عجبا، طلبت منى أن أجيب على ثلاثة أسئلة تقولين إنها من الحب في الصميم:

السؤال الأول: الآن وقد بلغت الثانية والثمانين من عمرك المديد بإذن الله، فكيف تشعر الآن بالحياة؟ ماذا تريد؟ وماذا تشتهي؟

السؤال الثاني: وأنت في غضارة شبابك، وتفتح قلبك وعينك لجمال الدنيا، أي حسناء شغلتك وشغلت بها؟

السؤال الثالث: هل من الممكن أن تحكى لي طرفاً من تاريخ صبواتك وغزواتك لقلوب العذارى الحسان؟

وغايتي من ذلك يا سيدي هو أن يكون لديَّ مشهد من مشاهد تاريخ الحب فأنت في نظري وتقديري خير ممثل له في تاريخ قرطبة.

وحتى أجيبك يا حسناتي، غادة الأندلس، فإنني والحق أقول إنك قد أثرت أشجاني فأرجعتني إلى فجر صباي، أرجعتني إلى جمال الحياة بأحلى ما فيها من تطلعات وأمنيات.. وبأحلى ما فيها من عذاب وشقاء وضنى وعناء.. وثقي يا حسنائى أنك لم تشقنى أو تثيرى أساي على أيامى

الخوالي، ولكنك أبهجتني حين دعوتنى إلى تذكرها، ودعوتنى إلى تصوير ما كان فيها من معابثات الهوى ونزعات الشباب.

أما عن شعوري بالدنيا والحياة، وماذا أريد منها وماذا اشتهى بعد أن بلغت الثانية والثمانين، فإنني الآن أعاني من أوصاب وعلل جسمية تعتادني الفينة بعد الفينة. وهذا شأن كل كائن حي إذا طالت مدة بقائه ومعاناته لصروف الحياة.. وإنني لأحمد الله على أننى قادر على التفكر، قادر على التعبير.. أجل يا حسنائي:

بليت وأبلتني الليالي بكرها
وصرفان للأيام مُعتوران
ومالي لا أبلى لسبعين حجة
وعشر أتت من بعدها سنتان
فلا تسألاني عن تباريح علتي
ودونكما منى الذي تريانى
وإني بحمد الله راج لفضله
ولي من ضمان الله خير ضمان
ولست أبالي من تباريح علتى
إذا كان عقلي باقيا ولساني
هماما هما في كل حال تلم بي
فذا صارمي فيها وذاك سناني

وعما اشتهيه، فماذا تتصورين أن أشتهي وأنا شيخ فان ضعيف البنية تتعاوره الأوجاع؟ إنما أشتهى شيئا واحداً فحسب هو أن يمد الله سبحانه في عمرى، كي أكثر من توبتى واستغفاري وصلواتي لله سبحانه عساه يشملني بفضل رحمته- وهذا ما يحملنى على أن أقول لكل إنسان:

بادر إلى التوبة الخلصاء مبتدئا
والموت ويحك لم يمدد إليك يدا
وارقب من الله وعداً ليس يخلفه
لابد لله من إنجاز ما وعدا

* ومن هنا يا حسنائي جاء تذكيري للاهين والعابثين والذين يستتيمون للملذات فيعبون منها عبا وينتهبونها انتهابا، أقول الآن لكل لاه عابث ولكل من أسكرته الدنيا وحب الأمل:

أتلهو بين باطية وزير
وأنت من الهلاك على شفير
فيا من غره أمل طويل
يؤديه إلى أجل قصير
أتفرح والمنية كل يوم
تريك مكان قبرك في القبور
هي الدنيا فإن سرتك يوما
فإن الحزن عاقبة السرور
ستُسلب كل ما جمعت منها
كعارية ترد إلى المعير
وتعتاض اليقين من التظني
ودار الحق من دار الغرور

هذه هي شهوتي اليوم من الحياة: توبة وقنوت وتحذير وتذكير.. ولا أريد أن أطيل

عليك في هذا المجال فربما بغضت إليك وربما كدرت في عينيك الدنيا، وأنت زهرة الدنيا وزينتها وبهجتها.

حسنائي، غادة الأندلس:

تريدين مني أن أطرفك بشيء من غزواتي وصبواتي في ميدان العشق والتهيام.. أما عن حسنائي يا غادة الأندلس فهي «ليلى».. ولن أفصح عن شأنها احتراماً لها ولأولادها وربما أحفادها..

أذكر أنها أرهقتني يوما بتساؤلاتها التى كانت تحمل معنى الشك والارتياب في حبي لها. وعلى إثر تلك الشكوك فإنها أعلنت عليّ حرب الخصام، وكأنما وجدت أن تعذيبي هو خير انتقام مني. فبعثت إليها رسالة أقول فيها:

أنت دائى وفي يديك دوائي
يا شقائي من الجوى وبلائي
إن قلبى بحب من لا أسمي
في عناء أعظم به من عناء
كيف لا، كيف أن ألذ بعيش
مات صبري به ومات عزائي
أيها اللائمون ماذا عليكم
أن تعيشوا وأن أموت بدائي
ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميْتُ ميت الأحياء

ثم قابلتها على غير قصد مني، فقلت لها:

أتقتلنى ظلما وتجحدني قتلي؟
وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل

* فلم ترد عليّ ولم تلتفت إليّ.. وما كان من بعض الأوداء إلا أن استفسر مني عن حالي مع ليلاي ونصحوني بأن أنتقم منها فأرد عليها صدوداً بصدود واستهانة باستهانة. فقلت لهم:

أطلاب ذحلى ليس بي غير شادن
بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذحلي
أغار على قلبي فلما أتيته
أطالبه فيه أغار علي عقلي
بنفسي التي ضنت برد سلامها
ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي
إذا جئتها صدت حياء بوجهها
فيعجبني هجر ألذ من الوصل
وإن حكمت جارت عليّ بحكمها
ولكن ذاك الجور أشهى من العدل

غادة الأندلس :

بعد أن القيت على مسامع صحبي حجتي وذريعتي ذهبت إلى بيتي.. فلما صرت وحدي حادثت قلبي أعاتبه ويعاتبني:

أقول لقلبي كلما ضامه الأسى
إذا ما أتيت العز فاصبر على الذل
برأيك لا رأيي تعرضت للهوى
وأمرك لا أمري وفعلك لا فعلي
وجدت الهوى نصلا من الموت مغمدا
فجردته ثم اتكيت على النصل

فإن تك مقتولا على غير ريبة
فأنت الذي عرضت نفسك للقتل

* وذات ليلة كنت أمر بقرب قصرها فسمعت غناء أذهب لبى وألهب قلبي ذلك أنه كان صوت حبيبتي.. ثم انقطع الصوت بضع ثوان، بعدها شاهدتها ترش عليّ ماء الورد عناداً منها ومعابثة فكتبت إليها أقول:

يا من يضن بصوت الطائر الفرد
ما كنت أحسب هذا البخل في أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة
أصغت إلي الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمعي تقلدُه
صوتا يجول مجال الروح في الجسد
لو كان زريابُ حيا ثم أسْمعَه
لذاب من حسد أو مات من كمد

* وبعد ليلة أرسلت إليها برسالة أقول فيها:

.. ..

متى يكون التلاقي؟
يا سقيم الجفون من غير سقم
بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أعظم يوم
ليتني مت قبل يوم الفراق

* ثم قلت لها: ليتك تحسين بأشواقي.. ليتك ترحمين قلبي!!

إن بين الضلوع شوقا دفينا
ترك القلب والها مسكينا
يا غزالا يصبي القلوب هواه
وهلالا يغشى سناه العيونا
أنت علمتني الصبابة والبخْ
ـل فصرت البخيل فيك الضنينا

* أما ما كنت أحب أن يكون واقعاً حيا أحياه مع حبيبتي ليلى فهو زيارة طيفها لي.. فقد أفرحني بقدر ما أضناني وأسهدني:

سرى طيف الحبيب على البعاد
ليصلح بين عينى والرقاد
فبات إلى الصباح يدى وساد
لوجنته كما يده وسادي
بنفسى من أعاد إليّ نفسي
ورد إلي جوانحه فؤادي
خيال زارني لما رآني
عدتني عن زيارته العوادي
يواصلني على الهجران منه
ويدنينى على طول البعاد

غادة الأندلس:

تلك بعض مشاهد من أحداث غرامي.. وكيف برح بي الهوى. .وكيف أسعدني. وإنه لشأن الحياة يا حسنائي الصغيرة.. فعيشي حياتك واستمتعي بشبابك واسعدي بحبك..



د. أبو حسام ـ المنصورة ـ

٢١٤ ـ طاغية رهيب

في عهد ستالين كثرت المؤلفات الهاتفة بمجده، والداعية إلى تكريم بطل الحرية والحب ورعاية الفقراء وبعث الرفاهية في روسيا على نحو شامل عام، ثم مات ستالين فانفجر البركان الغاضب يقذف بالحمم الحمراء لتشويهه، وانهالت اللعنات على أسوأ عهد للطغيان، ولم يكن ستالين طاغية عند توليه الحُكْم فحسب، بل كان كأفراد عصابته سفاحاً منذ عرفه التاريخ، وتروى عنه هذه القصة[١].

في صباح يوم ٢٣/٦/١٩٠٧م غادرت مكتب البريد التابع لمدينة تفليس بروسيا عربتان مطهمتان يحوطهما نفر مدجج بالسلاح من رجال البوليس، وكانت العربتان تحملان شحنة من المال تقصدان بهما إلى بنك الدولة في الطرف الآخر من المدينة، وسارت العربتان في طريقهما، وكانت الشوارع غاصة بالعابرين من الناس، والجالسين على المقاهي، يتناولون طعام الإفطار، حتى وصلتا إلى مُنْحنًى من الطريق يؤدي إلى شارع فسيح، وقفت عنده امرأة تقرأ صحف الصباح، فما كادت العربتان تقتربان من المرأة حتى طوت الصحيفة، وسمع صوت انفجار مروع اهتزت له أركان المنازل الكائنة بالشارع جميعها، وتلاه انفجارات أخرى بلغ عددها ستة، وامتلأ المكان بالدخان، وصرخ الرجال وصاحت النسوة، وقفزت الخيل في رعب وجنون، وتحطمت نوافذ المنازل في دائرة قدرها ميل من الحادث! وأقبل في تلك اللحظة رجل يرتدي ملابس ضابط من ضباط الجيش، حيث العربة المحملة بالمال، فانتزع الصناديق من أماكنها، وقفز على حصانه، وعاد من حيث أتى بعد أن ألقيت القذائف المدمرة لتحصد الأرواح دون أن يلتفت أحد في هول الكارثة إلى ما يصنع مفجروها الآثمون من نهب شنيع، أما الضابط الذي حمل النقود فقد كان أحد أفراد الشيوعيين، وأما الذين قذفوا القنابل المحرقة فكانوا ستة

يرأسهم طاغية روسيا (من بعد) ستالين، وقد دبر هذه الفظائع ليسلب المال، وكان أثر الحادث المخرب المدمر من الروعة بحيث احتج عليه نفر من الشيوعين أنفسهم، وعقدوا اجتماعا قرروا فيه طرد الطاغية (ستالين) من زمرتهم، ولكن زعيمهم الأكبر (لينين) دافع عنه، وأثنى على عمله الرائع، لإيمانه ببطولته وخدمته لزملائه، فأقر الشيوعيون صواب جريمته، وقالوا إنه قَدَّم للحزب أحسن الخدمات لأنه وفر له ما يحتاج من مال يكون ثروة مدخرة لهم في الأزمات.

٢١٥ - دكتاتور متسلط

ظن المنخدعون أن روسيا ستنعم بالأمان والحرية بعد سقوط القيصرية، وابتداء حكم الشيوعيين، ولكن الواقع المرير أثبت أن روسيا شاهدت أسوأ العهود في حقبة هؤلاء الطغاة، وقد جرت الدماء أنهاراً على يد (ستالين) ما بين سنتي ١٩٣٦، ١٩٣٨ بدعوى التطهير، ولم يكن التطهير الا استئصالا لكل شخص يحاول معارضة الدكتاتور الرهيب.

يقول الكاتب الأمريكي (هارولدوني) في مجلة «نيويورك مجازين» بعد حديث عن الشيوعية! «روسيا يحكمها رجل واحد، هو جوسيف ستالين، ينفذ إرادته المطلقة بطريقة لم تتح للقيصر في جبروته، بل لم يظفر بها هتلر لأن النظام السوفيتي متوغل في حياة الشعب الداخلية والخارجية، بطريقة لم يسبق لها مثيل في حياة الإنسان، ومن ثم كان من السهل على الكرملين أن يعلن الرأى النهائي في السياسة العالمية، ما بين عشية وضحاها، كما فعل فى الوقت الأخير إذ أعلن فصم العلاقات الروسية، بالأمم الديمقراطية الغربية وارتباطها بألمانيا - كان ذلك أول الحرب العالمية الثانية ثم انقلب الى الضد لأطماع عارضة - وفي مقدور ستالين أن يتصرف كيف شاء في سياسة روسيا الخارجية ولا يجسر أحد أن يرفع صوتاً ما بمعارضته في حال من الأحوال.

فروسيا وإن كانت تعد نفسها من الناحية النظرية أمة ديمقراطية بعد أن كانت - نظريا - تُحْكَمُ من قَبْلُ حُكْماً دكتاتوريا، إلا أنها تنتهج النهج الدكتاتوري حين تخضع لحُكم الفرد المتسلط، وتجارب الشيوعيين أكسبتهم علماً بأن الشعب الروسي يجب أن ينقاد، يجب أن يقهر، ويُضَيَّق عليه بيد من حديد، فلينين كان دكتاتوراً بعقله وأخلاقه قبل أن يكون دكتاتوراً بقوته وجبروته، وجاء من بعده ستالين فأصبح أشد طغيانا وتجبرا أكثر مما كان لينين، ويرجع نجاح ستالين كحاكم مستبد منقطع النظير في العصر الحاضر، إلى خبثه الزائد، واستهتاره الذى لا حد له.

وقوة البوليس في روسيا هي المصدر الحقيقي لنفوذ ستالين، والبوليس الروسي يقوم على نظام خطير في التجسس وسفك الدماء، وتشجع السلطة الروسية التجسس بين أبناء الشعب، حتى أن الجار في روسيا يتجسس على جاره، والشخص يشي بأفراد

عائلته، وقد تصل بلاغات البوليس الى حد الاختراع، ويضيع بسببها أبرياء كثيرون، إذ كل إنسان في هذا البلد خاضع لستالين، وفي اللحظة التي تقع فيها الشبهة على إنسان يختفي أثره من الوجود، ولا تعوز ستالين الوسائل التي يستحوذ بها على الرأى العام في روسيا فهو يضع يده على الصحافة والإذاعة والمسرح والسينما وكل وسيلة من وسائل التعبير، فإذا أراد أن يطلب كلمة الرأى العام في المساء كانت بين يديه في الصباح دون عناء، واذا نظرنا الى ضحايا هذا المستبد الخطير، وإلى اليد الحديدية التى استولى بها على الشعب الروسي أفراداً وجماعات، أيقنا بأن الحاكم المستبد السابق في عهد القيصرية لم يكن شيئا جوار ستالين.

أقول، والشيوعيون من العرب يعرفون ذلك ويدافعون عنه، وقد انهارت الشيوعية في أوربا، وبقى هؤلاء وحدهم يتحسرون ويبكون لأنهم عملاء خسروا مجال كسب كبير.

٢١٦ ـ (قصة فتاة)

كان سكرتير اللجنة التنفيذية للمقاطعات الروسية صديقاً حميما لستالين، وموضع ثقته، وهو الذى يختار أعوان الدكتاتور من الإداريين، وبخاصة من السكرتيريين والخدم والسعاة، وكان يقدم لوظائف السكرتارية من تقع عينه عليها من الجميلات ذوات الحسن الخالب، وقد اختار لقراءات ستالين الخاصة في ساعات فراغه فتاة شابة حسناء ذات أصل استقراطي قديم، وكان ستالين يضطجع كل يوم في الصباح قبل أن يباشر عمله الرسمي على أريكة ناعمة حيث تجلس الفتاة أمامه لتقرأ كل ما يريد من صحف أو رسائل كتابية أو برقيات خارجية ويجانبه منضدة تحمل أطباق الحلوى والفاكهة وما يلزم من العقاقير الطبية، وقد أعجب ستالين بقراءة الفتاة، وسرعة فهمها، وجودة تعليقها على ما تقرأ، وعدَّ مجلسها من أسعد أوقاته اليومية، وفي ذات صباح أمر الدكتاتور بقدحين من البُنّ التركي الذي يحبه، وكان من عادتها أن تتذوق أولا ما يقدم لستالين كي يأمن أن يكون الشراب موضع خطر، وحين وضعت السكر في الفنجان كانت عين الدكتاتور تلحظ بيقظة لونا في السكر غير طبيعي، وهو شيء لا يلحظ إلا بتأمل فاحص لا يدركه غير شكاك حذر دقيق، فتركها تشرب قدحها، ثم طلب منها أن تشرب القدح المعدّل، فظهر عليها ما يدل على انتشار السم، فلم يكفه أن تموت بين يديه، ولكنه تعقب أهلها وأصدقاءها، ومن يظن لهم بها أدنى صلة عارضة، فاستأصلهم جميعا بعد تعذيب شاق في السجون، ليعترفوا بما يعلمونه من نوايا الحسناء، فقد يكون لها شركاء فى المؤامرة قطعاً، ولابد أن يصل إليهم جميعا، وقد احتاط حين لم يجد الدليل، فأعدم من يشاع أنه من معارفها، أما صديقه الحميم سكرتير اللجنة التنفيذية للمقاطعات

الروسية فقد أُبْعد من مناصبه وجُرِّد منها تجريداً تاماً، وألقي به في السجن أمداً طويلا، لأنه لم يُحسن الاختيارحين قدّم الفتاة لتكون سكرتيرة خاصة للدكتاتور.

٢١٧ - (شاعر روسي)

كانت العلاقات تبدو حميمة صادقة بين ستالين والشاعر الروسي الكبير مكسيم جوركي إذ شاركه الكفاح في الماضي السياسي البعيد والقريب، وقد لحظ الدكتاتور أن ما يقدمه الشاعر الروسي في المسرح الكبير بموسكو يحمل نقدات تهكمية لأعوان ستالين، وهم أداته الطيعة فيما يقومون به من انتهاكات ظالمة، كما لاحظ تأثيره الكبير في المجتمع الروسي، ولم يستطع أن يغدر علنا بصديقه الحميم فيزج به في السجن، ويلفق له تهمة الخيانة وهو من أعمدة الشيوعية الذين ناصروها بالدم والفكر والعذاب والنفي، وله شعبيته الهائلة، فأمر بمن يدّس له السم البطيء في طعامه، ولم يكن يسكن معه غير ولده، فاشترك معه فيما يأكل، وتوفي الوالد والابن في وقت مقارب، وخاف الدكتاتور أن تحوم شبهة ما حول وفاة الشاعر الكبير إذا قورنت بوفاة ولده، وكلتاهما كانتا مفاجأتين كبيرتين، فأمر بمحاكمة صُورية للأطباء الذين تولوا علاج الشاعر لأنهم لم يستطيعوا ملافاة الداء قبل استفحاله في رأي من ادعي عليهم ذلك، وانتهت المحاكمة بإعدامهم رمياً بالرصاص وفيهم من قدم السم كيلا يذيع فيما بعد شيئا عن الجرم الفظيع، ودارت الدائرة على المخرج المسرحي الكبير (مايرهولد) الذي كان يخرج مسرحيات جوركي حاملة بعض الانتقادات، وقد توسل للطاغية وهو من أصدقائه الكبار جازماً بأنه كان يلطف كثيرا من المعاني والعبارات، ولولا غضب جوركي المتكرر لما ترك القليل مما ينقد ويشرّح، إذ كان يثور في وجهه كلما خالف النص المكتوب، ويزعم له أنهما فوق المحاسبة والنقد لمكانتهما من الدكتاتور والشعب معا! على أن مكسيم جوركي مع ذلك لم يسلم من نقمه الخاصة لأنه انحرف كثيرا عن صراحته المعهودة أيام لينين، وفي زمان القيصرية السالف، كان الشاعر يحتاط إذن ولم يجده الاحتياط شيئا، بل ساق في طريقه نفراً من الأطباء المساكين.

٢١٨ - يارسول الله

أتيتَ والناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام في صنم
والأرض مملوءة جورا ومسخرة
لكل طاغية في الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغي في رعيته
وقيصر الروم من كبر أصم عمي
يعذبان عباد الله في شبه
ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم
كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم

الثقافة الذاتية .. المنطلق الحضاري

آخر مسك

لا شك أن من أهم العوامل التي تتسبب في تأخير الأمم، وتؤدي إلى تدهورها الفكري والاقتصادي والسياسي والحضاري.. إنكارها لذاتها، وعدم معرفتها لتاريخها، وجهلها برجالها وعظمائها.. ولا ريب أيضا أن هذا الانفصام الخطير إذا ما حدث في كيان أمة ما فإنه يفصل بين الخلف والسلف، وبين الماضي والحاضر، وبين الثابت والمتطور.. وأيما أمة اكتسح هذا المرض العضال جسدها فهو لا محالة سيعصف بمراكز القوة والحيوية فيها؛ ويرديها كياناً هامداً لا روح فيه ولا حياة.

من هنا رأينا الأمم الكبيرة، والشعوب الصاحية في كل وقت وحين تحافظ على جذورها الحضارية، وتنطلق من القسمات المحددة لهويتها وشخصيتها في كل ما تأتيه من عمل، وما تقوم به من انجازات .. لقد وعت الشعوب المتقدمة هذه الحقيقة الرائعة، والبسيطة في الوقت ذاته، فمهّدت أمامها أسباب الازدهار، وانداحت لها أساليب النهوض والترقي.

وليس أدل على كون هذه الحقيقة هي سر كل تقدم أو تغيير إيجابي فاعل، أن أية حركة استعمارية تتمكن من السيطرة على أية جهة مقهورة في الأرض إلا ونجد أنها تشرع في تنفيذ عملية التبديل الثقافي، وتغيير الخلفية الفكرية التي تتحكم في مقوّمات شخصية المجتمع وهويته الحضارية؛ ومن جهة أخرى فإن هذه الخلفية العقلية المتمايزة هي التي أعيت المشرفين والقائمين على محاولات غرس الكثير من المناهج الاقتصادية والتنموية وغيرها في بيئات غريبة عنها، لأن تلك المناهج وليدة نفسية وعقلية مختلفة في بنيتها التكوينية وخصوصياتها الفكرية عن العقلية والنفسية السائدة في البيئة المراد تغييرها وتنميتها وتحويلها.



بقلم:
ابراهيم نويري
الجزائر

هذه القضية الهامة، والتي تحاول الدوائر الاستعمارية المعادية للشعوب،

وخاصة العالم العربي والإسلامي، إخفاءها وحجبها عن الوعي الجمعي، أضحت اليوم تأخذ حيِّزا محترماً من الاهتمام والعناية، بعد أن صارت قناعة مركوزة لدى الكثيرين من علماء هذه الأمة ومفكريها وخبرائها.

ونحسب أن المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي هو أحد الرواد الذين أسهموا - في نتاجهم الفكري والعلمي - في التشديد على أهمية وقيمة الثقافة الذاتية في عملية الاستنهاض والإقلاع الحضاري، ومحاولات تخطي سدود التخلف، وعقبات الانحطاط والتردي الحضاري.

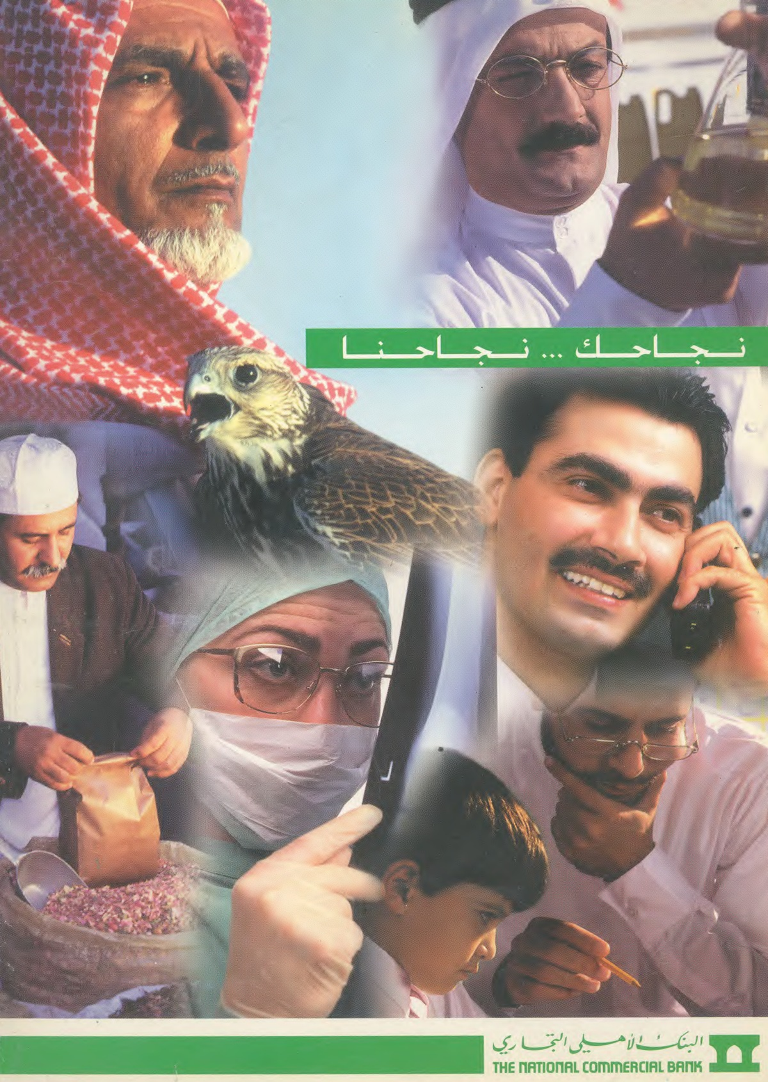
ومن الأمثلة على ذلك نراه يشير في بعض مؤلفاته إلى تجربة برنامج «شاخت» الذي حاول تنمية اندونيسيا، واخراجها من غياهب التخلف.. إلا أن هذا البرنامج أخفق في بداياته الأولى، والسبب بطبيعة الحال عدم مراعاة هذا البرنامج التنموي للخصوصيات الفكرية والحضارية في أندونيسيا، وهي تختلف طبيعة وفطرة وتكويناً عن نظيرتها في ألمانيا، أو العالم الغربي عموماً.

أما فضيلة الشيخ الغزالي (عليه رحمة الله) فيقول عن أهمية هذه الثقافة: «إن الثقافة الذاتية هي التي تصوِّر شخصية الأمة وملامحها الفكرية والنفسية، وتشرح عقائدها التي تنطلق منها، وأهدافها التي تنطلق إليها، وتقاليدها وأخلاقها وشرائعها بدءاً من الأسرة إلى علائقها الدولية.. إن هذه الثقافة الذاتية هي اكسير الحياة للأمة، والمجدِّد الدائم لطاقاتها الأدبية والمادية.. ومن هنا اتجه الاستعمار العالمي إلى ضرب هذه الثقافة، وتوهين معاهدها، فإما أجهز عليها، وإما شلَّ حراكها وأبقاها صورة هامدة، أو اسماً بلا مضمون».

إن الأمل الذي أضحى يحدونا على طريق العودة إلى الذات ليس نابعاً من فراغ أو غرور، وإنما هو أمل يجيء بعد رحلة مرهقة من المتاهات التي عاشتها أمتنا في سبيل البحث عن مسالك ومناهج تتجاوز بها واقعها المتردِّي الذي هو حصيلة الحقبة الاستعمارية القاتمة السواد.

بيد أننا لا ننكر - ونحن نتشوَّف إلى إقلاع حضاري راشد نابع من ذاتنا وأصولنا - وجود المحاولات الشرسة التي ما تكاد تختفي إلا لتعود من جديد وبأساليب أكثر حدة وجُرأة ودهاء، وهي تعمل دون كلل، قصد إبعادنا عن منابعنا الحضارية وجذورنا الثقافية.

وذلك حتى يُلقى في روع الأجيال المسلمة المعاصرة، أن النهضة الحقيقية الفاعلة لا يمكن أن تحدث في بلاد العرب والمسلمين إلا بالإعتماد على تجربة الحضارة الغربية!! ولا يخفى أبداً خطر مثل هذه الطروحات لأن الإسلام لم يتنكر يوماً لتجارب الحضارات الأخرى - ولم يُعرف في تاريخنا أن المسلمين الاوائل وهم يشيدون الحضارة الاسلامية ضيَّقوا على أنفسهم في الأخذ بثمار حضارات الأمم الأخرى.. وانما استوعبوا تجارب الآخرين، وأخضعوها للمعايير الإسلامية الضابطة لأصول حضارتنا.. وهذا بحد ذاته جانب من جوانب التأسيس الإسلامي لمنهجية الثقافة الذاتية.


نجاحك ... نجاحنا
البنك الأهلي التجاري
THE NATIONAL COMMERCIAL BANK